
بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

هوية الكتاب

* الكتاب: بينات من فقه القرآن، دراسة قرآنية تعتمد استنباط السنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم (سورة الفرقان).

* المؤلف: المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

* الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م. (٣١٨ صفحة).

* الناشر:

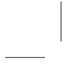
سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

بينات من فقه القرآن

١٤٣١

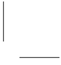
دِراسةٌ قرآنيةٌ تعتمد استنباط السُّنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم

(سُورة الفرقان)






﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(١)
الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢)
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣)
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(٤)
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥)
اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ(٦)
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ
غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ(٧)﴾



» المحتويات

» المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

إذا كان لكل سورة قرآنية سوراً خاصًّا بها، وإطاراً عامًّا يُحدِّد اتِّجاه آياتها، فإن هذه السورة التي سُمِّيت بـ(الفرقان)؛ تحدّثنا عن صفات القرآن الكريم وردّ الشبهات التي أثارها الكافرون حولها.

ومن أعظم حاجات البشر وأشدها ضرورة، التفريق بين الحق والباطل. أوَلَيس الإنسان يقع كثيراً في طريق الضلال وهو يحسب أنه على هدى؟. أوَلَم يقل ربنا سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

فإن كنتَ تحب نفسك وتخشى أن تخسرها في معركة الحق والباطل الحامية دوماً والمصيرية، فتعال نتدبر في آيات هذه السورة لعل غشاوة بصائرنا ترتفع، وحجب قلوبنا تنجلي، ثم تستنير عقولنا بضياء القرآن، ويهدينا الربّ بفضله إلى الصراط المستقيم.

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٣-١٠٤.

إن ساعات العمر محدودة، وإن الغفلة عن استغلالها قد تُكلِّفنا غالياً، وقد تكون هذه هي الفرصة الأخيرة التي وفرها الرب لك ليرى كيف تتعامل معها؛ هل تضيعها أم تبادر باستغلالها؟. ونحن معك في هذه المرحلة التي نرجو أن تكون معراجاً إلى ذروة الهدى.

لقد وفَّقني الربّ تعالى أنا وإخوتي في المكتب أن نتمتع ساعات فضيلة في رحاب كتاب الله المجيد، ونشكر الربّ على هذا التوفيق العظيم، وعلى ما أنعم به علينا من فيض المعرفة ببعض حكم الوحي. وكان هذا الكتاب الذي بين يديك. ونأمل أن يجعله ربُّنا ذخيرة لنا ليوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلَّا مَنْ أتى الله بقلب سليم، والله المستعان.

محمد تقي المدرسي

١٠ ربيع الاول ١٤٣٢هـ

» النبي صلى الله عليه وآله وسلم نذيراً للعالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾.

» من الحديث

* عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ سِنَانٍ أَوْ عَنْ غَيْرِهِ عَمَّنْ ذَكَرَهُ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنِ الْقُرْآنِ وَالْفُرْقَانِ أَهُمَا شَيْئَانِ أَوْ شَيْءٌ وَاحِدٌ؟.

فَقَالَ عليه السلام: **الْقُرْآنُ جُمْلَةُ الْكِتَابِ وَالْفُرْقَانُ الْمُحْكَمُ الْوَاجِبُ الْعَمَلِ بِهِ**»[1].

***

تفصيل القول

في الكلمة الصادقة نور، بينما الكلمة الكاذبة ظلام في ظلام.

(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص٦٢٧.

وأصدق القول كتاب ربنا الكريم فإنه يتلألأ ضياءً، ونوره يهدينا إلى حقيقته.

وهكذا فإننا حين نتلو آيات الكتاب نجده موجَّهاً إلى جميع البشر من دون تمييز بين إنسان وآخر على أساس العنصر أو اللون أو القومية أو أي معيار آخر.

كيف نستفيد هذه البصيرة من هذا السياق؟.

تعالوا نستمع إلى ربِّنا سبحانه وهو يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(1).

ماذا نجد في هذه الآية الكريمة؟.

إنك تجد ذلك الخطاب الذي يأتي من مصدر علوي غير متأثر بأي تمييز، وحتى حينما يأتي خطاب القرآن موجهاً إلى المؤمنين بتعبير: يا أيها الذين آمنوا، فإنه لا يُميِّز مؤمناً من آخر بلونه أو قومه أو مستواه العلمي أو المالي أو..

وهذه السِّمة في كتاب ربنا ذات دلالة على أنه نازل من الخالق سبحانه. لماذا؟.

لأن الكلام حين يصدر من البشر يعكس طبيعة المتكلم والمؤثرات المختلفة التي تنعكس عليه من بيئته الثقافية أو الاجتماعية أو الطبقية أو غيرها.

وهكذا نقرأ هذه الآية: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ

(1) سورة الحجرات، آية: 13.

لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾.

أوَلَا تهدينا كل كلمة من هـذه الآية إلى حقيقة الرسالة؟!. فالله الذي وسعت رحمته كل شيء وشملت بركته كل شيء، هو الذي بعث الرسول رحمة للعالمين ونذيراً.

ولعل الآية الكريمة التي تقول: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1]، هي الأخرى تدلُّنا إلى أن الهداة يكونون من كل قوم وكل طائفة، وإنما أنت يا رسول الله منذر بوجه مطلق وللجميع. وبهذا المعنى يكون إنذار العبد المصطفى لربّ العالمين شاملاً لكل العالم.

وبما أن هذه السورة مكية فإنها تُفنِّد الشبهات التي أثارها المستشرقون وتبعهم فيها طائفة من الشرقيين، والتي تمثَّلت في التفريق بين قرآن مكة وقرآن المدينة، وحيث إنهم زعموا أن الرسالة تكاملت شيئاً فشيئاً حتى أصبحت رسالة عالمية؛ فيا ترى هل هذه الآية وهي مكية تنسجم مع ذلك الإفك؟.

كلَّا؛ إنما هي صاعقة تحرق هذه الشبهات وما وراءها من نيَّة خبيثة في التشكيك برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

***

١ - ﴿تَبَارَكَ﴾.

وردت كلمة ﴿تَبَارَكَ﴾ أكثر من مرة في القرآن الكريم، ولكنها اتَّصلت بالقرآن مرتين أو ثلاث مرات.

وحسب إطلاقات هذه المفردة واستخداماتها في القرآن،

(١) سورة الرعد، آية: ٧.

فإنها تعني النمو والزيادة، وحيث نعرف أن الكلمة، أيّة كلمة، لا ترد جزافاً في سياق الآيات الكريمة. فإن من الضروري جدًّا البحث عن العلاقة بين البركة وبين القرآن الذي سُمِّي هنا بـ(الفرقان).

ولعل هذه العلاقة تتضح عندما نعرف أن البشر يملكون من الطاقات ما لا يعرفونها، أو حتى ما لا يُحصيها إلَّا الله سبحانه وتعالى، وهذه الإمكانات لن تنفعل إلَّا بالقرآن الكريم. والنعمة الواحدة هي نعم شتى لا تُحصى، والله يقول: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1]. وإذا كانت النعمة الواحدة بأبعادها ومُعطياتها، لا نُحصيها عدًّا، فكيف بباقي النعم؟. وإن كانت الروايات الشريفة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، قد أوّلت المقصود بهذه النعمة الواحدة بالإمام المعصوم المفترض الطاعة الذي جعله الله سبحانه وتعالى فوق مستوى الواصفين.. إلَّا أن النعم الإلهية الأخرى التي تلي مرتبتها مرتبة الإمام المعصوم، هي الأخرى لها من البركة الإلهية ما لا يمكن إحصاؤها.

وعليه؛ فإن البركة الإلهية هنا لها من السعة ما يناسب الحادث الكبير على مستوى الخلق، وهو المتمثل في الوحي حيث يقول تعالى:

٢- ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول، والمقصود به هو الله موجِد الوجود، وهو الطرف الأعلى الذي نزّل بصائر الوحي فجعل مخلوقه قابلاً لتلقي الوحي واستقبال الفرقان.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٤.

والفرقــان كــما هو واضــح؛ القــرآن الكريم الــذي جعله الله سبحانه وتعالى ميزاناً يُعرف به الحق ويُميَّز به الباطل.

ولا يمكن لغير الرســول أن يكون قابلاً لتلقِّي هذا الفرقان، لأنه قد تحقق فيه أعلى مراتب العبودية والتعالي إلى ذروة القرب من مشيئة الرب، حتى لكانه أصبح صنواً لها، فكان بالتالي أهلاً لتحمل أعباء التمييز بين الحق والباطل وفقاً لما أملى عليه الله تعالى ونزل من إرادته وشرعه.

»مــن أجــل معرفة الحق، وكشف زيف الباطــل، علينــا أن نرجــع إلى محكمات آيات الكتــاب التي هي الفرقان بين الحق والباطل.

أمــا البــشر الآخــرون فعليهــم أن يكونــوا تبعــاً لهذا الرســول لكــي تشــملهم البركة الإلهيــة. ولا ريب في أن لــكل واحــدٍ من بين البــشر حدًّا محــدوداً في مدى اتِّباع الرســول، كما أن للمتمردين دركاتهم المتســافلة في الخروج على ميزان الحق.

والفرقان، هي الآيات القرآنية المحكمة التي يُميِّز بها المؤمنون الحق من الباطل. ومن المعروف أن الناس ليســوا جميعاً في مســتوى فقــه آيات القرآن كلهــا، فقد تكون الآيات متشــابهات عندهــم. وإنما الفرقان تلك الآيات الواضحة التي تكون ميزاناً بين الحــق والباطل عند عارفها. ولعل الآيات الأخيرة في هذه الســورة الكريمة التي تُذكِّر بصفات عباد الرحمن تبين ضمناً الشروط الذاتية لفقه القرآن فقهاً يجعل آياته لعباد الرحمن فرقاناً.

» بصائر وأحكام

١ – آفاق البركة الإلهية تتسـع وتتسـع حتى تتناسـب وذلك الحدث الجلل المتمثل بوحي الفرقان.

٢- لا يمكن لغير الرسول أن يتلقى وحي الفرقان؛ لأنه الذي قد تحقق فيه أعلى مراتب السمو إلى ذروة القرب من الرب. أما الآخرون فعليهم أن تشملهم بركة ذلك الوحي من خلاله.

٣- ليس الهدف من تنزيل القرآن محدوداً بقوم، بل هو رسالة لكل العالمين.

٤- الإنذار موجَّه إلى المخلوق بعد تراكم حجب الجهل والشهوة والخطأ على نفسه لعله يتمكن من خلاله إزاحة الحجب عن نفسه والعودة إلى فطرته التي لا ترنو إلَّا إلى خالقها ذي الرحمة والبركة.

٥- من أجل معرفة الحق، وكشف زيف الباطل، علينا أن نرجع إلى محكمات آيات الكتاب التي هي الفرقان بين الحق والباطل.

» ملكوت الرب

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾.

» *من الحديث*

* قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: «.. **فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ، وَجَحَدَ الْمُدَبِّرَ، زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ، وَلَمْ يَلْجَؤُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا أَوْعَوْا، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ**»[1].

* وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ مَهْزِيَارَ قَالَ: «كَتَبَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام إِلَى رَجُلٍ بِخَطِّهِ وَقَرَأْتُهُ فِي دُعَاءٍ كَتَبَ بِهِ أَنْ يَقُولَ: **يَا ذَا الَّذِي كَانَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ثُمَّ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ثُمَّ يَبْقَى وَيَفْنَى كُلُّ شَيْءٍ، وَيَا ذَا الَّذِي لَيْسَ فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى وَلَا فِي الْأَرَضِينَ السُّفْلَى وَلَا فَوْقَهُنَّ وَلَا بَيْنَهُنَّ وَلَا تَحْتَهُنَّ إِلَهٌ يُعْبَدُ غَيْرُهُ**»[2].

***

(١) نهج البلاغة: خطبة رقم: ١٨٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٣، ص٢٨٥.

تفصيل القول

١ - ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

هذه الرسالة عالمية، وآية عالميتها أنها نازلة عن مالك السماوات والأرض، فهي بسعة ذلك الملك.

ما هي شهادة هذه البصيرة العامة؟.

إن ملكوت الربّ توحي بحقائق شتى:

أولاً: إنه قد أبدع الخلائق إبداعاً، ومَنْ هو أولى بملك شيء من بارئها وخالقها؟.

ثانياً: إنه سبحانه قد استوى على عرش تدبير السماوات والأرض، فبيديه يقلبها كيف يشاء، ويهيمن عليها كيفما يريد سبحانه.

ومن أبعاد تدبيره أنه حينما نشر في الأرض البشر وأمرهم ونهاهم، بعث إليهم رسولاً من أنفسهم يبشرهم وينذرهم لعلهم يتقون.

ثالثاً: إن ربنا سبحانه رحمن، ومن أبعاد رحمته بركاته التي يُنزلها على عباده، والرسالة ذاتها بركة ومن يعمل بها ينتفع بها فيُصيبه من بركات الربّ ما لا يُعدُّ ولا يُحصى.

رابعاً: لقد بيَّن ربُّنا أنه مالك السماوات كما هو مالك الأرض. لماذا؟.

لأن السماء مصدر الخير للبشر كما قد تكون مصدر الخطر،

وقد قال ربنا سبحانه ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1].

أَوَلَيست أشعة الشمس تُغذِّي أرضنا بما تحتاجه، وكذلك بعض أشعة الكواكب والنجوم؟.

وهكذا لكيلا يزعم أحد أن ربّ السماء غير ربّ الأرض. كلَّا؛ فهو سبحانه الله في السماء، وهو تعالى إله الأرض.

ولقد نزَّل الله الفرقان من السماء؛ أي من الجهة العلوية لكي تكون الرسالة الإلهية هي الكلمة العليا في الأرض.

٢- ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾.

صلة ربنا سبحانه بخلقه واحدة. فهو الخالق الرازق المدبر.. وكل شيء سواه مخلوق مرزوق خاضع لتدبيره سبحانه.

وهذه الكلمة توحي إلينا ببصائر شتى:

أولاً: رفض مزاعم فلاسفة اليونان في وجود عقول عشرة وأن كل عقل خلق ما بعده، وأن لكل نوع من مخلوقات الربّ سبحانه ربًّا نوعيًّا خاصًّا به.

وهذه الخرافات التي كبَّلت عقول البشرية قروناً مُتطاولة، كانت وراء عبادة الأصنام في اليونان والرومان، ثم تسرَّبت إلى بعض الديانات، فقالوا بتعدد الآلهة.

ثانياً: ليس هناك أي نوع من التمييز العنصري بين الناس، فلا بنو إسرائيل أبناء الله وأحباؤه، ولا ذو اللون الأبيض أو الأسود أقرب إلى الربّ من الآخر مادام الخالق ينفي كليًّا وبوجه الإطلاق

(١) سورة الذاريات، آية ٢٢.

أي ولد له، لا من قبل أن يخلق ولا من بعد سبحانه.

وحينما نُوحِّد الرَّبّ نُوحِّد رسالاته، ونُوحِّد خلقه ونُؤسِّس لحياة بشرية فاضلة لا يتخذ البعض بعضاً أرباباً من دون الله.

» الخرافات التي كبَّلت عقول البشرية قرونًا مُتطاولة، كانت وراء عبادة الأصنام في اليونان والرومان، ثم تسرَّبت إلى بعض الديانات، فقالوا بتعدد الآلهة.

بل حتى نعم الله على البشر كالثروة والجاه والعلم وغيرها إن اتُّخذت وسيلةً للتفاخر أمام الآخرين والاستعلاء، أو اتُّخذت متاعاً للغرور والكبر؛ فإنها تُصبح حجاباً بين الإنسان وخالقه جبّار السماوات والأرض. وقد قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ ﴾(١).

وقصة النبي سليمان عليه السلام مذكورة في الكتاب لعلنا نعتبرها، حيث إنه حينما استعرض جُنده وطفق يمسح عليها بالسوق والأعناق، أحس أنه ربما احتجب عن مقام ربِّه بها فاستغفر وأناب.

ولعل توصيف القرآن للنبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بالعبودية يهدينا إلى أن أعظم النعم المتمثل في الرسالة الخاتمة والشاملة للعالمين لم يكن حاجباً له عن ربه، بل كان ولم يزل عبداً وليس ولداً، بل إن أعظم كماله صلى الله عليه وآله وسلم كان في كمال عبوديته لربه.

ثالثاً: نفي الولادة الذاتية والاعتبارية ينسف نظرية الفيض التي زعم بعض الفلاسفة أنها تُفسِّر خلق الله للكائنات، حيث توهَّموا ربهم في صورة عين ماء تجري منها الروافد، وهذه الروافد التي تنبعث منها تتصف بصفاتها نفسها، وهي بعد الجريان تفقد

(١) سورة سبأ، آية ٣٧.

الصلـة بهـا فلا سـلطان للعين عـلى سـواقيها، ولا علم لهـا بها ولا تواصل.

سـبحان الله، وعجيـب أمـر بعضهـم! أنـه يحمل مثـل هذه الخرافـات التـي هـي ميراث خيـال مريـض؛ يحملهـا إلى كتاب الله ليفـسر بها آياته الكريمـة، حيث قرأت في بعضها تأويل آيات العلم الإلهي بالقرآن بما يتناسب وتلك الأساطير، حيث قال: «بأن الله لا علم له إلَّا بالكُليَّات وليس بالجزئيات».

رابعاً: إن ربنا تعالى ذكره حينما نفى اتِّخاذ الولد شَـفَعَه رأسـاً بنفي الشريك. لماذا؟.

لأن الولـد حينما يتطـاول عليه الزمن يُصبح شريـكاً لوالده يُنازعه ويبدأ الصراع بينه وبين والده. وهذا بالضبط مشـكلة الذين قالوا بأن المسـيح ابن الله، حيث تراهم يزعمون أن عيسى بن مريم عليه السلام ينزع من الخالق خلاص مريديه نزعاً، ويشـفع لهم شاء الرب ذلك أم أبى. سبحان الله عما يصفون!.

٣- ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

ونفـي الشراكـة يدلنـا عـلى نفـي التأثـير المسـتقل لـشيء أو لشـخص من دون الله سبحانه. وعندما يعرف الإنسان هذه الصفة لربنا سـبحانه بصدق الإيمان، يـزداد تقوى بإذن الله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

وحيـث إن ربنا هـو الخالق لكل شيء، فإن لـه الملك وإنه لا شريك له. وهل يمكن أن يكون المخلوق شريكاً لخالقه؟.

كلَّا؛ والخلـق ليس مجرد إنشـاء حقيقة الأشـياء، بـل وأيضاً

صياغة هيئاتها وحدودها وخصائصها. والسمة البارزة للخلق تقدير الأشياء، فلكل شيء هدف وأجل وطاقة محدودة.

والتقدير دليل صنع الرب، فلو زعم أحد أنه خالق نفسه، فلماذا خلقها ضعيفةً محدودة؟ ولماذا لا يستطيع الخلود؟.

وكلما زدنا معرفة بالأشياء، زادت معرفتنا بمدى الدقة في تقديرها والحكمة في صنعها، وهكذا نعرف المزيد من آيات الصنع فيها.

» بصائر وأحكام

١- الفرقان رسالة عالمية، وعالميتها أنها نازلة عن مالك السماوات والأرض، فهي بسعة ذلك الملك.

٢- صلة ربنا سبحانه بخلقه واحدة!، فهو الخالق الرازق المُدبِّر.. وكل شيء سواه مخلوق مرزوق خاضع لتدبيره سبحانه.

» لماذا الشرك باللّه تعالى؟

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

» من الحديث

رُوي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام قال: «**أَقْبَلَ** صلى الله عليه وآله **عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ، وَقَالَ: وَأَنْتُمْ فَلِمَ عَبَدْتُمُ الْأَصْنَامَ مِنْ دُونِ الله؟**.

فَقَالُوا: نَتَقَرَّبُ بِذَلِكَ إِلَى الله تَعَالَى.

فَقَالَ صلى الله عليه وآله: **أَوَهِيَ سَامِعَةٌ مُطِيعَةٌ لِرَبِّهَا عَابِدَةٌ لَهُ حَتَّى تَتَقَرَّبُوا بِتَعْظِيمِهَا إِلَى الله؟**.

فَقَالُوا: لَا.

قَالَ صلى الله عليه وآله: **فَأَنْتُمُ الَّذِينَ نَحَتُّمُوهَا بِأَيْدِيكُمْ؟... فَلَأَنْ تَعْبُدَكُمْ هِيَ لَوْ كَانَ يَجُوزُ مِنْهَا الْعِبَادَةُ أَحْرَى مِنْ أَنْ تَعْبُدُوهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ أَمَرَكُمْ بِتَعْظِيمِهَا مَنْ هُوَ الْعَارِفُ بِمَصَالِحِكُمْ وَعَوَاقِبِكُمْ وَالْحَكِيمُ فِيمَا يُكَلِّفُكُمْ؟**»[1].

(١) بحار الأنوار: ج٩، ص٢٦٣.

تفصيل القول

١ - ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾

ترى ما الذي يدفع البشر إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى؟.

وهل أن وجود الشركاء الموهومين المزيفين يُعَدُّ حاجزاً بين الإنسان وبين معرفته لربه؟.

أم أن جهل هذا الإنسان بربه وبآياته وبأسمائه هو ما يدفعه إلى البحث عن شركاء موهومين؟.

أم أن هذين العاملين معاً يُعدان نتيجة عامل آخر؛ عامل الجهل، وهو الذي يدفع بالإنسان إلى الاحتجاب عن ربه من جهه، وإلى اتِّخاذه الأنداد من دونه عز وجل من جهه أخرى؟. وإذا كان الجهل هو العامل الأساس، فعلينا الاستضاءة بنور العقل للتخلُّص من الشرك.

بلى؛ إن الحديث عن الشرك حديث ذو شجون؛ لأن له شعباً مختلفة ودرجات متفاوتة. فقد يُصاب العديد ممن لهم ظاهر إيماني مُعيَّن بشعبة من شعب الشرك.

إن ما في العالم كله تجليات لقدرة الله ورحمته وأسمائه الحسنى، ولكن حيث يكون الاتصال بها من جانب الإنسان اتصالاً خاطئاً، حاجباً من دون الرب المتعال.. وهذا في حقيقة الأمر بداية للسقوط في أوحال الشرك. إنَّ كل شيء في عالم الخليقة يصبح معراجاً للإيمان شريطة أن يُتَّخذ وسيلةً وليس هدفاً. وبتعبير آخر: يُتَّخذ آيةً للرب وليس ذاتاً يُعبد من دونه.

والإيـمان الصـادق بالله تعالى يـدفعنـا إلى القناعة بأن من نعم الله على الإنسـان أنه تبارك وتعالى يُعطي عبده من النعم ما هو قادر حقًّا على تحمُّـل ضغط توفرها، أو حتى فقدانها. أما إذا اتَّخذها المرء محـطَّ اعتماده التام وتكبَّر بها؛ فإن تعامله معها حينذاك يكون تعاملاً خاطئاً يجره إلى ما لا تحمد عقباه..

والـشرك محيط بقلـب الإنسـان، كمنفذٍ من المنافـذ الخطيرة مسـتغلاً نقاط الضعف ليدخل ويستولي عليه فيما بعد؛ ولذلك كان لزاماً على ابن آدم أن يبقى مسـتيقظاً على الدوام، مراقباً لثغور نفسه التـي يدخلها الشرك عبر وسـاوس الشـيطان. ولطالمـا أوصانا الله تعالى بالحذر من خدع الشـيطان ومناورات النفس الأمَّارة بالسوء، التي لا تنفذ مادام في الإنسان نَفَسٌ يهبط ويعلو.

كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ ﴾[1].

ولكـن البشريـة التي هي محـطَّ نِعَـم الله وبركاته وفيوضاتـه تَتَّخـذ مـن دونـه آلهـة بجهلهـا وغفلتهـا وغرورها، ثم تراها متشـبثة بهـا دون أن يكون لها النفع أو الضر الحقيقيان عليها.

» إنَّ كل شيء في عالم الخليقة يصبح موَّاجًا للإيمـان شـريطة أن يُتَّخذ وسـيلةً وليس هدفًـا. وبتعبير آخر: يُتَّخذ آيةً للرب وليس ذاتًا يُعبد من دونه.

٢- ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾.

إن الله عـز وجـل هـو أحسـن الخالقـين، ولكن الآلهـة المزيَّفـة عاجزة عـن الخلق؛ لأنها مخلوقة أساسـاً، فكيف يُعطي من يُعطى؟.

(١) سورة النور، آية ٢١.

بـل إن كل ما في الوجود مما قـد يُتَّخذ إلهاً من دون الله عاجز كل العجـز عن أن يكون مسـتقلاً بنفسـه؛ إذ لا يملك لنفسـه نفعاً ولا ضرًّا ولا موتـاً ولا حيـاةً ولانشـوراً، لأن الأمـر كلـه بيـد الله الـربّ المُتعال؛ لأنه مصـدر الوجود والفيض عـلى مخلوقاته.. هذه المخلوقـات التي ليس بيدها أمر وجودهـا في الحياة، ولا تعلم متى تموت وتغادرها.

» بصائر وأحكام

١- إن عـلى الإنسـان أن يحـذر من تـسرُّب الـشرك الى قلبه بالتبـصر أبـداً بطبيعـة الخليقـة، وأنها لا تملك من نفسـها شـيئاً فلا يعتمدها، ولا يتَّكِل عليها بل يعتمد بها.

٢- إن منافـذ القلـب ثغورالنفـس، والشـيطان ذلك العدو الخطر يسعى جاهداً اقتحامها، فعلى المؤمن مراقبتها دائماً.

» جاؤوا ظلماً وزوراً

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

١ - ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾.

لماذا يطرح السياق القرآني كلما تحدَّث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الشبهات التي كان الأعداء يطرحونها على الرسالة ويُسمِّمون الأجواء بها، أَوَلَيس القرآن كتاب هدى، فهل من المناسب أن يُطرح من خلاله مثل هذه الشبهات، أو أن يُذكر فيه بعض الكلمات النابية التي تنال من شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتتَّهمه إما بالجنون أو السحر أو ما أشبه؟.

الإجابة عن ذلك:

أولاً: إن هذه الشبهات كانت مطروحة على الساحة، وكان لابد للقرآن الكريم باعتباره كتاب هداية أن يُبيِّن بصيرته التي

تُفنِّدها، وإلَّا كيف تتم الهداية؟ وهل يجتمع النور والظلام؟.

مـن هنا فمن دون تفنيد الشبهات والوساوس التي تُطرح حول الرسالة لا يمكن أن يصل الناس إلى صفاء الإيمان، والذي لا تشوبه وسوسة أو شبهة.

ثانياً: شبهات الأعداء تنطوي من حيث يشعرون أو لا يشعرون على اعترافات. فحينما كان العدو يطرح أن الرسول مجنون والعياذ بالله، كانوا يعترفون بعظيم شجاعته. كيف ذلك؟.

لأننا نعلم أن المجنون لا يمكن أن يبني أمة أو يُؤسِّس حضارة أو يخوض حروباً كبرى ثم ينتصر فيها. إذاً هذه الكلمة كانت تُـرَدُّ عليهم ثم تتحول إلى اعتراف من قبلهم، حيث إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مادام لم يكن مجنوناً فهو إذاً نبي متصل بالسماء ومُتوكِّل على الله ومنصور من عنده. لماذا؟.

لأن الإنسان العادي لا يستطيع أن يتحدَّى كل تلك الضغوط ويتغلَّب عليها ثم يُؤسِّس حضارة كبرى. إنهم قالوا: إنه لمجنون لما رأوا فيه من التحدي، ولما يطرحه من آراء مخالفة لكل الناس المحيطين به. بلى؛ إنه جاء بفكر جديد، لا يتناغم والبيئة الثقافية والبيئة الاجتماعية. كما تحدَّاهم بمواقفه الحاسمة.. فإن لم يكن مجنوناً، وهو بالتأكيد ليس كذلك وبشهادة فطرتهم؛ فإنه بالتأكيد نبي، وإلَّا فمن أين جاء بهذه المقدرة الكبيرة، وكيف تحدَّى العالم وحده؟ فإذاً لابد أن يكون متصلاً بالوحي.

» من دون تفنيد الشبهات والوساوس التي تُطرح حول الرسالة لا يمكن أن يصل الناس إلى صفاء الإيمان..

إذاً أولئك القوم حينما طرحوا هذه الشبهة رُدَّت عليهم، وتحوَّلت إلى إقرار منهم، ليس فقط بعظمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم،

وإنما بصدقه أيضاً.

كما أنهم قالوا: إن هذا الكتاب إفك؛ فرُدَّت مقولتهم عليهم، وتحوَّلت إلى شهادة. كيف؟

لأن كلمة الإفك تدل -وحاشا لله- على فبركة متكاملة، ولكن غير صحيحة. وهكذا تختلف لفظة الكذب عن الإفك؛ لأن الكذب معناه عدم مطابقة الواقع، ولكن الإفك معناه وجود أفكار منظمة تفرض نفسها على الإنسان فرضاً وتنتشر بسرعة في الناس. وهكذا كانت دعواهم ذات دلالة على مدى تأثير الكتاب في الناس. فإذا تأملنا في الكتاب وجدناه غير متناقض، بل هو مطابق للفطرة وللحقائق، وهكذا السنن الإلهية.

أصبح القوم، وبهذه الكلمة، قد اعترفوا ببلاغة القرآن وفصاحته وتأثيره، ولكن عبَّروا عن هذه البلاغة والفصاحة والتأثير تعبيراً خاطئاً، فقالوا: إنه إفك. ثم هؤلاء حينما طرحوا شبهة الإفك وقالوا: هذا إفك؛ قال بعض للآخر: لا يمكن لإنسان واحد أن يحبك هذا الإفك العظيم. هنا اضطروا إلى أن يقولوا: إن هناك آخرين تعاونوا معه.

دعنا نقرأ الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ هؤلاء كفروا حينما بحثوا عن تبرير لكفرهم، فإذا بهم يُفتشون عن كلمة لكي يُفسِّروا ما في القرآن الكريم من حقائق، فقالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ﴾.

ثم رأوا أن الإفك لا يمكن أن يُفسِّر كل هذه المنظومة المتكاملة من الكلمات المضيئة، فقالوا: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، وهي -في الحقيقة- كلمة أخرى تدل على مدى بلاغة القرآن، يعني كلام أتعب عليه صاحبه نفسه حتى أتقن حبكه. حاشا لله.

٢- ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾.

ثم وجدوا أن هذا الكلام أيضاً لم يكن مقبولاً عند الناس وفي الوسط الاجتماعي الذي طرحوه فيه، فأضافوا وقالوا: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ دون أن يُفسِّروا مَنْ هؤلاء القوم، أين هم، متى اجتمعوا؟. وما الذي جمعهم، ولماذا أعانوا النبي ﷺ في مقاله ولم يدَّعِ مُدَّعٍ منهم النبوة لنفسه، لماذا لم يختلفوا؟.

إذاً؛ ما قاله أولئك القوم يحمل تناقضاً في طياته. إنه كلام مُتهافت، حيث قالوا: ﴿إِفۡكٌ﴾، ثم قالوا: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، ثم قالوا: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾؛ فدلَّت كلماتهم على كذبهم، وأيضاً اعترافهم بصدق النبي ﷺ.

وهكذا يقول القرآن الكريم بعد أن يُفَنِّدَ هذه الشبهات: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا﴾.

كان كلامهم ظلماً؛ يعني ماذا؟.

يعني كان كلامهم في الحقيقة تجاوزاً للحق؛ لأن الظلم هو في الحقيقة تجاوز الحق وعدم إعطائه للمستحق له شخصاً كان أو شيئاً. هؤلاء جاؤوا ظلماً، لماذا جاؤوا ظلماً؟.

لأنهم عرفوا الحق وعلموا أن هذا ليس إفكاً، وليس هناك من أعان النبي ﷺ عليه، فلابد أن يكون حقَّاً، إلَّا أنهم ظلموا.

لكن يبقى السؤال: ظلموا مَنْ؟. وبماذا ظلموه؟. وبتعبير آخر: من هو المظلوم؟. هل الحقيقة هي المظلومة حينما نسبوها إلى الإفك أو نسبوا الإفك إليها، أو ظلموا النبي ﷺ حينما نسبوا إليه الإفك والافتراء أو التآمر، أو ظلموا أنفسهم حينما وضعوا

بينهم وبين الحقيقة حجاباً؟. لماذا؟.

لأن الإنسان مادام لم يخترع تبريراً لجريمته يبقى هناك احتمال للعودة عن الجريمة ثم التوبة. أما إذا برَّر فإن هذا التبرير سوف يمنعه من التوبة ويمنعه من معرفة الحق؛ لأنه حاول أن يُقنع نفسه بهذا التبرير.

إذاً هؤلاء ظلموا الحقيقة وظلموا النبي وظلموا أنفسهم. لذلك القرآن يقول: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا﴾، بالإطلاق؛ لأنه ظلم كبير وذو أبعاد مختلفة.

﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا وَزُورًا﴾ هم ظلموا كما أنهم قالوا كلاماً خاطئاً، وقولاً غير مقبول، قولاً لا يقبله العقل ولا الضمير ولا يقبله العقلاء.

وهنا بصيرة لابد أن نتوقف عندها، وهي: أن القرآن الكريم يُخاطب وجدان كل إنسان، وعلى كل إنسان حينما يقرأ القرآن أو يستمع إليه أن يعود إلى وجدانه ليعرف مدى التوافق بين كلمات الوحي وما يراه في وجدانه.

» (كلمة الإفك) تدل على كذبة متكاملة، ومعناه عدم مطابقة الواقع. وإذا تأملنا في الكتاب وجدناه غير متناقض، بل هو مطابق للفطرة وللحقائق، وهكذا السنن الإلهية.

ولذلك ترك القرآنُ الكريم الحديثَ التفصيلي بردِّ شبهاتهم بهاتين الكلمتين، واكتفى بالقول: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا وَزُورًا﴾.

إنهم ظلموا النبي، وظلموا أنفسهم، وظلموا الحقيقة، وإنهم قالوا قولاً زوراً، قولاً كانوا يعلمون -هم قبل غيرهم- أنه ليس فيه ذرة من الحقيقة.

» بصائر وأحكام

١- لقد اعترف الكفار من حيث لا يشعرون أو لا يريدون بصدق الرسالة التي فرضت عليهم وصدَّقت بها فطرتهم، وإنما كانت كلماتهم النابية ظلماً وزوراً حيث برَّروا بها جحودهم بالرغم من قوة الحجة.

٢- من ارتكب جريمة كانت له فرصة التوبة، ولكنه إذا برَّرها يصعب عليه ذلك؛ لأن التبرير يُصبح حجاباً دون الاعتراف بالخطأ.

» بين بصائر الوحي وأساطير الأولين

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ ﴾

***

تفصيل القول

ما الفرق بين بصائر الوحي وبين أساطير الأمم؟.

بل ما هي الأساطير أساساً؟.

الأساطير أصلاً؛ هي الأفكار المزخرفة التي تثبت في أذهان الناس، وتؤكِّد إيمانهم بثقافاتهم الباطلة، ثم تتوارثها الأجيال، دون التأكُّد من مدى صحتها وجدواها، يدفعهم في ذلك جهلهم، وعدم تحمُّلهم مسؤوليتهم تجاه تقصِّي الحقائق. وإنما رصيد الأساطير يكون في وجودها وتنقُّلها عبر حقب التاريخ؛ أي أن سبب بقاء هذه الأساطير وتنقُّلها عبر الزمن قد يكون بنات خيال وتخيُّلات، أو وساوس شيطانية، أو حتى ما تبثُّه أجهزة إعلام، كقصيدة شاعر، أو قول كاهن، أو فتوى واعظ من وُعَّاظ السلاطين، أو برنامج في قناة فضائية. وهي كلها تهدف دعم سلطة طاغية من

الطغاة وجبروته.

هـذه هي الأسـاطير؛ كالأمثلة الباطلة المتداولـة بين الناس، والحِكَم التي يُعتقد -خطأً- أنها خلاصة العقل البشري وما أشبه.

في حـين أن العقـل يدعونـا إلى وضـع هـذه الأسـاطير على طاولـة البحث وتعريضها لمبضع الحكمـة الصادقة لدى كل جيل، فيفكر في مدى صحتها وسـلامتها وجدواها؛ إذ مَنْ يقول: إن هذا المثـل صحيح؟. وتلـك المقولة صائبة؟. خصوصـاً إذا كان للأمثلة والمقولة ظلالها وأبعادها الخاطئة.

فحينـما يقول القائل: «اليد التي تعجز عن قطعها؛ فقبّلها».. أو: «حـشر مع الناس عيد»، ثم يترك الكلام على عواهنه. مثل هذه المقولات هناك مَنْ يؤكد صحتها، ومن يدعي أن أبعادها وتأثيراتها في نفوس الناس إيجابية.

وعليـه؛ فـإنّ قوّة الأسـطورة ورصيدهـا عند النـاس عائدة إلى توارثهـا. في حين أن الحق ينبعث من الوحي وما يكشـفه العقل المجـرد عن الحجب. وهكذا فإن قوَّتـه تكمن في ذاته، وليس فيمن يتحـدَّث عنه ويدعو إليه؛ إذ الحق لا يعرف بالرجال، وإنما الرجال يُعرفون بالحق.

إن القرآن المجيد ليس أسطورة، كما هو ليس من الثقافة التي كانت شائعة في الجاهلية. وإنك لتجد ثقافة عربية كانت جاثمة على عقول أهل الجاهلية قبل الإسلام، تمثَّلت في أشعار المعلقات. وهي كانت خلاصة ثقافة مجتمـع قريش تقريباً، كانت تتحدَّث في معظم نصوصهـا عـن العصبية والبسـالة الوهميـة والبكاء عـلى الأطلال والحديـث عـن الماضين من أهـل الباطل. وهي بشـكل عام لم تكن

تتحدّث عن الأمل والعمل المشترك والعدالة والنهضة لتشييد مجتمع إنساني فاضل وطيب.

وحينما تعرض هذه الثقافة وتقيسها بما نزل مع الوحي من بصائر على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، تجد بينهما مسافة لا متناهية.. ولذلك؛ لم يجد المعترضون على صحة القرآن وصحة نبوة الحبيب المصطفى اعتراضات يرفعونها إلّا جملة من المهازل والتُّهم الواهنة التي لا يرتضيها أحد.

فقد قالوا: إن ثقافة القرآن من جملة الأساطير، اكتتبها محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أملاها عليه رجال -مجهولون من الإنس أو من الجن- في كل صباح ومساء؛ فهم يطرحون عليه الأفكار، وهو مجرَّد كاتب لها يُعطيها للناس قرآناً.

وهذه التُّهمة الواهية، جَهِدَ عدد من المستشرقين في إحيائها من جديد، فقالوا: إن القرآن مُؤَلَّف من وحي الزمان والبيئة التي كان محمد يعيش ضمنها. بل إن البعض لخص كل أوهام الكافرين من قريش والمستشرقين القادمين من عالم اليهودية والنصرانية فقال: «إن الأمة القادرة على إنجاب شخصية مثل محمد قد لا تبخل بإنجاب شخصية نظيرة له!». وكأنه كان يريد القول: لا علاقة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بالسماء ووحي الله، وإنما هو نتاج بيئة وأمة خاصة به!.

وكما إن الجاهليين كانوا يرفعون شعار: (سِحرُ محمد)[1].. راح المستشرقون يُكثرون من تسمية القرآن الكريم بـ(قرآن محمد)، وحاولوا أن يُقسِّموا القرآن بين آيات مكية وأخرى مدنية، وسعوا

(١) لاحظ بحار الأنوار: ج ١٧، ص ٣٥٥.

إلى ترتيب القرآن حسب المناسبات الزمنية والمكانية، وادّعوا أن القرآن كان متأثراً بالزمان الذي يُنشر فيه، بل إنهم حاولوا أيضاً أن يجدوا بعض التوافق بين آيات القرآن الكريم وأشعار الجاهلية. ولكن هذه المحاولات باءت جميعاً بالفشل الذريع، لاسيما وأن الذين عاصروا القرآن في العصر الأول -عصر النزول- حين وجدوا آيات القرآن، عرفوا الفرق بينه وبين الثقافات الجاهلية، حتى أنهم جمعوا أوراق المعلقات المثبتة على جدار الكعبة ولا ذوا بالفرار ليلاً حينما نزل قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

» إن العقل يدعونا إلى وضع هذه الأساطير على طاولة البحث وتعريضها لمبضع الحكمة الصادقة لدى كل جيل، فيفكر في مدى صحتها وسلامتها وجدواها.

وذلك حينما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتعليقها على جدار الكعبة المشرفة؛ إذ تأكّد لهم استحالة المقايسة بين هذه الآية وبين جميع النصوص الشعرية للمعلقات السبع، بمضامينها وبلاغتها.

» بصائر وأحكام

١- قوة الأسطورة ورصيدها عند الناس عائدة إلى توارثها، في حين أن الحق ينبعث من الوحي، وقوتُهُ في ذاته.

٢- كل مَنْ يُقارن بين مفردات الثقافة البشرية وبصائر الوحي، يجد الفاصلة بينهما غير متناهية.

(١) سورة هود، آية: ٤٤.

» القرآن حديث الرب

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾.

» من الحديث

قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**وَمِنْ آيَاتِهِ** (آيات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم) **أَنَّهُ كَانَ يَتِيماً فَقِيراً رَاعِياً أَجِيراً، لَمْ يَتَعَلَّمْ كِتَاباً، وَلَمْ يَخْتَلِفْ إِلَى مُعَلِّمٍ. ثُمَّ جَاءَ بِالْقُرْآنِ الَّذِي فِيهِ قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَخْبَارُهُمْ حَرْفاً حَرْفاً، وَأَخْبَارُ مَنْ مَضَى، وَمَنْ بَقِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ..**»(1).

***

تفصيل القول

حينما يقرأ المؤمن الواعي كتاب الله المجيد، يقرأ أسرار الخلق، ويقرأ ما وراء الطبيعة؛ أي السنن الإلهية المهيمنة عليها. ولهذا تجد من يقرأ القرآن ويتبصّر آياته تتوفر له القدرة على التنبؤ بالمستقبل.

(1) بحار الأنوار: ج١٠، ص٣٠٩.

فمثلاً يعرف على وجه القطع عاقبة الظلم، ويعرف مصير الطغاة، ويتنبَّه إلى أن الإنسان مرهون بعمله. فالقارئ بإيمان ووعي وتدبَّر، لا يتعرَّف إلى الماضي فحسب، وإنما يتبصَّر المستقبل أيضاً، بل وأكثر من ذلك، تتسنَّى له المنهجية العقلائية العلمية التي يكتشف من خلالها الكثير من أسرار الحياة.

إن القرآن حق وليس بأسطورة، إنه كلام الله الحق، العالم بسر السماوات والأرض؛ وذلك لأنه كما في عالم الأرض عالم شهود وعالم غيب، كذلك في السماء عالم شهود وعالم غيب بالنسبة لسكانها، وهم الملائكة باختلاف درجاتهم ومقاماتهم وأدوارهم. والله عالم بأسرِّ السر في عالم السماوات وعالم الأرض، وهو المنزل لآيات القرآن على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا هو الفارق الكبير بين بصائر الوحي وبين ثقافات البشر التي تنجم من الذين لا علم لهم بكل أسرار الخلق. فهي قد تُدغدغ عاطفةً أو تُثير عصبيةً، وربما تُؤسِّس لمنطق من الأعاذير لتخديرك عن مسؤولياتك، ولئلَّا تُزكِّي نفسك. فيما القرآن يُنوِّر قلب الإنسان ويسمو به إلى حيث إرادة خالقه القاضية له بالتحرُّر من قيود الشيطان والهوى.

والله تعالى يُؤكِّد في خاتمة الآية الكريمة أنه إن لم يأخذ أهل الأرض الكافرين بألوان العذاب، ولم ينسف الثقافات الجاهلية مرةً واحدةً، ولم يجازِ أولئك القوم الذين عارضوا القرآن بعذاب مستأصل؛ فذلك لأنه غفور رحيم، يقدم الفرصة تلو الفرصة لمخلوقيه البشر ليعودوا إلى رحاب غفرانه ورحمته التي وسعت كل شيء.

» بصائر وأحكام

١ - من يقرأ القرآن ويتبصَّر في آياته ويستفيد من إيحاءاته تتوفر له القدرة على التنبؤ بالمستقبل، بل وتتسنى له المنهجية العقلائية العلمية التي يكتشف من خلالها الكثير من أسرار الحياة.

٢ - الله تعالى لم ينسف الثقافات الجاهلية مرةً واحدةً، ولم يجازِ الجاهليين الذي عارضوا القرآن بعذاب مستأصِل؛ وذلك لأنه غفور رحيم.

» الكفار: ما لهذا الرسول يأكل الطعام؟

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾.

» من الحديث

قال رسول الله ﷺ في حديث طويل جرى فيه حوار بينه وبين المشركين، جاء فيه:

«**وَأَمَّا قَوْلُكَ**: (هَذَا مَلِكُ الرُّومِ وَمَلِكُ الْفُرْسِ لَا يَبْعَثَانِ رَسُولاً إِلَّا كَثِيرَ الْمَالِ، عَظِيمَ الْحَالِ، لَهُ قُصُورٌ وَدُورٌ وَفَسَاطِيطُ وَخِيَامٌ وَعَبِيدٌ وَخُدَّامٌ، وَرَبُّ الْعَالَمِينَ فَوْقَ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ).

فَإِنَّهُمْ عَبِيدُهُ، فَإِنَّ اللهَ لَهُ التَّدْبِيرُ وَالْحُكْمُ، لَا يَفْعَلُ عَلَى ظَنِّكَ وَحُسْبَانِكَ، وَلَا بِاقْتِرَاحِكَ، بَلْ: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ وَ: ﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ وَهُوَ مَحْمُودٌ.

يَا عَبْدَ اللهِ؛ إِنَّمَا بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ، وَيَكِدَّ نَفْسَهُ فِي ذَلِكَ آنَاءَ لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، فَلَوْ كَانَ صَاحِبَ قُصُورٍ يَحْتَجِبُ فِيهَا، وَعَبِيدٍ وَخَدَمٍ يَسْتُرُونَهُ عَنِ النَّاسِ، أَلَيْسَ

كَانَتِ الرِّسَالَةُ تَضِيعُ وَالْأُمُورُ تَتَبَاطَأُ؟. أَوَمَا تَرَى الْمُلُوكَ إِذَا احْتَجَبُوا كَيْفَ يَجْرِي الْفَسَادُ وَالْقَبَائِحُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ بِهِ وَلَا يَشْعُرُونَ.

يَا عَبْدَ الله؛ إِنَّمَا بَعَثَنِي اللهُ وَلَا مَالَ لِي لِيُعَرِّفَكُمْ قُدْرَتَهُ وَقُوَّتَهُ وَأَنَّهُ هُوَ النَّاصِرُ لِرَسُولِهِ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى قَتْلِهِ وَلَا مَنْعِهِ مِنْ رِسَالَتِهِ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وَأَمَّا قَوْلُكَ:** (وَلَوْ كُنْتَ نَبِيًّا لَكَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يُصَدِّقُكَ وَنُشَاهِدُهُ، بَلْ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْنَا نَبِيًّا لَكَانَ إِنَّمَا يَبْعَثُ لَنَا مَلَكاً لَا بَشَراً مِثْلَنَا). **فَالْمَلَكُ لَا تُشَاهِدُهُ حَوَاسُّكُمْ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ هَذَا الْهَوَاءِ لَا عِيَانَ مِنْهُ، وَلَوْ شَاهَدْتُمُوهُ -بِأَنْ يُزَادَ فِي قُوَى أَبْصَارِكُمْ- لَقُلْتُمْ لَيْسَ هَذَا مَلَكاً بَلْ هَذَا بَشَرٌ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَظْهَرُ لَكُمْ بِصُورَةِ الْبَشَرِ الَّذِي قَدْ أَلِفْتُمُوهُ لِتَفْهَمُوا عَنْهُ مَقَالَتَهُ وَتَعْرِفُوا خِطَابَهُ وَمُرَادَهُ فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقَ الْمَلَكِ وَأَنَّ مَا يَقُولُهُ حَقٌّ؟. بَلْ إِنَّمَا بَعَثَ اللهُ بَشَراً وَأَظْهَرَ عَلَى يَدِهِ الْمُعْجِزَاتِ الَّتِي لَيْسَتْ فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ الَّذِينَ قَدْ عَلِمْتُمْ ضَمَائِرَ قُلُوبِهِمْ فَتَعْلَمُونَ بِعَجْزِكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ أَنَّهُ مُعْجِزَةٌ، وَأَنَّ ذَلِكَ شَهَادَةٌ مِنَ اللهِ بِالصِّدْقِ لَهُ..**»(١).

***

تفصيل القول

مهما كانت معارف الكافر واسعة، ومهما كانت حكمته بالغة، فلن تكون كافية لإيصاله إلى الحقائق كلها؛ ذلك لأن الإيمان بالدنيا دون الآخرة إنما هو نصف إيمان على أفضل الاحتمالات، وسبب ذلك أن الدنيا، وبكل المقاييس، لا يمكن أن تُضاهي الآخرة أو تُقاس بها؛ إذ الآخرة أبقى وأغنى وأعظم وأكبر وأصفى وأنقى.

(١) بحار الأنوار: ج٩، ص٢٧٢.

١ - ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَـامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

يستعرض القرآن المجيد في هذه الآية وما بعدها جملةً من الاقتراحات التي تَقَدَّم بها الكفار سابقاً ولا يزالون وحتى الآن، اعتراضاً منهم على بعثة الرسول ورسالته القدسية المُنزلة من عند الله سبحانه وتعالى. هذه الاقتراحات التي تُعبّر عن مستوى معارفهم وطبيعة ظنهم فيما يتعلق برسالات الله. ولا ريب في أن معارفهم كانت ضحلةً، وظنونهم خاطئة. لماذا؟. لأنهم كانوا قد ألغوا الآخرة من حساباتهم واستحوذ حب الدنيا عليهم، حتى جعلهم لا يرون الحقائق، وإن رأوها؛ فَمِنْ خلال منظار الدنيا المحدود.. فلم يعودوا يملكون أُفقاً بعيداً حتى صار شأنهم شأن من يرغب في الزواج من فتاة جميلة غير آبهٍ بحقيقة إصابتها بمرض قاتل.

فالكفار تساءلوا معترضين على النبي ورسالته لكونه يأكل الطعام أو يمشي في الأسواق، وكأن المشي في الأسواق عيب على من يبعثه الله نبيًّا، وكأنهم -أيضاً- أرادوا له أن يكون كما الملك الجبّار الطاغية، الذي لا يهتم إلَّا بإصدار الأوامر القاسية.

أو كان اعتراضهم هذا نابعاً من ظنهم بضرورة أن يعتزلهم مُبلِّغ الرسالة، ليخلو لهم جو الحياة ليفعلوا فيها ما يريدون. أي أن اعتراضهم كان نابعاً من رغبتهم في عزل النبي وما يُمثِّله من وجود قُدسي، وما جاء به من تشريع سماوي وديني عن واقع الحياة، وهو ما يُطلق عليه اليوم بفصل الدين عن الدنيا، وشرع الله عن السياسة. وفي الحقيقة يجسد اعتراضهم هذا رغبةً مبيَّتة في نفوس الكافرين تُعبِّر عن رفضهم لما يريده الله سبحانه وتعالى من خلقه،

قبل أن يكون مُجرَّد اعتراضٍ على سيرة نبي رسول.

والكفار أيضاً، وبسبب ابتعادهم عن إرادة الله الخالق عز وجل، اعتادوا التذلُّل لمن يحكمهم، فأضحوا عبيداً لمن يتناولهم بسوطه وسلطانه. ومن هذا، عابوا على النبي حينما أراد أن يُعيد مسيرة الحياة إلى طبيعتها، وجَعْل الناس أحراراً يعملون حسب إرادتهم، وحيث رأوا النبي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لم يألفوا أن يقودهم مثلُه، وتصوروا سيرته ضعفاً وعيباً؛ لأنهم كانوا قد تطبَّعوا بالذل وألبسوا أنفسهم لباس المسكنة.

ولكن الله سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه الرحمة، ومن رحمته: إنزاله الشريعة على بشرٍ من صفوة عباده مخلصين ليجاروا الناس -كافة الناس- في احتياجاتهم، وليكونوا قدوات صالحة لهم، وليقطع عليهم أيَّة حجة للتقاعس عن واجباتهم.

٢- ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

ولو أن الله سبحانه جعل ملكاً نبيًّا، لم يسعهم الاقتداء به، بل ولا الاهتداء ببلاغه؛ إذ المَلَك لا يُشبه البشر في شيء.

ولو أن الله تبارك وتعالى قد أظهر للناس مَلَكاً مؤيِّداً للرسول لخضعوا له خضوع ذلَّة وليس تسليم كرامة، وذلك خوفاً منه، ولكان إيمانهم به وبرسالاته خوفاً وطمعاً وليس بوعي وصدق إيمان. ولعلهم كانوا يقولون إذ ذاك: ما فضل هذا الذي بعثه الله علينا؟ أليس المَلَك يقوم له بكل شيء؟. أو يقولون: نحن أجدر منه بالنبوة؟!.

» بصائر وأحكام

١- لا يُمكن أن تُقاس الدنيا بالآخرة وبكل المقاييس؛ إذ الآخرة أبقى وأغنى، وأعظم وأكبر، وأصفى وأنقى.. وهكذا كان من لا يؤمن بالآخرة في جهل عميم.

٢- من رحمة الله التي كتبها على نفسه: إنزاله الشريعة على بشر من صفوة عباده المخلصين ليجاروا الناس -كافة الناس- في احتياجاتهم، وليكونوا قدوات صالحة لهم، وليقطع عليهم أيَّة حجة للتقاعس عن واجباتهم.

٣- على الدُّعاة إلى الله ألَّا يعتمدوا كثيراً على الجوانب المادية في دعوتهم، بل عليهم أن يُثيروا دفائن العقول، ويجلوا ركائز الفطرة، ويُخاطبوا الضمائر.

» هروب من الحقيقة

﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

» من الحديث

* قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**وَلَوْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ عليهم السلام أَهْلَ قُوَّةٍ لا تُرَامُ، وَعِزَّةٍ لا تُضَامُ، وَمُلْكٍ تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ؛ لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الِاعْتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الاسْتِكْبَارِ، وَلَآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ؛ فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً. وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الاتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، وَالتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ، وَالْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ، وَالِاسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ، وَالِاسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ؛ أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً لَا تَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ**»[1].

* وروي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، -فيما ذكره من احتجاج النبي صلى الله عليه وآله وسلم على عبد الله بن أبي أمية المخزومي-: «**قَالَ**

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١٩٢.

رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَأَمَّا قَوْلُكَ: (مَا أَنْتَ إِلَّا رَجُلٌ مَسْحُورٌ). فَكَيْفَ أَكُونُ كَذَلِكَ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي فِي صِحَّةِ التَّمْيِيزِ وَالْعَقْلِ فَوْقَكُمْ، فَهَلْ جَرَّبْتُمْ عَلَيَّ مُنْذُ نَشَأْتُ إِلَى أَنِ اسْتَكْمَلْتُ أَرْبَعِينَ سَنَةً خِزْيَةً أَوْ ذِلَّةً أَوْ كَذِبَةً أَوْ جِنَايَةً [خَنَاءً] أَوْ خَطأً مِنَ الْقَوْلِ أَوْ سَفَهاً مِنَ الرَّأْيِ؟.

أَتَظُنُّونَ أَنَّ رَجُلاً يَعْتَصِمُ طُولَ هَذِهِ الْمُدَّةِ بِحَوْلِ نَفْسِهِ وَقُوَّتِهَا أَوْ بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ؟، وَذَلِكَ مَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾»[1].

***

تفصيل القول

١- ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾.

يستمر الكافرون في اضطرابهم الفكري، كما يستمرون في محاولات الهروب من الحقيقة.

إنهم طفقوا يرتابون في النبوة ذاتها، وفي بعثة خاتم الأنبياء ﷺ لأنه لم يُلقَ إليه كنزٌ، ذلك لأن انكبابهم على الدنيا جعل المقاييس في أنفسهم مقاييس مادية بحتة.

فالنبي ﷺ يدعوهم إلى الخير والفضيلة والعدالة، فيما هم يعترضون عليه بكونه لم يُلقَ إليه كنز، وما علاقة الكنز بالفضيلة؟ وماذا يفعل النبي بالكنز عند أداء مهمته السماوية المنادية بالخير والعدل والإيمان بخالق المادة والكنز؟.

وما أتعس حالة الكافرين إذ طلبوا أن يُلقى إلى الرسول كنز،

(١) بحار الأنوار: ج٩، ص٢٧٣.

فيما هو مبعوث لإخبار الناس في أن لدى كل واحدٍ واحدٍ منهم كنوزاً من العقل والفطرة، وفرصاً لتسخير ما في الأرض من نعم في سبيل تقدمهم، وأن الكنز الحقيقي هو الإيمان بالله وتوثيق الصلة به تبارك وتعالى.

وهكذا ترى الكافرين قد تجاهلوا حقيقة النبوة، ولم ينتفعوا ببصائرهم ليروا بها حقيقة الدعوة الرسالية، وما أعدَّ الله تعالى لهم من كنوز الفضيلة والرحمة في الدنيا وجنان الخلد في الآخرة.

٢- ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾.

بعد أن حبس الكافرون أنفسهم في زنزانة الدنيا المادية، أنكروا حقيقة هامة هي: أن الرزق من الله تعالى؛ فتصوروا أن مَنْ لديه بستاناً مثلاً إنما امتلكه من عند نفسه، ولم يعلموا أنه من عند ربهم. ومن هنا تمادى كفار قريش في الغي حتى قالوا: لماذا لم يُنزَل القرآن على رجل من القريتين عظيم؟. أي من مكة والطائف، وهما اللتان كان فيهما مَنْ يملك من المزارع والبساتين والمواشي ما شاء الله له أن يملك.

كل هذه أمثلة على الاضطراب في المقاييس. فالكافرون اعترضوا في البداية على الرسول الصادق الأمين ﷺ لكونه يأكل الطعام، والآن يقترحون عليه أن تكون له جنة يأكل منها.

حقًّا إن من يُعرِض عن ذكر الله يُصاب باضطراب في أفكاره ومقاييسه، كما يُصاب بالضنك والعسر في رزقه. وهذا التقييم الخاطئ للفكر ولرجاله يُصيب الناس في كل عصر في مواجهة الدعوات الإصلاحية، حيث لا ينظرون إلى محتوى الدعوة، بل إلى رجالها كم يملكون من سطوة وثروة. وكان عليهم أن ينظروا إليهم كم يملكون من صدق وأمانة.

٣- ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾.

والقـول هـذا صـادر عن الظالمـين، الذيـن ظلموا أنفسـهم بكفرهـم وبتخرصاتهـم وبضغطهـم عـلى المؤمنـين الذيـن اتَّبعـوا الرسـول الصادق الأمين، فراحوا يُشِيْعُون عليه أنه رجل مسحور، دون أن يشيروا إلى الجهة التي سحرته.

فـإذا قالوا: إن الله -والعياذ بالله- هو الذي سـحره، فهم لا يُؤمنون بوجود الله أصلاً.

وإذا قالـوا: إن مَلَكاً مـن الملائكـة هو الذي سـحره، فإنهم -الظالمـون الكافـرون- لا يؤمنون بـما لا يرونه ولا يسـمعونه ولا يلمسـونه. ومتى رأوه يسـحر النبي ليقولوا عن هذا الأخير: إنه قد سحره، أو بماذا سحره.. وكذلك إذا قالوا: إن الجِنَّة قد سحروه. أما إذا قالوا: إن كاهناً أو مشعوذاً قد سحره، فمن هو يا ترى؟.

أم أن مجرد إصراره على إبلاغ نبوته والاستقامة في دعوته إلى الحق، متشابه مع حالة من تعرَّض للسحر في نظرهم؟.

ولكن؛ كيف يتسـنى للمسحور أن يكون ساحراً -كما اتَّهمه الكافرون الظالمون أيضاً- في الوقت نفسه؟! أليس كان أجدر به أن يفك السحر عن نفسه؟!.

ولكـن أبـت نفـوس الظالمـين الكافريـن إلَّا أن تفـتري وتتَّهـم بداعي الكذبـة الكبرى التـي تقمَّصوها بإنكارهم لما وراء المقاييس المادية، وتكذيبهم بالآخرة ويوم القيامة.

» إن من يُعرِض عن ذكر الله يُصاب باضطراب في أفكاره ومقاييسه، كما يُصاب بالضنك والعسر في رزقه.

ولأنهـم وقعـوا فريسـة الاضطـراب العقائـدي والثقافي في

الدنيـا، فإنهم أنكروا أصل الجزاء العـادل الموعود في الدار الآخرة، فراحوا يُكذِّبون بكل شيءٍ بعد أن طمسـوا فطرتهم وعقلهم، الذي لو انصاعـوا إليه برهةً لدلّهم على نور الحقيقـة الإلهية القاضية ببعثة النبي بما يريد الله، وبحتمية حصول يوم القيامة، يوم يعود كل شيءٍ إلى نصابه الحق.

» بصائر وأحكام

١- ما أتعس حال الكافرين الذين طالبوا الرسـول أن يُلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها. أَوَلَم يتفكروا في أنفسـهم أنه قد بعث لإثارة عقول البشر، وليُعلِّمهم كيف يستفيدون من تسخير ما في الأرض من نعم في سبيل فلاحهم؟.

بـلى؛ وإن الكنـز الحقيقي للإنسـان هو الإيمان بـالله وتوثيق الصلة به تبارك وتعالى.

٢- مـن سـنن الـرَّبّ أن مَـنْ يُعـرِض عـن ذكـر الله يُصاب باضطـراب في أفـكاره ومقاييسـه، كما يُصاب بالضنـك والعسر في رزقه.

٣- عـلى المؤمـن أن يُراقب نفسـه، لكيلا تسـتبدل قيم الحق بالمطامح المادية فيخسرهما معاً.

» الكافرون لا يستطيعون سبيلاً

﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٩ ﴾.

***

تفصيل القول

أمعن الكافرون في إلقاء مقترحاتهم التي لم تكن سوى وساوس وشبهات حول رسالة النبي المصطفى ﷺ، فقالوا -فيما قالوا-: لِمَ لا يملك هذا الرسول ما يُغنيه عن المشي في الأسواق، واكتساب المعيشة، أو ما يُغنيه حتى عن تناول الطعام، أو لِمَ لا يكون معه ملك؟.

واقتراحاتهم وأمثلتهم وشبهاتهم إنما وردت لعدم معرفتهم بطبيعة الرسالة، وطبيعة العلاقة السامية بين الله تعالى وبين عباده من الأنبياء والمرسلين. فالكافرون لا يعرفون مراد ربنا من الناس.

وإنما أنزل الله الحكيم الرسالات وبعث الأنبياء، لكي يرفع الناس من مستوى النظر إلى الأشياء، بما هي أشياء مادية، إلى مستوى النظر إلى المثل العليا والقيم السامية، ويرفعهم من حضيض

التوغـل في الدنيا وأدرانها، إلى مسـتوى الطمـوح إلى الآخرة، ومن مسـتوى رؤيـة المخلوق، إلى مستوى رؤيـة الخالـق. وكل ذلك لا يحصل بتكاثر الإمكانات المادية والتشبث بها والعبودية لها.

فلـو أن النبـي المبعوث قد اسـتخرج لمـن بعث إليهـم كنوز الأرض، أو اسـتخدم معهـم القـوة، كـما فعـل ويفعـل المترفـون والطغـاة، لما زادهـم إلا ابتعـاداً ونفوراً عن الحق وعن الاسـتجابة للديـن، ولـكان قد فعل ما يتناقـض ومراد الله تعالى من الإنسـان، ولكان فعله إيغالاً في حب الدنيا والاحتجاب عن الآخرة.

١ - ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾.

لمـا كان النبـي هو المخاطب بهـذه الأمثال -الشـبهات- من جانـب الكافرين المتمرديـن على دعوة الحق، فإن هـذا النبي مدعو كذلـك من جانب الله المرسِـل أن يُمعِـن النظر ويسـتخدم التفكير والتأمـل في طبيعـة تلكم الأمثال والشـبهات والوسـاوس المقولبة بقالب المقترحات؛ إذ المرء يُفهَم مما هو مخبوء تحت لسانه، ولا يظهر المخبـوء دون تأمـل وتفكـير صحيحـين.. لتعرف نفـس المتحدث والقيـم التـي ينطلق منهـا، وبالتالي تفهـم حقيقتـه. فالكافرون قد قاسوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأهل الدنيا قياساً باطلاً ومع الفارق.

٢ - ﴿فَضَلُّوا﴾.

عـن الطريق الصحيـح.. ولو كانوا قيَّمـوا أشرف الخلق تقييماً موضوعيًّـا، وتأكـدوا مـن كونـه صاحب رسـالة وهدًى منـير، وأنه جاءهم يحمل مصباحاً يضيء دربهم، وأنه راسـخ في التضحية بنفسـه حتـى من أجل سـعادة المسـتجيبين لدعوته؛ ربما كانوا قـد اهتدوا إلى الطريـق، ولكنهم حينما عكفوا على إلقاء الشـبهات في وجه الرسـالة

السماوية والشخصية النبوية المقدسة: ﴿فَضَلُّواْ﴾؛ والفاء هنا فاء السببية؛ أي أن ضربهم للأمثال بوجه النبي ﷺ كان سبباً لضلالهم.

٣- ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾.

حينما ضلوا السبيل الحق، صاروا عاجزين عن استبداله بطريقٍ عِدلٍ له؛ لأن طريق الحق واحد لا يمكن استنساخه أو الاستعاضة عنه. فإذا ضرب الكافر المثل الخطأ وبنى عليه بنيانه العقيدي، فهو على طريق الخطأ، فلا يصل إلى السبيل الحق.

وبكلمة أخرى؛ إنه مهما فكَّر، ومهما اجتهد وتابع المسيرة، فإنه لا يصل إلى الهدف، بل إنه يعجز عن بلوغ أي هدف، وهذا ما يوحي به التنكير الوارد على لفظ: ﴿سَبِيلٗا﴾؛ لأن النكرة حينما ترد في إطار النفي فهي تفيد العموم والإطلاق.

» بصائر وأحكام

١- إنما بُعِثَ الرسل لكي يسموا بالناس من مستوى النظر إلى الأشياء نظرة مادية، إلى مستوى النظر إلى المثل العليا والقيم السامية، ويرتفعوا بهم من حضيض حب الدنيا وأدرانها، إلى مستوى التطلُّع إلى الآخرة، ومن مستوى رؤية المخلوق إلى مستوى رؤية الخالق.

٢- حينما ضل الكافرون سبيل الحق، صاروا عاجزين عن استبداله بطريق عدل له؛ لأن طريق الحق واحد لا يمكن استنساخه أو الاستعاضة عنه.

» جعل لك خيراً من ذلك

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ١٠ ﴾.

» من الحديث

عن ابن عباس قال: «لَمَّا عَيَّرَ الْمُشْرِكُوْنَ رَسُوْلَ الله ﷺ بِالْفَاقَةِ، قَالُوْا: مَالِ هَذَا الرَّسُوْلِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِيْ فِيْ الْأَسْوَاقِ. حَزِنَ رَسُوْلُ الله لِذَلِكَ، فَنَزَلَ جِبْرِيْلُ فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُوْلُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾[(١)]. ثُمَّ أَتَاهُ رِضْوَانُ خَازِنُ الجِنَانِ وَمَعَهُ سَفَطٌ مِنَ نُورٌ يَتَلأْلأُ، فَقَالَ: هَذِهِ مَفَاتِيْحُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا.

فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىَ جِبْرِيْلَ كَالْمُسْتَشِيرِ لَهُ. فَضَرَبَ جِبْرِيْلُ إِلَىَ الْأَرْضِ أَنْ تَوَاضَعْ. فَقَالَ: يَا رِضْوَانُ؛ لَا حَاجَةَ لِيَ فِيْهَا. فَنُوْدِيَ أَنْ ارْفَعْ بَصَرَكَ. فَرَفَعَ، فَإِذَا السَّمَاوَاتِ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا إِلَىَ الْعَرْشِ، وَبَدَتْ جَنَّاتُ عَدْنٍ، فَرَأَىَ مَنَازِلَ الْأَنْبِيَاءِ وَعَرَفَهُمْ، وَإِذَا مَنْزِلُهُ فَوْقَ مَنَازِلِ الْأَنْبِيَاءِ. فَقَالَ: رَضِيْتُ»[(٢)].

(١) سورة الفرقان، آية: ٢٠.
(٢) الدر المنثور في تفسير المأثور: ج٥، ص٦٣.

تفصيل القول

١ - ﴿ تَبَارَكَ ﴾.

بعد أن ذكَّرنا ربنا المتعال باسم عظيم من أسمائه الحسنى، وهو ﴿ تَبَارَكَ ﴾ في مطلع هذه السورة الكريمة. ها هو تقدَّست أسماؤه يُكرِّره مرة أخرى ضمن هذه المنظومة من الآيات الشريفة لمناسبة الشبهات والأمثال التي ضربها الكافرون للنبي المصطفى ﷺ لتفنيد نبوته العظمى.

من هنا؛ عاد ربنا تعالى وذكّرنا بأنه ﴿ تَبَارَكَ ﴾ بمعنى أنه هو الرحمن الرحيم؛ الفعَّال لما يُريد، وأن عطاءه غير مجذوذ ولا ممنون، بل هو المعطي برحمته الواسعة وبركته المزيد. إلَّا أن عطاءه لا يتجلَّى في دار الدنيا فحسب، وإنما التجلي الأعظم لبركته تكون في الآخرة، لاسيما حين يرى هؤلاء الكفار الذين كان كل همهم لقمة عيش في الدنيا، أو بعض سلطة تافهة، غافلين عن الآخرة ونعيمها الأبدي الكبير، بل وغافلين عما ينتظرهم من العذاب الأليم المهين الخالد، لأنهم كذَّبوا بالرسالة.

أما اسم ﴿ تَبَارَكَ ﴾؛ فهو من الأسماء الحسنى والكبرى الذي وَرَدَ بصيغة الفعل وتقولب به، لأن البركة في أفعال الله متواصلة، ولأنه فعَّال لما يُريد، ولأن فعله رحمة وعطاء، ولذلك تناسب الأمر بإيراد الاسم بصيغة الفعل.

٢ - ﴿ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾

فالبركة من الرَّبّ: ﴿ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ إذ الدنيا؛ مهما بلغ الإنسان فيها إلى الذروة، فإنها تنتهي. ولذلك، فإن

هذا الخير المزعوم ليس بخير، وما خيرٌ بخيرٍ ينتهي ويزول، لاسيما وأنه ينتهي ويزول إلى حيث فراق الدنيا، وهو نوع عذاب، لأنه يتضمن الشعور بترك الأموال للورثة، وترك الورثة إلى مستقبل لا يُدرى كُنهه. أما الخير كل الخير فهو النعيم الأخروي غير المحكوم بالزوال.

﴿خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي: خيراً مما اقترحوا لك من طعام لذيذ أو من أموال يستغني بها النبي ﷺ عن المشي في الأسواق للاكتساب، أو عن رجال أو ملائكة يحمونه من الأذى في الدنيا.

والخير الأفضل من كل هذا الخير المزعوم جنات تجري من تحتها الأنهار، ليس لسقيها فقط، وإنما لجمالها وروعتها وإضفاء حالة الحركة الدائمة والدؤوبة عليها.

٣- ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾

﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ فإذا كانت الجنات مزارع ومراكز للترفيه، فإن القصور مساكن للراحة والاستقرار ومزيد من الشعور بالملك والتملُّك والسيطرة. وهذا ما لا يمكن قياسه بالزائل من حطام الدنيا الذي أراد الكافرون أن يحبسوا النبي في شرانقه، والعياذ بالله.

» بصائر وأحكام

الدنيا مهما بلغ الإنسان فيها إلى الذروة، فإنها تنتهي؛ ولذلك فإن هذا الخير المزعوم ليس بخير، وما خيرٌ بخيرٍ ينتهي ويزول.

أما الخير كل الخير، فهو النعيم الأخروي غير المحكوم بالزوال.

» كذَّبوا بالساعة

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾.

» من الحديث

عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «سَأَلْتُهُ عَنْ أَرْوَاحِ الْمُشْرِكِينَ؟. فَقَالَ عليه السلام: **فِي النَّارِ يُعَذَّبُونَ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَا تُقِمْ لَنَا السَّاعَةَ وَلَا تُنْجِزْ لَنَا مَا وَعَدْتَنَا وَلَا تُلْحِقْ آخِرَنَا بِأَوَّلِنَا**»(١).

***

تفصيل القول

١ - ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ﴾

في إطار الحديث عن الشبهات التي أوردها أولئك الكافرون وتظاهروا بأنها مجرد اقتراحات وتساؤلات، فقالوا: لماذا لا يُلقى إلى الرسول كنز؟. أو لِمَ لا يحرسه الملائكة الغلاظ الشداد بأسلحتهم

(١) الفروع من الكافي: ج٣، ص٢٤٥.

وحرابهم؟. ولماذا يحتاج الرسول لأن يمشي في الأسواق طلباً للرزق؟. ولماذا يأكل الطعام مع ادِّعائه الاتصال بربِّ السماوات؟.

في إطار هذا الحديث، يُبيِّن لنا ربنا سبحانه وتعالى أن السبب الرئيس لإلقاء الشبهات التي من قِبَل الكفار هو تكذيبهم بالساعة.

ولابد من القول هنا: إن الدنيا والآخرة عبارة عن حقيقة واحدة، بدايتها الدنيا ونهايتها الآخرة، وإن الدنيا مزرعة الآخرة، والآخرة جزاء ما حصل في الدنيا. ولو عرف الإنسان جزءاً من هذه الحقيقة، وجهل الجزء الآخر، لابتُلي بمثل هذه التساؤلات.

بل؛ إن هذه التساؤلات كلها دليل على أن الحكيم الذي خلق كل شيء وقدَّره تقديراً، وجعل لكل شيء هدفاً وأجلاً محدوداً. إن هذا الحكيم يستحيل -وله الإرادة المطلقة- أن يخلق الدنيا دون أن يجعل وراءها دار جزاء؛ لأن الدنيا بقضها وقضيضها تتجسد فيها نصف الحقيقة، وذلك حين التعمق في أمرها، مما يوجب البحث عن النصف الآخر.

إن أزمة الكافرين تكذيبهم بالساعة. والتكذيب إنما يأتي بعد المعرفة، فهم قد عرفوا وأيقنوا بحصول الساعة الحتمي، ولكنهم كذَّبوا بعد أن رأوا الدلائل التي تُشير إليها وتؤكِّدها، ولكنهم عاندوا وكذَّبوا ولم يُحاولوا أن يفهموا حقيقة الساعة، أو أن يُؤمنوا بها.

ولماذا سُمِّيت القيامة هنا بالساعة؟.

معلوم أن للقيامة أسماءً كثيرةً؛ كل اسم منها يُشير إلى واقع مُعيِّن، ولكل اسم آثاره في النفس البشرية، مثل يوم الحسرة، ويوم

التغابن، ويوم الندامة، ويوم الجمع، ويوم القيامة.

أما الساعة لغةً فهي تعني لحظة معينة من الوقت، ولعل الاسم هذا قد وُضِع على القيامة باعتبار أن الإنسان سيُواجه ذلك اليوم الرهيب؛ يوم التغابن والندامة والحسرة، يوم قضاء الأمر والجزاء الأوفى، يواجه ذلك اليوم في لحظة واحدة بلا إنذار مسبق أو استعداد تام. فالساعة مفاجئة، وهؤلاء كذّبوا بها، فكيف تكون عاقبتهم؟.

ولكن هل نفعهم أو سينفعهم تكذيبهم؟. وهل ينفع إنساناً تكذيبُهُ بحقيقة؛ وماذا لو كذَّب إنسان بالموت، فهل سيعيش أبد الدهر؟. وماذا لو كذَّب امرؤٌ بالمرض، فهل يبقى صحيح الجسم معافًى؟.

إن تكذيب الإنسان بالحقيقة يدفعه إلى عدم الاستعداد لها؛ فمن يُكذِّب بسطوة طاغوت قد يعجز عن الاستعداد لتحاشيه، ومن يُكذِّب بمرض لا يتعاطى دواءً للشفاء منه، ومن يُكذِّب بالليل لا يُهيِّئ له مصباحاً، ومن يُكذِّب بالموت لا يستعد له، كذلك من يُكذِّب بالساعة لا يكتشف آفاقها ولا يتَّقي أهوالها بالعمل الصالح.

ولذلك؛ نجد أن ربنا سبحانه وتعالى يُؤكِّد لنا بأن تكذيب الكافرين بالساعة، ليس لم ينفعهم فقط، وإنما ألحق بهم ضرراً بليغاً، لأنه تعالى قد أعدَّ لمن كذَّب بالساعة عذاباً أليماً، فقال:

٢- ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾.

والإعداد للعذاب تعبير عن الإرادة التامة لإلحاق الجزاء

العسير بمن ينبغي أن يتعرَّض له. وقد كان الله عز وجل قادراً على أن يخلق نار السعير فجأة، أو بعد الانتهاء من عملية الحساب الأكبر، ولكنه شاء إعداد النار للمكذبين بساعة القيامة تهديداً لهم وانتقاماً منهم إذ ذاك.

وهنا حكمة بالغة تنبغي الإشارة إليها، وهي:

أن جزاء الإنسان -خيراً أو شرًّا- على نوعين:

١- جزاؤه بفعله.
٢- ذات فعله.

فالجزاء بالفعل، هو الجزاء الذي يعدّه الله تعالى للإنسان بما ارتكب من خطأ، في حين أن النوع الثاني فهو أن كل خطيئة يرتكبها ابن آدم في الدنيا تتجسّد في عالم الآخرة وتتمثَّل أمامه. فمن يَكْذِبُ -مثلاً- كذبة، تتحوَّل كذبته إلى ريح خبيثة يشمها يوم القيامة. ومن يأكل مال اليتيم ظلماً، فإن أكله بحد ذاته يتحوَّل ناراً، لكن هذه النار لا يُحس بها في دار الدنيا، إنما تتجسد أمامه وتحيط به في جهنم حتى يجدها تسعر به آنذاك.

» الدنيا والآخرة عبارة عن حقيقة واحدة. وإن الدنيا مزرعة الآخرة. ولو عرف الإنسان جزءًا من هذه الحقيقة، وجهل الجزء الآخر، لابتُلي بمثل هذه التساؤلات.

والمُكذِّب بالساعة سيصلى سعيراً؛ أي سيذوق السعير ويُحاط به، لأن نار التكذيب في الدنيا غير مُسعَّرة بالكامل، وهي وقود نار لم تشتعل إنّما ستشتعل في الآخرة.

والسعير سيُحيط، بمن كذَّب بالساعة؛ سواء في ذلك الذي غلَّف تكذيبه بمنظومة من الشبهات وطرحها بوجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو لا.

» بصائر وأحكام

١- الدنيـا والآخرة عبارة عن حقيقـة واحدة، بدايتها الدنيا واسـتمرارها الآخرة، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، والآخرة جزاء ما حصل في الدنيا.

٢- إن تكذيب الإنسـان بالحقيقة يدفعه إلى عدم الاستعداد لها. لذا فمن يُكذِّب بالساعة لا يكتشف آفاقها ولا يَتَّقي أهوالها.

» جهنم تستقبل الكافرين

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾

» من الحديث

عَنْ جَابِرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «**قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم أَخْبَرَنِي الرُّوحُ الْأَمِينُ أَنَّ اللهَ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِذَا وَقَفَ الْخَلَائِقَ وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ أُتِيَ بِجَهَنَّمَ تُقَادُ بِأَلْفِ زِمَامٍ، أَخَذَ بِكُلِّ زِمَامٍ مِائَةُ أَلْفِ مَلَكٍ مِنَ الْغِلَاظِ الشِّدَادِ، وَلَهَا هَدَّةٌ وَتَحَطُّمٌ وَزَفِيرٌ وَشَهِيقٌ، وَإِنَّهَا لَتَزْفِرُ الزَّفْرَةَ فَلَوْلَا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخَّرَهَا إِلَى الْحِسَابِ لَأَهْلَكَتِ الْجَمِيعَ. ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا عُنُقٌ يُحِيطُ بِالْخَلَائِقِ الْبَرِّ مِنْهُمْ وَالْفَاجِرِ. فَمَا خَلَقَ اللهُ عَبْداً مِنْ عِبَادِهِ مَلَكاً وَلَا نَبِيّاً إِلَّا وَيُنَادِي: يَا رَبِّ نَفْسِي نَفْسِي، وَأَنْتَ تَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي، أُمَّتِي..**»[1].

***

تفصيل القول

الحديث هنا عن وعيد للكافرين الذين كذَّبوا بالساعة بأنهم

(١) الفروع من الكافي: ج٨، ص٣١٢.

سـوف يدخلون النار لِيَصْلَوا فيها سعيراً.. والمشكلة الأساسية عند هـؤلاء الكافرين تكذيبهـم بحقيقة يوم القيامـة، ومن يكذّب بهذه الحقيقة التي هي عنوان العدل الإلهي والحكمة الربانية، لا علاج له سوى أن يُلقى في نار جهنم لينال فيها جزاءه.

و**السؤال**: لماذا اكتفى السياق القرآني بإنذار هؤلاء دون بيان المزيد من أدلة قيام الساعة؟.

الجـواب: أن الحقائـق الدينيـة واضحـة أصلاً، لاسـيما وأن آيـات ربِّ العالمين منتشرة في كل مكان. وإنما الذي يمنع البشر من الاعتراف بها تتمثل في الحُجب النفسـية التي تمنعه من تبصُّر الحق، وهـذه الحجب لا يسـنح رفعهـا بالأدلـة العقليـة؛ إذ الدليل متوفر أساسـاً، وإنما يمكن رفع تلكم الحُجب بالصعقات النفسيّة الكبيرة التـي توجَّـه إلى كيان الإنسـان، ليتنبّه؛ فلا يُجـادل في الحق؛ وليفكر بموضوعية؛ فيصـل إلى الحقائق. والصعقات هذه قد تكفَّل القرآن المجيد بتوجيهها.

وإذا رُفعت الحجب؛ عاد المرء إلى رشده، وفكّر بموضوعية، فوصل إلى الحقيقة.

إذن؛ فابن آدم؛ المحجوب عن المعرفة بحجب الغفلة والجهل والتكبُّر والذنوب وغير ذلك، بحاجة ماسـة إلى ما يهزّ أعماقه ليعود إلى رشده، فيقرّ بواحدة من أكبر الحقائق الإلهية، ونقصد بها: حقيقة يـوم القيامـة. فمن المفـترض أن ينكسر لهذه الحقيقة قلب الإنسـان وتجـري عليها دمعته، ومـن دون التعامل العاطفي يصعب على من أسره حطام الدنيا أن يؤمن بحقائق الآخرة.

إن قلـب البـشر أسـير شـهواته وسـجين غفلتـه، فلابد من

إطلاق سراحه أولاً ليرى الحقيقة بأم عينه.

فالصورة الصاعقة التي تتضمنها هذه الآية الشريفة لجهنم يُراد منها هزّ الضمير والوجدان، لما للضمير من دور مميَّز في صياغة شخصية الإنسان وتحديد مرتكزاته الفكرية.

» إن الحقائق الدينية واضحة أصلًا. وإذا رُفعت الحجب؛ عاد المرء إلى رشده، وفكّر بموضوعية، فوصل إلى الحقيقة.

فإذا رأتِ النار هؤلاء الكافرين المكذبين وهم على مبعدة منها.. أحدثت زفيراً استعداداً لتعريضهم لعذابها، فسمعوا لها صوت تفجُّرها وزفيرها، فكأن جهنم تتأثر بقدوم الكافرين المكذِّبين بها، ذلك لأنهم هم وقودها الذي به تؤجّ وتعجّ وتستعر وتزفز.

فالتغيّر في جهنم هو الانفعال الحاصل فيها بفعل قدوم الكافرين إليها، فكأنها تستعد لاستقبالهم.

» بصائر وأحكام

١- من يُكذِّب بالآخرة، لا علاج له سوى أن يُلقى في نار جهنم لينال فيها جزاءه.

٢- المشكلة الحقيقية المسيطرة على كيان الكافرين المتمردين على إرادة الله، هي ليست في قضية تقدُّمهم بالشبهات والأمثال.. وإنما بتكذيبهم بالساعة بسبب الحجب المتراكمة على قلوبهم.

» دعوا هنالك ثبوراً

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾.

» من الحديث

فِي الْحَدِيثِ عَنْ الإمام الصادق عليه السلام فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ﴾ «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ يُسْتَكْرَهُونَ فِي النَّارِ كَمَا يُسْتَكْرَهُ الْوَتَدُ فِي الْحَائِطِ**»[1].

***

تفصيل القول

ذاك كان حديث الرؤية من جانب جهنم، والسمع من جهة الكافرين المكذبين. وها هو الآن جاء دور حديث الإلقاء بهم في النار، لاسيما قد جعل الله تعالى جهنم مكاناً ضيّقاً، ليذوق الكفار فيها مزيداً من العذاب؛ ذلك لأن الضيق بذاته عذاب أليمٌ وفظيع. على أنهم لا يدخلونها باحترام وإنما يُرمون فيها بذلة وهوان، حتى

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٢٥٥.

أن منهم من يُرمى في جهنم ويبقى يتسـافل إليها هاوياً مدة سـبعين سنة، لا تعرف أهي من سنّي الدنيا أم من سنّي الآخرة.

والأدهـى أنهـم يُرمون مَقرَّنـين، فيعجزون عـن اتِّقاء أرض النار بأيديهم.

فهل يُقرنون بالأصفاد أم بشياطين من الجن ليزيدوهم أذىً، وهم أولئك الشـياطين الذين وسوسوا لهم وخدعوهم وأبعدوهم في دار الدنيـا عـن الحقائـق الإلهيـة؟. فالُملقى في النـار والمقرون إلى الشياطين سيجد نفسه مضطراً إلى خوض عراك بدني وصراع نفسي مع الشـياطين في نار جهنم مادام فيها. فلا يجد مفرًّا من عذاب الله، ولا شفيعاً لرحمته.

وهنالـك تتعـالى منهم الصيحـات تلو الصيحـات فيدعون ثبـوراً وويـلاً ولعنـات. والله يتيـح لهـم المجـال بصيحـات الثبور وعـدم الاكتفـاء بثبـور واحد فحسـب، وإنـما صيحاتهم سـتتوالى وتتكرر بالويل والثبور والاستغاثة بعد الاعتراف بذنوبهم. فسحقاً لأصحاب السعير.

» بصائر وأحكام

لقـد عمد الله عزَّ وجلَّ إلى جهنم فأمرها بأن تضيق بالداخل فيهـا تنكيـلاً بـه، وأن يُرمى إليها رميـاً، وكما يُقـرن بالأصفاد يُقرن بالشـياطين الذين وسوسوا له وخدعوه. ونظراً لشدة العذاب تجده يدعوا ثبوراً.

» ادعوا ثبوراً كثيراً

﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

» من الحديث

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «**إنّ أَوَّلَ مَنْ يُكْسَى حُلَّةً مِنْ النَّارِ إِبْلِيْس، فَيَضَعُهَا عَلَى حَاجِبَيْهِ وَيَسْحَبُهَا مِنْ خَلْفِهِ، وَذُرِّيَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ يُنَادي: يَا ثُبُوْرَاهُ، وَيَقُوْلُوْنَ: يَا ثُبُوْرَهُمْ. حَتَّى يَقِفَ عَلَى النَّارِ فَيَقُوْلُ: يَا ثُبُوْرَاهُ، وَيَقُوْلُوْنَ: وَا ثُبُوْرَهُمْ. فَيُقَالُ لَهُمْ:** ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾»[1].

***

تفصيل القول

قد تكون الذنوب مجردةً منفردةً، وقد تكون مُضاعفة مركبة؛ فالذنب قد يكون واحداً ولكنه في الوقت نفسه يحوي مجموعة من الذنوب، فالذي يُلقي قنبلة على حي سكني فذنبه واحد في الظاهر ولكن نتائجه متعددة.

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ج٥، ص٦٥.

وكما أن الذنب قد يكون مضاعفاً مركباً ضمن إطار واحد، فكذلك يكون جزاؤه، إذ يُرمى مُقترفه إلى جهنم مُقرَّناً بالأصفاد وبالشياطين، وهنالك يدعو ثبوراً واحداً، إلَّا أن يُقْرَع بالأمر ألَّا يدعو ثبوراً واحداً فقط، بل ثبوراً كثيراً لشمول الجزاء شركاءه الذين خدعوه وغرّوه به.

في يوم الجزاء يأمر الله عز وجل المُذنب المحشور في نار جهنم ألّا يدعو ثبوراً واحداً، بل عليه أن يدعو ثبوراً كثيراً، فلا يُلقي باللوم على غيره، وأن يعترف بأنه مسؤول في الحقيقة عما اقترفت يداه مهما تراكمت عليه الظروف الضاغطة.

» إن الإنسان مسؤول عن عمله؛ وإن كانت عوامل أخرى قد ساهمت في حصول ذنبه، فهو المسؤول الأول والأخير حتى وإن كانت البيئة فاسدة.

أقول: إن الإنسان مسؤول عن عمله؛ وإن كانت عوامل أخرى قد ساهمت في حصول ذنبه، فهو المسؤول الأول والأخير حتى وإن كانت البيئة فاسدة، وإن حصل من أبويه أن ربّياه على طريقة خاطئة، وإن كانت الظروف الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية المحيطة به قد دعته إلى ارتكاب الذنب، إلَّا أنه -شاء أم أبى- له القرار النهائي، ولكنه حينما يخضع للظروف يخضع للآباء أو للاقتصاد أو للسياسة أو للبيئة؛ فخضوعه كان بمحض إرادته، وقد أعطاه الله من الإرادة الحرة ما يختار بها ما يرتئيه.

إن الأمر سيصدر إلى القابعين في جهنم بدعاء الثبور الكثير؛ لأن ذنوبهم وإن كانت آحاداً، إلَّا أن للذنب الواحد آفاقاً عديدة، هم المسؤولون عما تتشعب إليه ذنوبهم من الشعب وتترك من الآثار والعواقب السلبية، كمن يرتكب ذنباً واحداً في الظاهر كاستسلامه لطاغوت ظالم، ولكنه عليه أن يدفع ثمن ما سَيَتَرَتّب

على استسلامه من ذنوب كممارسته للظلم بعد ذلك، تماشياً مع رغبة ذلك الطاغوت الظالم.

» بصائر وأحكام

إن الإنسان مسؤول عن عمله، وإن كانت عوامل أخرى قد ساهمت في حصول ذنبه. فهو المسؤول الأول والأخير؛ لأن القرار النهائي بيده.

» جنة الخلد وعد المتقين

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

» من الحديث

عَـنْ زَيْـدِ بْنِ أَرْقَـمَ قَالَ: «**قَالَ رَسُـولُ الله ﷺ مَـنْ أَحَبَّ أَنْ يَحْيَـا حَيَـاتِي وَيَمُوتَ مِيتَتِي وَيَسْكُنَ جَنَّةَ الخُلْدِ الَّتِـي وَعَدَنِي رَبِّي الَّتِـي غَرَسَ قُضْبَانَهَا بِيَدِهِ، فَلْيَتَوَلَّ عَـلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فَإِنَّهُ لَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ هُدًى وَلَنْ يُدْخِلَكُمْ فِي ضَلَالَةٍ**»[1].

***

تفصيل القول

١ - ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾.

باعتبارك يا رسول الله المبلغ عن الله، أَثِرْ عقولهم وهزَّ ضمائرهم، وقل لهم: هل الخلود في الجحيم أفضل أم الخلود في

(١) بحار الأنوار: ج٢٣، ص١٣٩.

جنان الله التي عرضها السماوات والأرض؟.

ولطالما عمد الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم إلى التمييز بين الجنة والنار. وفي هذه المرة، أمر رسوله المصطفى ﷺ أن يحمل الإنسان على أن يتساءل ليهزّ وجدانه ويخيّر نفسه بين الجنة والنار.

فالخير كل الخير في جنة الخُلد، والشر كل الشر في جحيم النار، ولا مكان ثالث بينهما، ولا مسافة تقع في البين، بل هما حقيقتان، حقيقتان لا غير. وهنا تكمن، أو لنقل: تتجلى هزة الضمير، حيث يعجز ابن آدم عن استساغة النار، كما يعجز عن التنازل عن الجنة، حيث لا منطقة فراغ بينهما.

بلى؛ إن مسألة الخلود مسألة غامضة جدًّا بالنسبة إلينا نحن البشر؛ الذين نعيش ضمن حياةٍ دنيوية مصبوغة بالسرعة والتغيُّر والزوال.

ولا يسعنا سوى القول، فيما يخص هذه الآيات المتحدثة عن الجنة ومميزاتها: إنه لا مانع عقلي من الخلود مع تصور تعلُّقه بإرادة الله سبحانه وتعالى، وهو الحي القيوم؛ إذ لا يعني خلود الإنسان في الجنة انفكاكه عن قيّوميّة الله، بل لعل الإنسان إذ ذاك تتجسد له حقيقة القيومية الإلهية أكثر من أي وقت مضى لدى شعوره بالخلود، على عكس إحساسه بسيف الموت والفناء مُسلَّطاً على رقبته كما كان حاله في الحياة الدنيا.

فالقيوم أبداً هو الله عزَّ وجلَّ، ومن دون فيضه وبلا إذنه ومن دون عطائه المتواصل لن يكون المخلوق شيئاً مذكوراً؛ إذ ينعدم وجوده ويتلاشى في اللاشيء.

ونحن على علم ويقين بأن الرَّبّ سبحانه وتعالى هو الذي يستمر في العطاء. وما دامت رحمته واسعة، وما دام هو الرحمن الرحيم والجواد الكريم، فلا سبب لانقطاع رحمته وكرمه سبحانه وتعالى. ومن المنطقي ألَّا تكون ثمة قوة قاهرة فوق قدرة الرَّبّ المتعال تمنعه عن العطاء أو تنقص من قدرته ورحمته. وهذا الاستمرار في الفيض الإلهي هو الذي يتجسَّد الخلود من خلاله.

وقد قال الله سبحانه وتعالى في معرض تبيينه لسُنَّة من سننه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١).

فما دام الإنسان قد تعرَّض للامتحان في الدنيا، وأثبت جدارته بالفوز ثم أدخله الله الجنة وجعله كائناً مخلصاً، فإنه لا مجال للتفكير في أن يعمد هذا الإنسان إلى تغيير ما بنفسه لتحلَّ عليه نقمة الرَّبّ فيُغيِّر ما به من النعمة فيسلبها منه أو ينزع الخلود عنه.

ولنا أن نتصور الحقيقة التالية لنستوعب معنى الخلود في الجنة:

خلق الله تعالى أبوينا آدم وحواء وأدخلهما الجنة فمنعهما من الاقتراب إلى شجرة معينة؛ أي أنه لم يجعل كل الجنة متاحة لهما.. هذا **أولاً**.

وثانياً: لم يضمن الله لهما الخلود في الجنة، ولكنه في يوم القيامة أطلق للإنسان التصرف بالجنة وضمن له الخلود فيها.

وليس بالأمر العزيز على الله تبارك وتعالى، ولا عن رحمته

(١) سورة الرعد، آية: ١١.

التي وسعت كل شيء؛ أن تتواصل تلك الرحمة إلى حد الخلود.

٢- ﴿ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

الله سبحانه وتعالى وعد، ولكن لمن توجَّه هذا الوعد؟.

لأشـخاص محدّدين وصفوا بالمتقـين. والوعد هنا لا يتصور منـه دخول نوع مـن الجبر والإجبار عـلى الله عز وجل، بـل الله لم يصدر وعده هذا مجبراً، كما أنه تبارك وتعالى لا يفـي به مجبراً، لأن علاقة الله بوعـده تتفاوت عن علاقة الإنسـان بوعـده ومنشـأ هذا التفـاوت كـون الله خالقاً وكون الإنسان مخلوقاً ضعيفاً مُعرَّضاً لأشكال الضغوط والشهوات والحاجات.

» إن مســألة الخلود مســألة غامضة جدًّا بالنســبة إلينــا نحن البشر؛ الذين نعيش ضمن حيــاة دنيوية مصبوغة بالســرعة والتغيُّر والزوال.

فإذا اضطـر ابن آدم، تبعاً للضغوط والشـهوات والحاجات، إلى أن يخلف وعده، فإن الله الخالق قد تقدَّس عن ذلك وتعـالى عن دائرة الشـهوة والحاجة، فهو إذن لا يخلـف وعده أبداً، وبالتالي لا يكون وفاء الله بوعده ذا علاقة بمبحث الجبر والفرض، بـل إنه عز وجل أمرنا بالوفـاء بالوعد والصدق في القول؛ لأن هذا مـن صميم الحـق والعدل، فلا يعقـل أن يخلف الله وعـده. جاء في دعـاء مأثور: «**وَقَدْ عَلِمْتُ يَا إِلَهِي أَنَّهُ لَيْسَ فِي نَقِمَتِكَ عَجَلَةٌ، وَلَا فِي حُكْمِـكَ ظُلْمٌ، وَإِنَّمَا يَعْجَلُ مَنْ يَخَافُ الْفَوْتَ، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى الظُّلْمِ الضَّعِيفُ، وَقَدْ تَعَالَيْتَ يَا إِلَهِي عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيراً**»[(١)].

وهذا الوعد بالتكرم بجنة الخلد موجَّه إلى ذي التقوى الذي تدفعـه تقواه إلى التخلُّص من النار. فالتقوى حجاب بين الإنسـان

(١) مصباح المتهجد: ص١٩٥.

والنار، كما هي حجاب بين ابن آدم وارتكاب الذنب.

٣- ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾.

المتقون وُعِدوا من قبل الله بجنة الخلد، حيث يترجم حجابهم عن النار وتقواهم بالتفضل والتكرم عليهم بإدخالهم الجنة، وهذا هو الجزاء الأوفى.

ورغم أن الله تعالى غني عن أعمال عباده الصالحين، ورغم أنه سبحانه وتعالى غير محتاج لتقوى الإنسان، إلَّا أن الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء لا تُعطى جُزافاً في الدار الآخرة، ولقد جعل ثمن الجنة وقيمة دخولها أن يثبت المرء جدارته، ولو بدرجة معينة. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[1].

وهو لم يشتر الأنفس المؤمنة ولا أموال المؤمنين لنفسه، فهو في غنىً عنها وعنهم، وإنما اشتراها منهم لأنفسهم هم دون غيرهم. وهذا هو الجزاء الذي وُصِفَ في آية قرآنية أخرى بأنه الأوفى؛ أي المستغرق والأكثر قيمة من الشيء المشترى، لأنه يحتوي على الجنان والخلود في الجنان، وعلى الرضوان الإلهي الأكبر من كل النِّعَم. فلا ينبغي للإنسان أن يَكِلَ زمام نفسه إلى الشيطان ووساوسه التي يُحاول الخداع بها، حيث يوحي للإنسان بأن أعماله الصالحة واستقامته لا تعدلان شيئاً مذكوراً إزاء رحمة الله الواسعة، وبالتالي فلا حاجة للقيام بعمل صالح.

أما مفردة المصير الواردة هنا، فلعلها إشارة إلى أن الله تعالى

(١) سورة التوبة، آية: ١١١.

قد أراد لابن آدم أن يصير ويسير ويتَّجه إلى حيث جنة الخلد، وأن ينأى بنفسه عن وساوس الشيطان وضغوط النفس الأمارة بالسوء؛ لينال عن جدارة ما خُلق لأجله أساساً، وهو التنعُّم بنعيم الجنة وخلودها.

» بصائر وأحكام

١- الخير كل الخير في جنة الخُلْد، والشر كل الشر في جحيم النار، وليس بينهما منطقة فراغ. وهنا تتجلى هزة الضمير، حيث يعجز ابن آدم عن استساغة النار، كما يعجز عن التنازل عن الجنة.

٢- التقوى حجاب بين الإنسان وبين النار، كما هي حجاب بينه وبين ارتكاب المعاصي.

٣- لقد جعل الرَّبّ بفضله التقوى ثمن الجنة وحرّمها على بعض عباده بحكمته البالغة على أنه غني عن عبادتهم ولا يضره كفرهم أو فسوقهم.

» وعد اللّه

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾.

» من الحديث

* عـن المُفَضَّـل قـال: قَالَ أَبُـو عَبْـدِ الله عليه السلام: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ الْأَرْوَاحَ قَبْلَ الْأَجْسَادِ بِأَلْفَيْ عَام، فَجَعَلَ أَعْلَاهَا وَأَشْرَفَهَا أَرْوَاحَ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالحَسَـنِ وَالْحُسَيْنِ وَالْأَئِمَّةِ بَعْدَهُمْ عليهم السلام، فَعَرَضَهَـا عَلَى السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَغَشِـيَهَا نُورُهُمْ فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلسَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ: هَـؤُلَاءِ أَحِبَّائِي وَأَوْلِيَائِي وَحُجَجِـي عَـلَى خَلْقِي وَأَئِمَّـةُ بَرِيَّتِي، مَا خَلَقْـتُ خَلْقاً هُـوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُمْ، لَهُمْ وَلِمَنْ تَوَلَّاهُمْ خَلَقْتُ جَنَّتِي، وَلِمَنْ خَالَفَهُمْ وَعَادَاهُمْ خَلَقْتُ نَـارِي، فَمَنِ ادَّعَى مَنْزِلَتَهُـمْ مِنِّي وَمَحَلَّهُمْ مِنْ عَظَمَتِـي عَذَّبْتُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلْتُهُ وَالْمُشْرِكِينَ فِي أَسْفَلِ دَرْكٍ مِنْ نَارِي، وَمَـنْ أَقَرَّ بِوَلَايَتِهِمْ وَلَمْ يَـدَّعِ مَنْزِلَتَهُمْ مِنِّي وَمَكَانَهُمْ مِنْ عَظَمَتِي جَعَلْتُهُ مَعَهُمْ فِي رَوْضَاتِ جَنَّاتِي، وَكَانَ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ عِنْدِي»[١].

(١) بحار الأنوار: ج١١، ص١٧٢.

* عن محمد بن مسـلم، قال: سـمعت أبا جعفر عليه السلام يقول (في حديـث): «**وَاعْلَـمْ يَا مُحَمَّدُ؛ أَنَّ أَئِمَّةَ الجَـوْرِ وَأَتْبَاعَهُمْ لَمَعْزُولُونَ عَنْ دِينِ الله قَدْ ضَلُّوا وَأَضَلُّوا..**»[1].

***

تفصيل القول

١- ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾.

من نعيم الله وفضله وكرمه على أهل الجنة أنه يجعلهم مالكين لها، فلا يخرجون منها أبداً ولهم -بفضل ربهم- ما يحبون.

٢- ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾.

وهكذا يكون لهم فيها المشيئة بلا ضغوط ولا شروط. ولعل شعور أهل الجنة بأن لهم فيها ما يشاؤون، وشعورهم بالملك ومن ثم بالخلود، هو الذي يجعلهم لا يملّون من الجنة ليطلبوا عنها بدلاً أو منها حولاً.

ولعـل الـرَّبّ سـبحانه يمنحهـم مـن ولايتـه وملكوتـه مـا يصنعون به ما يشـاؤون ويختارون ما يشاؤون، حتى أنهم يتصرفون في الجنة ونعيمها بنيته المجردة عن أية حركة أو قول.

٣- ﴿خَـٰلِدِينَ﴾.

ولكن يبقى السؤال: كيف يخلدون وهم مخلوقون، والمخلوق لا يستغني عن خالقه، وما هو الضمان؟.

بلى؛ والضمان هو:

(١) الأصول من الكافي: ج١، ص١٨٣.

٤ - ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾.

إنه وَعْدُ الله، والله هو الذي يسأل عباده عن أعمالهم. وهكذا فإنه ليس مسؤولاً، إنما الوعد القائم على أساس الحق والعدل هو المسؤول.

نعم؛ إن الله تعالى المتصف بكل صفات الكمال، إذا وعد وفى، ولا يُخلف الله وعده. وهذا من الأدب القرآني الرفيع.

» بصائر وأحكام

١- لقد منح الرَّبّ لأهل الجنة حق التصرف فيها حينما أطلق القول بأن لهم فيها ما يشاؤون. وهكذا خوَّل إليهم صلاحية الولاية في نعيم الجنة بلا حدود.

٢- ثم أكمل النعمة لهم بالخلد في الجنة، وقد قرن وعده المسؤول بالمشيئة والخلد ضماناً لهما.

٣- من فرض على نفسه عهداً ووعداً حقًّا كان عليه أداؤه، لأن الوعد مسؤول.

» أسباب الضلال

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

» *من الحديث*

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام قَالَ: رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا مِنْ عَبْدٍ وَلَا أَمَةٍ زَالَ عَنْ وَلَايَتِنَا، وَخَالَفَ طَرِيقَتَنَا، وَسَمَّى غَيْرَنَا بِأَسْمَائِنَا وَأَسْمَاءِ خِيَارِ أَهْلِنَا، الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ لِلْقِيَام بِدِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَلَقَّبَهُ بِالْقَائِم، وَهُوَ كَذَلِكَ يُلَقِّبُهُ مُعْتَقِداً لَا يَحْمِلُهُ عَلَى ذَلِكَ تَقِيَّةُ خَوْفٍ وَلَا تَدْبِيرُ مَصْلَحَةِ دِينٍ؛ إِلَّا بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ كَانَ قَدِ اتَّخَذَهُ مِنْ دُونِ الله وَلِيًّا، وَحُشِرَ إِلَيْهِ الشَّيَاطِينُ الَّذِينَ كَانُوا يُغْوُونَهُ؛ فَقَالَ لَهُ:

يَا عَبْدِي؛ أَرَبًّا مَعِي هَؤُلَاءِ كُنْتَ تَعْبُدُ، وَإِيَّاهُمْ كُنْتَ تَطْلُبُ؛ فَمِنْهُمْ فَاطْلُبْ ثَوَابَ مَا كُنْتَ تَعْمَلُ، وَلَكَ مَعَهُمْ عِقَابُ أَجْرَامِك»[1].

***

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص١٨٩.

تفصيل القول

إنّ من الوساوس الشيطانية ما هي عميقة الجذور في واقع الإنسان، وقد تتبلور في قوالب فلسفية مُضلة، ومنها أن الحق يتمثل فيما يفعله الإنسان أو يقوله، وتنفي هذه الفلسفة الشيطانية والثقافة الشريرة أي ميزان للحق والباطل خارج نفس البشر وإرادته، ويزعم أن الحق برمته والصواب بعينه يتمثل في فعل الإنسان وقوله. وبتعبير آخر: إن ما يقوم به ابن آدم يتحوَّل إلى حق وحقيقة.

وقد تبنَّى البعض هذه الفلسفة بعد البعثة النبوية، والذين عُرِفوا فيما بعد بالمُصوِّبة، ثم تسرَّبت إلى جملة من الغربيين فيما سُمِّي بالوجودية، وقادها جون بول سارتر في فرنسا، حيث جعل أساس فكرته أن الإنسان هو محور الحق، وكفر بمحورية الحق والعقل وحتى إرادة الله تعالى.

ولكن رسالة السماء نزلت لتدحض هذه الأنانية البشرية مؤكدة أنَّ ثمة ميزاناً للحق يرسم حقيقة الحق وصورته، كما يُحدِّد أصل الباطل وملامحه، مشيرةً إلى أن العقل المتصل بوحي الله سبحانه وتعالى هو الذي يُحدِّد جوانب الحق وزوايا الباطل ثم يتكامل.

وهذا الميزان يتجلَّى في كتاب الله وفي النبي والإمام؛ ذلك لأن الميزان الحق هو -في الأصل- إرادة الله سبحانه وتعالى، وإذا أراد الإنسان أن يبلغ مراتب الشرف فعليه أن يتعلَّق بالإرادة الإلهية التي شاء الله أن تترجم في أرض الواقع على لسان الرسالة المُنزلة من عنده هو، وعلى لسان النبي والإمام المنصوبين من قبله هو. وإلى هذه الحقيقة السامية أشار الحديث النبوي الشريف بقوله: «**عَلِيٌّ مَعَ الحَقِّ، وَالحَقُّ مَعَهُ، لَا يَفْتَرِقَانِ حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ**»[1].

(١) بحار الأنوار: ج٣٨، ص٩٥.

١ - ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

إشارة إلى يوم القيامة، حيث يكون فعل الحشر في يوم الحساب ناشئاً من مشيئة الله عز وجل مباشرة، فيحشر الله الناس جميعاً؛ لا يغادر منهم أحداً، بمن فيهم الضالين والمضلين من الطغاة وعلماء السوء والأثرياء الأشرار وأزلامهم.

فيسأل الرَّبّ المتعال الجهات المضلة عن العلة الأساسية في ضلالة الناس، هل كانت منهم أو من الناس أنفسهم أم هي مشتركة بينهما؟.

٢ - ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾.

إذن؛ فهناك حق مُحدّد ومرسوم من قبل؛ قد ضل عنه الناس، ولو كان فعل الإنسان وقوله هما الحق، لما تميَّز عن الباطل أبداً ولما حُوسب عليه البشر يوماً، بل لانتفى شيء يشار إليه بالبنان على أنه خطأ وباطل، مما يقتضي قولهم بأن الإنسان وليس الحق هو المحور، إنه هو الضلال بعينه. إذ كيف يكون الإنسان الذي تقوده شهواته ويُحيط به الجهل والضعف ميزاناً للحق؟.

بلى؛ إن ثمة حقًّا قد ضل عنه الناس، وها هم يوم الحشر يحاسبون عليه.

ولكن؛ يبقى **السؤال**: ما الذي، أو من الذي دعا هؤلاء الناس إلى الضلال عن الحق؟. هل هم الزعماء السياسيون، أم الأبوان، أم الأثرياء المُترفون، أم علماء السوء، أم جملة الإغراءات والضغوط المعيشية والنفسية؟. وبالتالي هم الذين اختاروا الضلالة.

٣- ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾.

هذا المشهد الرهيب في يوم الحشر، حيث الله عز وجل يسأل القوم لماذا ضلوا. إنه قد ينعكس اليوم في واقعنا بإثارة وجدان كل منا، إنه هو المسؤول الأول عن اختياره الهدى أو الضلال.

حيث إننا حين نرجع إلى أنفسنا ونستحضر ضميرنا نعرف كيف أن الآخرين لم يكونوا يملكون قرارنا في اختيار طريق الهدى أو عدمه. وهكذا تتجلى لدينا بصيرة الحرية البشرية التامة التي تتحدى كل الضغوط إن شاء الإنسان بإذن ربه. وفي كتاب ربنا المزيد من القصص الحق التي يذكرنا بها الرَّبّ، والتي تؤكد هذه البصيرة. فهذا النبي يوسف على نبينا وآله وعليه السلام تراه تحدَّى بإذن الله ضغوط السلطة الجائرة وإغراءاتها. وهذه آسية بنت مزاحم زوجة فرعون، تراها تتحدَّى كل جبروت زوجها الطاغية.

كلَّا؛ كل فتن الدنيا ليست عللاً لإجبار البشر على الضلالة؛ فلا الطغاة وإرهابهم، ولا المترفون وإغراءاتهم، ولا المجتمع وضغوطه؛ تستطيع استلاب حرية القرار من البشر. ولهذا فإن من يضل سيُعاقب على ضلاله كما يُعاقب من ساهم في إضلال الناس.

» إنّ من الوساوس الشيطانية ما هي عميقة الجذور في واقع الإنسان، وقد تتبلور في قوالب فلسفية مُضلة، ومنها أن الحق يتمثل فيما يفعله الإنسان أو يقوله..

ونستفيد من هذه الآية أن الإنسان حينما يعبد من دون الله تعالى صنماً، مثلاً، فهو -في الحقيقة- لا يعبد الحجارة أو الحديد أو الخشب أو ما صنع منه الصنم، بل إنما يعبد -بادئ ذي بدء- أولئك الذي أقنعوه بعبادة الصنم، وتلك الأفكار التي نشروها لعبادة الصنم. بل وإن ابن آدم حينما ينصاع لأقوال هؤلاء في عبادة الصنم، فإنما يعبد هواه.

أليس قد خضع للطاغوت أو المترفين أو المجتمع الفاسد خوفاً أو طمعاً؟. ولو كان يتحدَّى خوفه أو طمعه إذاً ما خضع لهم ولا عبد ما أمروه بعبادته. وهكذا فهو المسؤول الأول عن ضلاله دون أن نُبرِّئ غيره من المساهمين عن مسؤولياتهم في إضلاله، والله العالم.

» بصائر وأحكام

١- لقد نزلت رسالات السماء لتدحض الأنانية البشرية التي تزعم أنه محور الحق، مؤكدة أن الميزان الإلهي هو الذي يرسم واقع الحق وصورته، كما يُحدِّد أصل الباطل وملامحه، مشيراً إلى أن العقل المتصل بالوحي قادر على تحديد جوانب الحق وأبعاد الباطل.

٢- للإنسان في الدنيا من الاختيار ما يتحدَّى به إن شاء كل ما يقتضي تجريده عن إرادته ليوقع به في الضلال قسراً، رغم أن عوامل الضغط وأسباب الضلال والإضلال ذات أثر في سوء اختياره ولكنه أثر غير حاسم.

٣- لا يجوز أن يبث الإنسان ثقافة الإضلال، فيُساهم في كفر الناس أو فسقهم.

٤- يجب أن يكون المؤمن يَقِظاً أبداً، حتى لا يُضله جنود إبليس.

٥-على المؤمن ألَّا يَهِنَ في مقاومة الفتن التي تنال من إيمانه.

» لماذا كانوا قوماً بوراً؟

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾.

» من الحديث

* قال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**وَاعْلَمُوا أَنَّ: الْأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ، وَيُنْسِي الذِّكْرَ..**»(1).

* وقال الإمام علي عليه السلام: «**أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً، كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً**»(2).

***

تفصيل القول

١ - ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ ﴾.

قال الذين عبدهم الناس لله تعالى: أنت ربنا المُنَزَّه عن كل

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم: ٨٦.
(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١٣٢.

ضعف وعن كل عيب وعن كل نقص.

٢- ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾.

أي: أنك خلقتنا بإرادتك، ولم تجعل لنا الحق في أن نكون آلهة، أو أنصاف آلهة، أو أن نجعل لأنفسنا من دونك آلهة وأولياء، إذ لا جهة مخلوقة يمكن أن تحل محلك وتتقمص رداء الربوبية؛ لأن كل شيء في العالم مخلوق، وكل شي ء ناقص، ولا يستحق أن يُعبد مهما تعاظمت مظاهر الأُبَّهة لديه ووساوسه.

وهكذا نفى أولئك الذين كانوا يعبدون من دون الله، من الطغاة وعلماء السوء وذوي الإمكانات بألوانها، أن يكونوا قد أضلوا الناس الذين عبدوهم من دون الله جلَّ وعلا، وبيَّنوا السبب الرئيس لضلالتهم فقالوا:

٣- ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾.

ويستدل الذين ساهموا في ضلالة الناس بأن نسيان الذكر والابتعاد عن مصدر الهدى، كان سبب ضلالهم. والذكر هو ضياء الوحي والنبي وأوصياؤه.

ولعلّ هذه الآية تُشير إلى ما جاء في سورة الحديد من أن الناس إذا طال عليهم الأمد، قست قلوبهم، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾[1].

وقد يكون الإنسان مؤمناً إيماناً سطحيًّا، ولكنه في الوقت ذاته

(١) سورة الحديد، آية ١٦.

يكون بعيداً عن الحقيقة، بسبب هجره للخشوع ولذكر الله ولأهل الذكر من أئمة الهدى، فيُسارع إليه الشيطان ويضله عن السبيل فيقسو قلبه.

وهـذه الآيـة تحذرنا مـن مغبـة الخلـود الى الدنيا وشـهواتها والركـون إلى نعـم الله دون شـكرها والمحافظة على أسـبابها، ومن أسبابها طاعة الله والتسليم للنبي والأئمة والاستقامة على الطريق.

٤ - ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا بُورًا﴾.

الأرض البور: الأرض اليباب غير المعمورة، وغير الصالحة. فبالانسـياق وراء المتعة، وبنسيان الذكر؛ يكشف المرء المنحرف عن جـادة الحق عـن طينته البـور وجوهره المنحـرف، لأن الذي خبث وتلوث بعوامل الضلال لا يخرج نباته إلّا نكداً.

» بصائر وأحكام

١ - إن من نسي الذكر المتمثل في كتاب الله ورسوله وأوصياء الرسـول فإنه لا يعتصم بالعروة الوثقـى، فتهوي به رياح الفتنة إلى وادي العبودية لغير الله.

٢- بسـبب الانسياق وراء المتعة ونسيان الذكر يكشف المرء المنحـرف عـن طينته البـور؛ لأن الـذي تلوَّث بعوامـل الضلال لا يخرج نباته إلّا نكداً.

٣- يجـب على المؤمـن أن يتعاهد الذكر لكيلا ينسـاه فيكون من القوم البور.

» عقبى الظلم عذاب كبير

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

» من الحديث

* عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «**قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّهُ ظُلُمَاتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

* سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَيُّ ذَنْبٍ أَعْجَلُ عُقُوبَةً لِصَاحِبِهِ؟. فَقَالَ عليه السلام: مَنْ ظَلَمَ مَنْ لَا نَاصِرَ لَهُ إِلَّا اللهُ وَجَاوَرَ النِّعْمَةَ بِالتَّقْصِيرِ وَاسْتَطَالَ الْبَغْيَ عَلَى الْفَقِيرِ»[2].

***

(١) بحار الأنوار: ج٧٢، ص٣٣٠.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٢، ص٣٢٠.

تفصيل القول

١ - ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾.

لماذا نجد القرآن الكريم يبث الحقائق في آيات شتى ولا يجمعها في سياق واحد؟.

هناك احتمالات شتى:

أولاً: إن قدرة الإنسان على اجتذاب الحقائق فكريًّا، والتفاعل معها نفسيًّا، ومن ثم التكيُّف معها سلوكيًّا.. إنها قدرة محدودة. لأن الإنسان لا يستطيع أن يهضم الحقائق الكبرى بسهولة، خصوصاً حينما تمسّ تلك الحقائق جذور الانحراف في نفسه، وفي تلك الحقائق ما فيها من ركائز الإصلاح والتغيير. إن استيعاب مثل هذه الحقائق يُكلِّف الإنسان المزيد من الجهد الفكري والعزم الإرادي.

تعالوا نتدبر في فاتحة هذه الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾.

ذلك أن التكذيب الذي يُجابه به فريق من الناس قد يكون بسبب خلاف عاطفي معهم، سواء قال حقًّا أم باطلاً. كذلك التصديق قد يكون بسبب وفاق عاطفي مع شخص أو جماعة. وهذا -في الحقيقة- مقياس خاطئ؛ لأن على الإنسان أن يعرف الحق ثم يقيس الرجال به، وليس العكس. ولكن قد يكون بسبب آخر، مثلاً قد تجد إنساناً يحب الآخر أو لا أقل يحترمه ويرى فيه منظومة الخصال الحسنة ولكنه يخالف الأفكار التي يطرحها، فيكذبه من أجلها وليس لنقص في القائل وإنما بسبب عدم الوفاق في أفكاره.

لقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم صادقاً أميناً محبوباً ومحترماً في قومه، شريفاً، كان في ذروة الكاهل الأعبل شرفاً.. ولكن كذبوه. لماذا؟.

بسبب دعوته إلى نبذ الأصنام وإصلاح الانحراف. ولعل هذه هي البصيرة التي نستوحيها من قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أي إنهم كذبوا المؤمنين، ليس لأنهم كانوا غير جديرين بالتصديق، وإنما لأن المكذبين كانوا يخالفون أفكارهم.

٢- ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾.

وهكذا قيدوا أنفسهم بهذا التكذيب فأصبحوا في طريق مسدود، فلا يستطيعون التصرُّف في حياتهم بالإصلاح (لأنهم كُبِّلوا بأغلال التكذيب)، كما لا يستطيعون نصراً، أي دفاعاً عن أنفسهم في مواجهة النتائج السيئة التي ترتبت على تكذيبهم.

ثم قال:

٣- ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾.

إننا نرى الحديث قد توسَّع هنا ليتحوَّل إلى بيان سنة إلهية مفادها أن الظالم يُؤخذ بظلمه شاء أم أبى، عاجلاً أم آجلاً.

والسؤال: هل هذا الحديث موجه للطغاة أو لتابعيهم؟.

إنه حديث شامل للجميع؛ لأن الذين اتَّبعوا الطغاة واتَّبعوا أصحاب الدعوات الباطلة، هؤلاء وجدوا أنفسهم في بؤر التكذيب؛ لأن أولئك الذين اتُّبِعوا كذبوهم، بل قذفوهم بأسوأ الصفات، فقالوا: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾[1].

(١) سورة الفرقان، آية: ١٨.

إذن الطغـاة وأصحـاب الدعـوات الباطلـة كذبـوا هؤلاء، وبالعكس هؤلاء أيضاً كذبوا أولئك؛ أي وصلوا إلى طريق مسدود، فأخذ أحدهم يُلقي باللوم على الآخر، يقول: أنت المسؤول.

بلى؛ هذا الجدل موجود دائماً في يوم القيامة بين من اتَّبَع ومن اتُّبع حيث تتقطع بينهم الأسباب، بين الشيطان الذي يقول للإنسان لم يكـن لي سـلطان عليك، إنما قلت لك شـيئاً فعملـت به بمحض إرادتك، وبين هذا الإنسـان الذي اتَّبع الشـيطان، يريد أن يتخلص من المسؤولية ويُلقي باللائمة على الشيطان. ولكن هيهات.

أما السـنة الإلهية فهي سنة واحدة تجري سـواء على من اتَّبَع أو من اتُّبع، هناك ميزان حق يحكم يوم القيامة وبدقة متناهية يقاس بـه مدى مسـؤولية الذي اتَّبـع، كم هي، وكيف قـصر، وكيف اتَّبَع شـخصاً مـن دون تفكـر، من دون حجـة إلهيـة؟ والذي اتُّبِـع لماذا نشر هذه الأفكار الفاسـدة، لماذا دعا الناس إلى نفسـه، وإلى بدعته، وإلى ضلالاتـه؟ فكل واحـد يُجزى يوم القيامة بمقـدار ما فعله من جريمـة. ولعل هـذا فحـوى قوله تعـالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

» إن قدرة الإنسان على اجتذاب الحقائق فكريًا، والتفاعل معها نفسـيًا.. محدودة. لأنه لا يسـتطيع أن يهضـم الحقائـق الكبرى، خصوصًا حينما تمسّ تلك الحقائق جذور الانحراف في نفسه.

هنـاك ميـزان الحـق، هنـاك لا ينظـر إلى أقـوال هؤلاء، أو إلى تبريراتهـم، إنما يتعامل الميزان الحق معهم عـلى أسـاس أفعالهـم وظلمهم، سـواءً من ظلم نفسـه ومـن ظلم الآخرين لا فرق. كل ظلم مُجْزَى يوم القيامة بقدره، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1].

(١) سورة الكهف، آية: ٤٩.

» بصائر وأحكام

١ - التكذيب بين الطرفين، بـين من اتَّبَع ومن اتُّبع لا يُجدي نفعـاً بعـد أن قـصَّر كل في وظيفتـه؛ والآن وصـل كلٌّ إلى طريـق مسـدود، فلا يستطيع أن يتصرَّف فيما يملك، ولا يستطيع أن يُدافع عن نفسه.

٢ - إذا كان كل إنسـان يُؤخذ بفعله، فلماذا الاتِّباع الأعمى؟ كلَّا؛ عـلى كل واحـد أن يسـتقل بتفكـيره مـادام يتحمَّـل وحـده مسؤوليته.

» بعضكم لبعض فتنة

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾.

***

تفصيل القول

من الأمور الأساسية التي يُذكِّر بها كتاب ربنا دحضُ الشبهات التي ألقاها الكفار حول الأنبياء، وكذلك الوساوس الشيطانية التي قد يُلقيها البعض حولهم بهدف حجب الناس عن الاستنارة بنور الكتاب. وقد سبق أن بيَّنَّا في أكثر من سياق في هذه السورة المباركة،كيف أن الكفار كانوا يطرحون حول الرسول: كيف يكون رسولاً وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وهنا قد بيَّن الكتاب المزيد من البصائر في هذا الشأن لكي تقتلع جذور مثل هذه الشبهة. يُبيِّن ربنا أن الأنبياء كلهم كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، فمن آمن بنبي كانت هذه صفته لا يسعه إلَّا

أن يُؤمن بالنبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ويبدو أن البشرية -باستثناء شرذمة منهم- كانت تُؤمن ولا تزال بواحدٍ أو أكثر من الأنبياء، بالرغم من أن طبيعة هذا الإيمان كانت تختلف من أمة لأخرى، إذ إن الإنسان لأنه يعلم بفطرته بأن ربنا سبحانه وتعالى لم يخلقه سدى وإنما أرسل رسلاً وجعل بينه وبين خلقه وسائط هم الأنبياء، فإن الأكثرية الغالبة كانت مؤمنة بالأنبياء. ولذلك فإنّ ربنا بهذه الكلمة يُذكِّرنا بأن هذه الشبهة تافهة؛ لأن هذه صفة الأنبياء وسيرتهم جميعاً.

١ - ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾.

فهم كبشر أمثال للناس، فهم بحاجة إلى طعام كما هم بحاجة إلى رزق. الطعام يأكلونه والرزق يحصلون عليه من المشي في الأسواق للتجارة.

وهناك بصيرة أخرى يُؤكدها القرآن الكريم هنا كما في آيات أخرى، وهي أن الله تعالى ابتلى الناس بعضهم ببعض، فأول ما هبط أبونا آدم عليه السلام إلى الأرض هبطت معه الفتنة الناشئة من الصراع، فقال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾[1].

وهكذا ذكَّرهم بأنكم سوف تُبتلون بهذه الفتنة، وهي أن بعضكم لبعض عدو. وكان من أبعاد هذه الفتنة الشائعة أن الله لا يبعث ملكاً إلى الناس وإنما يبعث بشراً، وهذا البشر سوف يدخل في صراعات أليمة ومستمرة مع الآخرين. ثم إن الفتنة هي سنة الله في خلقه ومنذ

(١) سورة البقرة، آية: ٣٦.

أن خلق الله الإنسان، وحمَّله الأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرضون والجبال بينما حملها الإنسان؛ منذ ذلك الحين قُرنت الفتنة به، كما قال ربنا تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[1].

وهكذا كان الابتلاء ملازماً للإنسان منذ خلقته؛ لأن الله خلق الإنسان من نطفة أمشاج، يعني فيه جانب خير وجانب شر. كما قال تعالى في آية كريمة: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[2].

فإنَّا شئنا أم أبينا وما دمنا في هذه الدنيا نُبتلى.

فهنا قاعة امتحان، ولذلك علينا أن نُهيِّئ أنفسنا لمواجهة الفتنة. ومن الفتن الأساسية للإنسان فتنة الإنسان بالآخر. الأب يُبتلى بابنه، والابن يُبتلى بأبيه، وهما يُبتليان بالزوجة والأم، كذلك الغني يُبتلى بالفقير والحاكم بالرعية والعكس كذلك، والناس يُبتلى بعضهم ببعض حتى الجار يُبتلى بجاره. وهذا الابتلاء سنة تقع سائر الأحكام الشرعية في إطارها؛ يعني ليست هناك في الحقيقة شريعة من أحكام الدين إلَّا والفتنة جوهرها، وابتعاث الأنبياء من صلب هذه الفتنة. كذلك في مجال الأنبياء حيث بعث الله الأنبياء بشراً ورسلاً. ولو أن الله تعالى بعث ملكاً إلى الأرض رسولاً وكانت معه جيوش من الملائكة وحراب وأسلحة فوق قدرة البشر

(١) سورة الإنسان، آية: ١-٢.

(٢) سورة البلد، آية: ١٠-١٧.

وأموال هائلة.. فإذن لم تكن هناك فتنة للناس؛ لأن الناس كانوا يُصبحون مؤمنين. لكن هل كان إيمانهم حقًّا أم مجرد لقلقة لسان؟. نجد أن الذي يُظهر الإيمان تحت ضغط الترهيب والترغيب عادةً لا ينفذ نور اليقين إلى فؤاده، كيف ونحن نجد في ظروف الفتنة أُناساً يُظهرون الإيمان ويُضمرون الكفر؟.

» إن الابتلاء ملازمًا للإنسان منذ خلقته؛ لأن الله خلق الإنسان من نطفة أمشاج، يعني فيه جانب خير وجانب شر.

ثم ربنا تعالى يضيف قائلاً:

٢- ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

فما معنى ذلك؟.

لعل المعنى أن الذي ينجح في الفتنة هو الصابر؛ ذلك لأن الهدف من خلق الإنسان الفتنة.

فما هو الهدف من الفتنة؟.

أنه الصبر؛ لأنه الكمال الذي يبلغ الإنسان ذروته عبر الفتنة. ولكن هنا نتساءل ما هي صلة الصبر بالابتلاء؟.

الجواب على ذلك: إن الصبر على أقسام؛ فالصبر عن الشهوات، والصبر على المصائب، والصبر على الطاعات.. كل هذه الأنواع من الصبر هي في الحقيقة رهين فتنة الإنسان، فقد يُفتَتَن بشهوة عابرة وعاجلة جامحة وعليه أن يصبر.

والصبر هنا في الحقيقة علاج فتنة الشهوة، فهو يصبر عن الشهوة. كذلك حينما يُؤمر الإنسان بالطاعة لابد أن يصبر على صعوباتها، وحين يُؤمر الإنسان ألَّا يتجاوز الحق، يكون في عنفوان

الصبر. لماذا؟.

لأن الإنسان إذا أراد أن يعيش على الحق قد يُبتلى بعدوٍّ قاهر يُحاول أن يَحِيْدَ به عن طريق الحق، فهنا يحتاج الإنسان أن يصبر، يصبر وفي العين قذى وفي الحلق شجى، يصبر كما صبر ألو العزم من الرسل، كما صبر المؤمنون الذين دخلوا في امتحانات صعبة من قِبَل الكفار مثل أصحاب الأخدود، ومثل أصحاب الرسل والأئمة وهكذا.

إذا ابتُلي الإنسان بامتحان عليه أن يتَّبع رسولاً، وهنا أيضاً يحتاج إلى الصبر، لأن الشيطان يُغيِّره ويقول له: هذا الرسول هو بشر مثلك؛ كيف أنت تطيعه. وربنا يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾[1].

الطاعة صعبة، فقسم من الناس يتولون عن الرسول بسبب أنه يأمرهم بالطاعة، ولكن كِبر الإنسان وغروره، يمنعانه عن قبول رسالة النبي. ولكي يتجاوز الإنسان الكبر والغرور ثم يخضع للنبي ويسلم لأوامره، فهو بحاجة إلى الصبر. هذا قمة درجات الصبر.

» الصبر في الحقيقة علاج فتنة الشهوة، فهو يصبر عن الشهوة. كذلك حينما يُؤمر الإنسان بالطاعة لابد أن يصبر على صعوباتها.

لذلك ربنا هنا عقَّب على بيان بصيرة أن الدنيا دار امتحان بعض الناس ببعض، عقَّب عليها بقوله: ﴿أَتَصۡبِرُونَ ﴾.

يعني إنما نمتحنكم لنعرف مدى صبركم. ولذلك جاء في الحديث الشريف عن رسول الله

(١) سورة النساء، آية: ٦٤.

ﷺ أنـه قـال: «الصَّبْرُ مِنَ الْإِيـمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَـدِ»[1]. وأنـه أبرز دعائم الإيـمان؛ لأن خلاصة الصبر أن الإنسـان يتحمَّل أذىً عاجـلاً لهدف آجل، يتحمَّل الدنيا ومصائبها للآخرة، يتحمَّل مشـاكل الحرب لكي يصـل إلى النصر، ويتحمَّـل أذى الناس لكي يحصـل عـلى رضاهـم أو لا أقل لكـي يتجنب عداءهـم، وهكذا.. ﴿أَتَصۡبِرُونَ﴾.

لكـن مشـكلة الإنسـان هنا أيضاً مشـكلة أخـرى، وهي أنه حينما يصبر لا يعرف هل أحد يُقدِّر مدى صبره، مدى الأذى الذي تحمَّله، مدى الصعوبة التي تجاوزها.

ربنا يُذكِّرنا هنا بأنه إن لم يكن هناك أحد يحترم صبرك ويُقدِّر اسـتقامتك، فـإن الله هو الذي يفعل ذلك، وهـو بصير بك؛ فليكن صبرك لله، وليكن جزاؤك على هذا الصبر عند الله الذي يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[2]. ويقول: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[3].

حينـما تعـرف الله، وتعـرف أنـه مُهيمن عليـك، وتعرف أنه يُجازيك خير الجزاء بالصبر، فاصبر.

ومـن هنا كان مـن أهم صفـات المؤمنين التـواصي بالصبر، فأحدهـم يصبِّر الآخر؛ لأن هـذا الصبر هو جوهـر الإيمان ورأس الإيـمان، وهو هـدف الفتنـة، يعني أن يصل الإنسـان إلى مسـتوى الصـبر. ربما أنـا وأنت نفشـل في مرحلة من مراحـل الفتن، ولكن

---

(١) الأصول من الكافي: ج٢، ص٨٩.
(٢) سورة الزمر، آية: ١٠
(٣) سورة النحل، آية: ١٢٧.

نعود ونتوب إلى الله تعالى ونتمرَّن ونتدرَّب لكيلا نفشل مرة أخرى. لا بأس فإن الحياة هي سلسلة من التجارب الفاشلة والناجحة، والتجربة الفاشلة قد تكون مقدمة للوصول إلى التجربة الناجحة. نسأل الله تعالى أن يرزقنا الصبر والبصيرة.

» بصائر وأحكام

١- لماذا ابتعث الله بشراً رسولاً؟.

أولاً: لأن الأنبياء كلهم كانوا من البشر.

ثانياً: أن حكمة الحياة تتمثل في الابتلاء، ومن أبعاده فتنة الناس بعضهم ببعض، ومن أجلاها فتنة الرسل.

٢- لكي يسمو البشر إلى مستوى تحقيق هدف الحياة، عليه أن يتحلَّى بالصبر، ومعرفة الله أنه محيط علماً بالإنسان يُعينه على الصبر.

» استكبروا في أنفسهم

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

» *من الحديث*

* قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «.. **فَمَنِ اسْتَكْبَرَ أَدْبَرَ عَنِ الحَقِّ**»[1].

* وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «.. **وَالاسْتِكْبَارُ هُوَ أَوَّلُ مَعْصِيَةٍ عُصِيَ اللهُ بِهَا**»[2].

***

تفصيل القول

في سورة الفرقان المباركة نقرأ عن ردّ الشبهات التي طرحها الكفار الذين لا يريدون الإيمان بالقرآن المجيد. وفي الحقيقة، إنّ كتاب

(١) الأصول من الكافي: ج٢، ص٣٩٣.
(٢) بحار الأنوار: ج١١، ص١٤١.

الله يقتلع جذور الشبهات من قلب الإنسان التي قد تطرح فيه من قِبَل شياطين الإنس والجن، بل إن كتاب الله ليستبق الأمر، فيُحصِّن قارئه من الشبهات قبل أن تهجم عليه.

ومن شبهات الكافرين المكذبين؛ أنهم قالوا:

١ - ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

قالوا ذلك لأنهم لا يرجون لقاء الله، وأنكروا حدوث يوم الساعة.. فقالوا: إذا كانت الرسالة صحيحة، فَلِم قد خُصَّ بها رجال، ولم تعمَّ الناس جميعاً؟.

ولكنهم جهلوا أو تجاهلوا أن الحقيقة هي الحقيقة، سواء سمعتها أو قرأتها أو رأيتها.. أما الذي يُغلق قلبه أو يضعه في الأكنة؛ فهو لا يرجو العثور على الحق رغم وضوحه؛ لأنه -ببساطة- لا يبحث عنه.

» إن الحقيقة هي الحقيقة، سواء سمعتها أو قرأتها أو رأيتها.. أما الذي يُغلق قلبه أو يضعه في الأكنة؛ فهو لا يرجو العثور على الحق رغم وضوحه.

ولكن لماذا علَّق الكافرون هؤلاء شرط إيمانهم على أن تنزل عليهم الملائكة؟. فهل أنهم يؤمنون بربّ الملائكة أصلاً، حتى يجعلوا من الملائكة دليلاً عليه؟.

كلَّا؛ لأنهم ما لبثوا أن قالوا:

٢ - ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

وهل عرفوا الفرق بين الرَّبّ والمربوب، والخالق والمخلوق، حتى يقترحوا رؤيتهم لهذا الرَّبّ شرطاً لإيمانهم به؟.

إن الجهل والغرور قد أعميا بصائرهم.

٣ - ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

لقد توغلوا في الغي وتمادوا في الشبهة حينما قالوا ذلك. إذ الرسول نفسه لم ولن يطلب من ربِّه أن يراه. وأي إيمان بالله هذا الذي سيتمخض عن رؤيته؟. أَوَلَيس كافياً للاعتراف به أن المخلوق يعجز عن معرفه كُنْه ذاته؟. أَوَلَيس كافياً للمخلوق أن يرى آثار خالقه فيؤمن به؟. أَوَلَيس كافياً للاعتراف بمخلوقية الأشياء على أن لها خالقاً ينبغي أن يُقَرَّ له بالربوبية والعبودية؟.

وها هم قد استكبروا في أنفسهم وتجاوزوا حتى المقام النبوي، فأرادوا أن تتنزل عليهم الملائكة بالوحي مباشرة. أي أنهم بتكبرهم رفضوا إرادة الله عزَّ وجلَّ في أن يجعل بينه وبينهم واسطة؛ هو النبي والرسول. بل وراحوا أبعد من ذلك، حين طلبوا أن يروا الله جهرةً.

إن هذا لهو الانحراف الكبير الناتج عن أقبح أشكال التكبّر، وهو العتو.

ولكن الله تعالى يترك عبده في حقبة الامتحان، ليثبت لنفسه جدارته في دخول الجنة أو النار، لئلا تكون الحجة له على ربه. وحين تنتهي تلك الحقبة، سيرى الملائكة حقًّا، وسيرى أمر ربِّه ماثلاً أمامه. فإما أن تواجهه الملائكة الغلاظ الشداد، فيسوقونه إلى الجحيم. أو تبشره ملائكة الرحمة والرضوان، فيزفونه إلى الجنان.

» بصائر وأحكام

من الملاحظ أن كتاب الله المجيد ينتزع جذور الشبهات من قلب الإنسان التي قد تطرح فيه من قِبَل شياطين الإنس والجن، بل وإن كتاب الله ليستبق الأمر فيحصن قارئه من الشبهات قبل أن تهجم بها عليه.

» لا بشرى يومئذ للمجرمين

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

» من الحديث

* عَنْ جَابِرِ الْجُعْفِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ قَبْضَ الْكَافِرِ؛ قَالَ: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ انْطَلِقْ أَنْتَ وَأَعْوَانُكَ إِلَى عَدُوِّي، فَإِنِّي قَدْ أَبْلَيْتُهُ فَأَحْسَنْتُ الْبَلَاءَ وَدَعَوْتُهُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَشْتِمَنِي وَكَفَرَ بِي وَبِنِعْمَتِي، وَشَتَمَنِي عَلَى عَرْشِي، فَاقْبِضْ رُوحَهُ حَتَّى تَكُبَّهُ فِي النَّارِ.

قَالَ: فَيَجِيئُهُ مَلَكُ الْمَوْتِ بِوَجْهٍ كَرِيهٍ كَالِحٍ، عَيْنَاهُ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ وَصَوْتُهُ كَالرَّعْدِ الْقَاصِفِ، لَوْنُهُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، نَفَسُهُ كَلَهَبِ النَّارِ، رَأْسُهُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَرِجْلٌ فِي الْمَشْرِقِ وَرِجْلٌ فِي الْمَغْرِبِ، وَقَدَمَاهُ فِي الْهَوَاءِ مَعَهُ سَفُّودٌ[1] كَثِيرُ الشُّعَبِ، مَعَهُ خَمْسُمِائَةِ مَلَكٍ أَعْوَاناً مَعَهُمْ سِيَاطٌ مِنْ قَلْبِ جَهَنَّمَ، تَلْتَهِبُ تِلْكَ السِّيَاطُ وَهِيَ مِنْ لَهَبِ جَهَنَّمَ، وَمَعَهُمْ مِسْحٌ أَسْوَدُ، وَجَمْرَةٌ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ. ثُمَّ يَدْخُلُ عَلَيْهِ مَلَكٌ مِنْ خُزَّانِ جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: سَحْقَطَائِيلُ، فَيَسْقِيهِ شَرْبَةً مِنَ

(١) السفود، بفتح وتشديد الفاء: حديدة يُشوى بها اللحم.

النَّارِ لَا يَزَالُ مِنْهَا عَطْشَاناً حَتَّى يَدْخُلَ النَّارَ. فَإِذَا نَظَرَ إِلَى مَلَكِ المَوْتِ، شَخَصَ بَصَرُهُ وَطَارَ عَقْلُهُ، قَالَ: يَا مَلَكَ المَوْتِ؛ أَرْجِعُونِي.

قَالَ: فَيَقُولُ مَلَكُ المَوْتِ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا.

قَالَ: فَيَقُولُ يَـا مَلَكَ المَوْتِ؛ فَإِلَى مَنْ أَدَعُ مَالِي وَأَهْلِي وَوُلْدِي وَعَشِيرَتِي وَمَا كُنْتُ فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا؟.

فَيَقُولُ: دَعْهُمْ لِغَيْرِكَ وَاخْرُجْ إِلَى النَّارِ»[1].

***

تفصيل القول

١ - ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾.

حينـما تنتهـي فرصة الإنسـان في الحياة الدنيـا، وتبدأ مرحلة الانتقـال إلى دار الآخـرة، حيث لحظات الاحتضـار، ثم الموت، ثم عـالم البرزخ؛ يـرى الكافر المُكـذِّب بالحقائق والآيـات ملائكة الله التي كان يطلبها مجادلاً معانداً لسفراء ربِّه إليه. وكذلك هو سيراها رأي العين عند البعث والحشر والحساب في يوم القيامة.

إلَّا أن هذه الملائكة ستواجههم بشعار رهيب يطمس به على وجوههم، إذ أين ما يُولُّونها سيجدون الملائكة تزعق بهم قائلةً:

٢ - ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾.

إذ البشرى نور، والإجرام ظلام، وهل يجتمع النور إلى الظلام؟. والبشرى راحة، بينما الإجرام عذاب، وأين الراحة وأين العذاب؟.

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٣١٧.

فالكفر والتكذيب بآيات الله تعالى وحقائقه؛ جريمة يرتكبها الكافر المُكذِّب بحق نفسه. وجزاء هذه الجريمة عذاب أليم أبدي في نار جهنم.

٣- ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

إنما الكلمة التي يُكرِّرها المجرمون عند رؤية ملائكة العذاب، هي أنهم يطلبون الابتعاد عن هؤلاء الملائكة، وأن يمنعوا عنهم منعاً باتاً، رغم أنهم هم الذين طالما أرادوا أن يروا الملائكة في الدنيا أو تتنزل عليهم.

والحق يقال؛ لو أن ابن آدم فتح قلبه على هذه الآيات الكريمة وتبصَّر في حقائقها، لاهتزت لها نفسه ولارتدع بها ضميره، ولتوصَّل إلى قناعة أكيدة بأن الشبهات التي تُسوِّلها له نفسه ويوسوس الشيطان له بطرحها، لن تنفعه -مهما كرَّرها- يوم القيامة، بل إنها ستكون وبالاً عليه؛ لأنه إذ ذاك سيتهالك بحثاً عن طريقة خلاص من الملائكة المأمورين بإنزال العذاب به.

» بصائر وأحكام

١- الكفر والتكذيب بآيات الله تعالى وحقائقه، جريمة يرتكبها الكافر المُكذِّب بحق نفسه، وجزاء هذه الجريمة عذاب أليم أبدي في نار جهنم.

٢- حينما تنتهي فرصة الامتحان يرى المجرم الملائكة ولكن بعد فوات الأوان حيث يطلب الخلاص منهم، وهيهات.

» عمل الكفار هباء منثور

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

» من الحديث

عن الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الدَّيْلَمِيُّ فِي إِرْشَادِ الْقُلُوبِ، عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمانِ رَفَعَهُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ: **«أَنَّ قَوْماً يَجِيئُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ أَمْثَالُ الْجِبَالِ فَيَجْعَلُهَا اللهُ هَبَاءً مَنْثُوراً، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ»**.

فَقَالَ سَلْمَانُ: صِفْهُمْ لَنَا يَا رَسُولَ الله.

فَقَالَ: **«أَمَا إِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ، وَيَأْخُذُونَ أُهْبَةً مِنَ اللَّيْلِ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا عُرِضَ لَهُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَرَامِ وَثَبُوا عَلَيْهِ»**[1].

***

(١) مستدرك الوسائل، ج ١٣، ص ٦٤.

تفصيل القول

لنا أن نتساءل عن الأسباب التي يقدم الله تعالى بسببها إلى ما عمل بعض الناس من الأعمال فيجعلها هباءً منثوراً، أَوَلَيس ربنا هو العدل الذي لا يجور، علماً بأن هذه الأعمال الصائرة إلى حالة الهباء المنثور قد تكون صالحة في الظاهر. نظراً إلى أن مصير العمل الباطل معلوم، ولكونه عملاً زهوقاً منذ الشروع في ارتكابه، بل ومنذ انعقاد النية عليه.

فهذا المصير البائس موجَّه إلى العمل الصالح، رغم أن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[1]. وقال في آية كريمة أخرى: ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[2].

إذن؛ كيف يتحوَّل العمل الخيِّر بذراته جميعاً، وكيف ما كان ينبغي أن يكون سعياً مشكوراً، يتحوَّل إلى هباءٍ منثور؟.

» الإنسان قد يختار عملا صالحا، كالعمل الخاص بمعرفة الله أو عبادته، ولكنه يتجاهل الطريق الذي اختطه ربُّه له للسير ضمنه، وبلوغ الغاية المنشودة، فلن يبلغ تلك الغاية لأنه أتى بعمل ظاهره الصلاح.

الجواب على ذلك يحتاج إلى معرفة حقيقة مهمة، وهي أن الله عزَّ وجلَّ هو محور الحقائق؛ إذ لا شيء قائم بذاته، وإنما كل شيء قائم في جميع مراحله بإذن الله، وهو الخالق للسماوات والأرض، وهو المهيمن المُقدِّر المُدبِّر لكل شيء، ولولا الله وإرادته ما كان فاعلٌ وما كان فِعْلٌ وما كان مفعول.

والعمل الصالح المقصود في الآية الكريمة ليس

(١) سورة الزلزلة، آية ٧.
(٢) سورة الإسراء، آية ١٩.

استثناءً عن هذه القاعدة الربانية المتعالية، فهو إنما يكون صالحاً إذا وقعت عليه إرادة الرَّبّ العزيز. ومن هذه الإرادة الربانية العزيزة ما أوضحه قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾[1]. أي: إن كتاب الأعمال الصالحة يبقى كتاباً ناقصاً -بل هو لا يُعَدُّ شيئاً- ما لم يُتبع بإمضاء المقربين ويكون محط رضاهم. فالقيمة الحقيقية لأي عملٍ يُراد منه أن يكون عملاً صالحاً، هي قيمة التوقيع والشهادة من المقربين لصالحه؛ وذلك لأن الله تعالى لا يُعبد من حيث يُعصى.

وكما أن الله تعالى واحد أحد في وجوده، كذلك هو واحد في تشريعه، ولا يرضى أن يشاركه أحد في تشريعه. ومن تجاوز على وحدانية الله تعالى في تشريعه وكونه المصدر الوحيد لإصدار الأحكام والعقائد الحقة، فإنه في الواقع مُعاند لإرادة الله ووحدانيته مهما ألبس أعماله لبوس الصلاح؛ لأن عمله هذا باطل من أصله، وهو محكوم سلفاً بأن يكون هباءً منثوراً.

وواضح من صيغة الفعل الماضية في مفردة: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾ أن القاعدة، قاعدة تحوُّل العمل الصالح إلى هباءٍ منثور؛ قاعدة أصيلة قد حذّر الله تعالى الإنسان منها في الوقت نفسه الذي أنزل إليه الحكم والتشريع، فهو تعالى قد رحمه وتفضل عليه إذ أوضح له هذه القاعدة الأصيلة.

فالإنسان قد يختار عملاً صالحاً، كالعمل الخاص بمعرفة الله أو عبادته من صلاة وصيام وجهاد، ولكنه يتجاهل الطريق الذي اختطَّه ربُّه له للسير ضمنه، وبلوغ الغاية المنشودة، فلن يبلغ تلك

(١) سورة المطففين، آية: ١٨-٢١.

الغاية المنشودة، وهي رضوان الله عليه ونيل منزلة القرب منه؛ لأنه أتى بعمل ظاهره الصلاح، من غير الطريق الذي أمر الله به. فباطن عمله تحدي إرادة الله والتمرُّد على ربِّه والعياذ بالله.

إن الله تعالى كما أمر بتقواه، أمر أيضاً بابتغاء الوسيلة إليه. وكذلك هو عزَّ وجلَّ حدَّد وبيَّن نماذج ومصاديق هذه الوسيلة، وجعل أرقاها وأسماها ومنتهاها معرفة النبي والتسليم له. وهذا هو الإسلام الحق الأصيل: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[1].

ولهذا اشترط ربُّنا الإيمان عند العمل الصالح، وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾[2].

فالسعي المبني أساساً على قواعد إيمانية محدّدة من قبل الله تعالى، بحيث يصدق عليه سعيٌ حقيقيٌّ هادفٌ، بالإضافة إلى إحراز شرط الإيمان، هو سعي مشكور يُثاب عليه. وغير ذلك، لن يكون سعياً مشكوراً، ولن يُثاب عليه أبداً.

وهذا الإيمان قد عبَّر عنه في آية أخرى بالتقوى، حيث قال ربُّنا سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3]، ومفهوم هذا هو أن الله لا يتقبَّل الله من غير المتقين.

وهكذا يكون المتقون هم الذين يتَّبعون نهج النبي ووصاياه في أهل بيته، ويأخذون منهم معالم دينهم.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٨٥.
(٢) سورة الإسراء، آية: ١٩.
(٣) سورة المائدة، آية: ٢٧.

وفي هـذا الإطار نسـتطيع أن نُفـسِّر أحاديث النبي ﷺ في اشـتراط الولاية له وللأئمة من أهل بيته عليهم السلام. حيث قال ﷺ: «**أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ؛ وَعَلِيٌّ بَابُهَا وَهَلْ تُدْخَلُ الْمَدِينَةُ إِلَّا مِنْ بَابِهَا**»[1].

وقولـه ﷺ: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُـمُ الثَّقَلَيْنِ: كِتَـابَ الله وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي**»[2].

لأن نواياهـم لأعمالهم الصالحة لا تلحقها مفاسـد؛ ولذلك هم خارجون عن نطاق دائرة حبط الأعمال إن شاء الله تعالى.

» بصائر وأحكام

كـما أن الله تعـالى واحـد في وجـوده، كذلـك هـو واحـد في تشريعـه، ولا يـرضى أن يُشـاركه أحد في تشريعه، ومـن تجاوز على وحدانيـة الله تعـالى في تشريعـه، فإنـه في الواقـع مُعانـد لإرادة الله ووحدانيته مهما ألبـس أعماله لبوس الصلاح؛ لأن عمله هذا باطل من أصله، وهو محكوم سلفاً بأن يكون هباءً منثوراً.

(١) بحار الأنوار: ج١٠، ص١١٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٢، ص٢٢٥.

» الجنة خير مستقر

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

» من الحديث

عَنْ سُوَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «إِنَّ ابْنَ آدَمَ إِذَا كَانَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنَ الدُّنْيَا وَأَوَّلِ يَوْمٍ مِنَ الْآخِرَةِ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَلْتَفِتُ إِلَى مَالِهِ فَيَقُولُ: وَاللهِ إِنِّي كُنْتُ عَلَيْكَ لَحَرِيصاً شَحِيحاً؛ فَمَا لِي عِنْدَكَ؟.

فَيَقُولُ: خُذْ مِنِّي كَفَنَكَ.

ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَى وَلَدِهِ فَيَقُولُ: وَاللهِ إِنِّي كُنْتُ لَكُمْ لَمُحِبًّا، وَإِنِّي كُنْتُ عَلَيْكُمْ لَمُحَامِياً؛ فَمَاذَا لِي عِنْدَكُمْ؟. فَيَقُولُونَ: نُؤَدِّيكَ إِلَى حُفْرَتِكَ وَنُوَارِيكَ فِيهَا.

ثُمَّ يَلْتَفِتُ إِلَى عَمَلِهِ فَيَقُولُ: وَاللهِ إِنِّي كُنْتُ فِيكَ لَزَاهِداً، وَإِنَّكَ كُنْتَ عَلَيَّ لَثَقِيلاً؛ فَمَاذَا عِنْدَكَ؟.

فَيَقُولُ: أَنَا قَرِينُكَ فِي قَبْرِكَ وَيَوْمِ حَشْرِكَ حَتَّى أُعْرَضَ أَنَا

وَأَنْتَ عَلَى رَبِّكَ، فَإِنْ كَانَ للهِ وَلِيًّا أَتَاهُ أَطْيَبَ النَّاسِ رِيحاً وَأَحْسَنَهُمْ مَنْظَراً وَأَزْيَنَهُمْ رِيَاشاً. فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِرَوْحٍ مِنَ اللهِ وَرَيْحَانٍ وَجَنَّةِ نَعِيمٍ، قَدْ قَدِمْتَ خَيْرَ مَقْدَمٍ. فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟.

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، ارْتَحِلْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّهُ لَيَعْرِفُ غَاسِلَهُ، وَيُنَاشِدُ حَامِلَهُ أَنْ يُعَجِّلَهُ.

فَإِذَا أُدْخِلَ قَبْرَهُ أَتَاهُ مَلَكَانِ وَهُمَا فَتَّانَا الْقَبْرِ يَجُرَّانِ أَشْعَارَهُمَا، وَيَبْحَثَانِ الْأَرْضَ بِأَنْيَابِهِمَا، وَأَصْوَاتُهُمَا كَالرَّعْدِ الْقَاصِفِ وَأَبْصَارُهُمَا كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ، وَمَنْ نَبِيُّكَ، وَمَا دِينُكَ؟.

فَيَقُولُ: اللهُ رَبِّي، وَمُحَمَّدٌ نَبِيِّي، وَالْإِسْلَامُ دِينِي. فَيَقُولَانِ: ثَبَّتَكَ اللهُ فِيمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى. وَهُوَ قَوْلُ اللهِ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾. فَيَفْسَحَانِ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيَفْتَحَانِ لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ، وَيَقُولَانِ لَهُ: نَمْ قَرِيرَ الْعَيْنِ، نَوْمَ الشَّابِّ النَّاعِمِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾»(١).

***

تفصيل القول

عقل الإنسان ووجدانه يدعوانه إلى الخير، كما يدعوه الموكّلون به من الملائكة، فيما الهوى والشيطان يدعوانه إلى الشر، بعد أن يخلطا عليه الحقائق ويلبسا عليه الحق بالباطل.

وحينما يحدثنا ربنا المتعال عن الجنة -كغاية للفوز في الصراع

(١) بحار الأنوار: ج٦، ص٢٢٤.

بين نِداءَي الحق والباطل في ذات الإنسان- يحدِّثنا بما لا يبلغه حتى الخيال.. وكذلك حديثه سبحانه وتعالى عن النار.

وما ذاك إلَّا لأننا -نحن بني آدم- مُبتلَون بمسألة الخلط بين الحق والباطل. هذا الخلط، باعتباره جزءاً أساسيًّا من الامتحان الذي كُتب علينا في حياتنا الدنيا. فنحن إنما وُضِعنا في ساحة مُغبّرة، وكُلِّفنا بتبصُّر العلامات الفارقة في تشعبات تلكم الساحة المغبّرة.. و(الفرقان) الكريم خير مُعين لنا في إنجازنا هذه المهمة المُستعصية.

وقد ورد الحديث عن الجنة في هذه الآيات تالياً للحديث عن النار؛ لأن الحديث عن النار أسرع وأشد تحريكاً للوجدان الإنساني وعصفاً بضميره.

ولكن يبقى وصف الاستقرار وحسن المقيل بالنسبة لأصحاب الجنة في يومهم الذي يدخلون إليها، ذا معنيين:

الأول: إن ابن آدم يبحث عن الاستقرار والأمن والخلود، وهذا ما لا يجده في غير الجنة؛ إذ الموت مارد فاغر فاه فوق رأسه في الحياة الدنيا، ولا يمكن النجاة منه أبداً.

الثاني: إنّ الاستقرار لا يكون استقراراً مشوباً باضطراب. والأحسن مقيلاً هو الفائق على كل حسن.

فأصحاب الجنة يتلبسون بهذا العنوان -مصاحبة الجنة- منذ مفارقتهم الحياة الدنيا، حين تطبق جفوفهم بعد خروج أرواحهم من أبدانهم وحملهم إلى قبورهم وجلوسهم إلى حياة القبور في البرزخ، وحتى يقفوا بين يدي الرحمن الرحيم ليحاسبهم ويناولهم كتبهم بأيمانهم ويُؤمر بهم إلى جنان خلده.

بل إن الاستقرار الذي ينعم به أصحاب الجنة، إنما ينعمون به ولّما يموتوا؛ ذلك أن المؤمن يُبشَّر بالجنة في مواقع من حياته، وعادةً ما تكون قريبة من مماته، كمنامٍ أو مكاشفة. وهذه نفحة إلهية تهبّ على ذات المؤمن ليزداد هدًى وقدرة على التمييز بين الحق والباطل، واختيار الحق على الباطل، في الذهن والعاطفة والسلوك والانتماء.

» بصائر وأحكام

١- عقل الإنسان ووجدانه يدعوانه إلى الخير، فيما الهوى والشيطان يدعوانه إلى الشر، بعد أن يخلطا عليه الحقائق ويلبسا عليه الحق بالباطل.

٢- إن ابن آدم يبحث عن الاستقرار والأمن والخلود، وهذا ما لا يجده في غير الجنة.

» صورة من عالم الآخرة

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

يعيش الإنسان عادةً في محيط ضيِّق، تُحيط به الوساوس الشيطانية والهموم الصغيرة والمشاكل الآنية؛ ولذلك يُصاب بضيق الأفق في الآمال والمطامح. وهكذا تراه يحرم نفسه من الانطلاق في رحاب الحقائق الكبرى، ولا يعود قادراً على تقييم واقعه تقييماً صحيحاً. والسبب في ذلك؛ أن قدرة المرء على اتِّخاذ القرار الصائب وعلى التقييم السليم تعود إلى طبيعة فهمه ومقدار معلوماته وطبيعة بيئته التي ينطلق منها.

ومن شأن القرآن الكريم -كما هو شأن التربية السليمة- أنه يُخرج الإنسان من زنزانة الأفق الضيِّق ومُعتقل توافه الهموم.

إن القرآن المجيد، وعبر هذه الآية المباركة -نموذجاً-؛ يوجِّه الدعوة الصريحة للإنسان لكي يستخدم مُخيَّلته، هذه الموهبة الإلهية العظيمة؛ لكي يستحضر الحقائق في نفسه ويتصوَّر يوم القيامة

وأشراطها. ذلك اليوم الذي ينبغي أن تكون السلامة من أهواله الهمّ الأكبر لكل إنسان. إذ مجرد التفكير في يوم القيامة كفيل بأن يُساهم في إخراج فكر الإنسان من سجن الدنيا وهمومها الصغيرة إلى حقائق الغيب المنتظرة. فإذا تمَّ له ذلك، أضحى في منأىً عن الانغماس في مراتع الدنيا، وأخذ طريقه الصحيح نحو تحقيق الهدف من خِلقته.

فإذا لم يكن الإنسان قد خُلِقَ ليخلد في الدنيا، فما الداعي لأن ينكبَّ عليها ويجعلها أكبر همّه، والعياذ بالله؟. وإذا كان قد خُلِقَ ليبقى في الآخرة، فلماذا الانشغال عنها أو نسيانها؟.

» إن قدرة المرء على اتِّخاذ القرار الصائب وعلى التقييم السليم تعود إلى طبيعة فهمه ومقدار معلوماته وطبيعة بيئته التي ينطلق منها.

وهكذا نجد القرآن الكريم يعرض عبر كلمات صاعقة أحد مشاهد القيامة الكبرى.

١ - ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾.

في ساعة محددة من الزمن -الله أعلم متى هي- تتشقق فيها السماء، كل السماء، لتنقشع لإرادة الله بأحداث يوم الجزاء. فإذا اختزل الإنسان هذا المنظر الرهيب في خاطره استطاع -بدرجة ما- أن يتصور نفسه في خضم ذلك الحدث العظيم؛ فأصلح من نفسه ما فسد، أَوَلَيس مُعرَّضاً في كل آن أن يعيش ذلك الحدث حقًّا؟.

يوم تشقق السماء بالغمام؛ أي بالدخان دون الغيوم الماطرة.

٢ - ﴿ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾.

المفعول هنا مفعول مطلق، جاء من جنس الفعل الماضي المشدّد الدال على التأكيد. فهو إذن تأكيد في تأكيد، إشارة إلى حتمية

وقوع ذلك الحدث، وتأكيداً لعظمة هذا الحدث.

فانتهاء عالم الدنيا، والبدء بانتقال الإنسان إلى عالم جديد، هو عالم يوم القيامة، لا يعني بالضرورة حصول نوع من الارتباك في الخليقة أو حصول العطب في خلق الله سبحانه وتعالى؛ لأن ربنا هو المهيمن على كل شيء. فلا فساد يعم، ولا فوضى تنتشر، وإنما هي الإرادة الإلهية القاهرة تستمر في هيمنتها المطلقة. ودليل ذلك، تنزيل الملائكة وكل منهم موكل بأداء مهمة ما. حتى أن البعث من القبور يكون ضمن حسابات دقيقة، بل في أقصى درجات الدقة؛ إذ طريق الصالحين لبلوغ مواقعهم في ساحة الحشر الأكبر يتمايز كليًّا ومنذ البداية عن طريق الفاسدين الظالمين.

بلى؛ إن حدوث يوم القيامة يختلف عن حدوث السيل؛ إذ السيل يأخذ البر والفاجر، ولكن حسابات يوم القيامة تتفاوت في الكل، كما تتفاوت في التفاصيل.

وتنزيل الملائكة بأصنافهم وأنواع مهامهم لا يتم لمرة واحدة فحسب، وإنما التنزيل يبقى ويدوم لفترة يعلمها الله تعالى، كلٌّ بأمرٍ معين، تمهيداً لإماطة الستار عن مسرح يوم القيامة، وكنوع من فرض الهيبة، وإعداداً لعقول البشر ونفوسهم لتحمل مناظره الرهيبة، إذ الملك لله وحده لا شريك له.

» بصائر وأحكام

١- على الإنسان أن يستفيد من قوة مخيلته ليستحضر بعض مشاهد الآخرة؛ إذ إن مجرد التفكير بيوم القيامة كفيل بأن يُساهم في إخراج فكر الإنسان من سجن الدنيا وهمومها الصغيرة، فإذا تم له

ذلك أضحى في منأىً عن الانغماس في مراتع الدنيا.

٢- انتهاء عالم الدنيا والبدء بانتقال الإنسان إلى عالم جديد، لا يعني الفوضى. كلا؛ وإنما الإرادة الإلهية القاهرة هي المدبِّرة لنا جملةً وتفصيلاً.

٣- على المؤمن إذا ضاقت به الأرض بهمومها أن يتذكر الآخرة، فإذا به يتعالى على هموم الدنيا ويتعافى من مشاكلها.

» الملك الحق للرحمن

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

» *من الحديث*

روى عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَسْبَاطٍ عَنْهُمْ عليهم السلام قَالَ: فِيمَا وَعَظَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ عِيسَى عليه السلام: «**يَا عِيسَى إِنَّ الْمُلْكَ لِي وَبِيَدِي وَأَنَا الْمَلِكُ، فَإِنْ تُطِعْنِي أَدْخَلْتُكَ جَنَّتِي فِي جِوَارِ الصَّالِحِينَ**»(١).

***

تفصيل القول

بعد أن تشقق السماء بالغمام، وبعد أن تنزل الملائكة تنزيلاً، يظهر للعيان أن الملك في يوم القيامة، خالص للرحمن. وأما الناس فإن القدرة التي خُوِّلَت إليهم في الدنيا تُستلب منهم، سواءً منهم من أحسن التصرف أو من أساء. ولعل كلمة: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ هنا تدل على هذه الحقيقة.

(١) روضة الكافي: ج٨، ص١٣٨.

ولكـن الغرابـة في تعبير القـرآن تظهر حيث يمـد الله تبارك وتعـالى إلى عبـاده حبلاً من الرجـاء، حيث نرى التعبـير عن الرب باسـم الرحمـن دون أسـمائه التي تدل عـلى جبروتـه وانتقامه، لكي نعـرف أن ثمة نافذة واسـعة مـن الأمل لم تزل مفتوحـة أمام البشر رغم فداحة الخطب في يوم القيامة، إذ الملجأ إلى الله الرحمن.

أمـا الكافر بهذا الملـك الرحمن؛ فلا نصيب لـه، حيث يكون عليـه يوم القيامة يوماً عسـيراً. ذلك لأن الشر المسـتطير الذي وعد الله في سـاحة الحسـاب لا يمكن الاتّقاء منه إلّا بما عند الله. غير أن من أنكر الرحمن في الدنيا، قد يفقد رحمته في الآخرة، بل إنه لو أعيد إلى دار الدنيـا، لعـاد إلى مـا نُهي عنه كفـراً وطغياناً. فأنّـى له اليسر والعفو في دار هو لا يعترف لربها بالملك والهيمنة والرحمة؟!.

» بصائر وأحكام

١- في يـوم القيامـة تُسـلب الصلاحيـات الممنوحـة للعباد ويكـون الملـك الحـق لله الـذي يعامل عبـاده برحمتـه الواسـعة إلّا الكافرين الذين يلاقون يوماً عسيراً.

٢- ويجـب على المؤمـن ألّا يفقد أبداً الرجاء في رحمة ربه أنى كانت الظروف قاسية.

» يوم يعض الظالم على يديه

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

تفصيل القول

من حقائق كتاب ربنا العزيز، أنه يشير إلى عوامل الانحراف أو الهداية الإنسانية في منظومة متكاملة من الآيات الكريمة. فهو لا يسرد عوامل الانحراف أو عوامل الهداية سرداً، كما لو كانت تتمثل بياناً لما يناسب حادثةً ما، بل يبيّنها بوضوح لكي يفقهها السائر في طريق الله سبحانه وتعالى، فهماً يمتزج مع عقله وقلبه، فيرتدع عن الاسترسال مع عوامل الضلالة، ثم يُقبل بكل كيانه إقبال الواله إلى عوامل الهداية.

وربنا سبحانه وتعالى يُعالج في هذه الآية الكريمة والتي تليها حالة ضحايا البيئة المحيطة بهم، وذلك من خلال وصف بعض حالاتهم يوم القيامة من الحسرة، لأنهم لم يأبهوا في دار الدنيا إلى تحصين أنفسهم بدرع التقوى لكيلا يتأثروا بما يُحيط بهم، فأفلتوا أزمّة أنفسهم وعقولهم، حتى أصبحوا أداةً طيّعة بأيدي الآخرين، كما أصبحوا طرفاً متأثراً بالمجتمع الفاسد وليس مؤثّراً فيه. يقول ربنا سبحانه:

١- ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ ﴾.

هـذا وصف ليـوم القيامة، لم يُفـرَّق فيه بين ظالم ظلم نفسـه وظـالم ظلم غـيره، ولم يتخذ العـدل مسـلكاً في دار حياته. ومعلوم أن الظالم أشمل معنىً من الكافر، حيث يعم بعض المسلمين أيضاً.

٢- ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾.

فهو في أول الأمر، يختار أسـلوباً لفضح نفسـه، بالعض على يديـه، وليس عـلى كفّه، أو سـبّابته أو أحد أصابعـه، وإنما على يديه الاثنتـين، تعبيراً عن شـدة ندمه، إنـه يفقد الشـعور بالخزي على ما فرَّط في نفسـه، يسـاعده في ذلك انشـغال بني جنسـه في ساحة يوم القيامة بعضهم عن بعض، إذ لكل امرئ منهم يومئذ شـأن يغنيه.. وشدة الندم هذه، تبرز إذ ذاك على صورة فعل العض الذي وُصِفَ في بعـض الروايات بأنـه يقرض يديـه إلى أعلى الذراع فينثـره نثراً، حتـى بلا شـعور منه إلَّا أنه يعـترف قولاً صادعاً بتلـك الحالة التي يعيشها.. حالة الندم.

٣- ﴿يَـٰقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾.

وها هو يعترف أن مشكلته تكمن في سوء اختياره في الدنيا؛ إذ ابتعد عن مصدر الهدى وتردى في مستنقع الظلم لنفسه بالضلالة والفسـق أو لغيره حيـث ضيَّع حقوقهم. وهكـذا أخد يتمنى -من أعماق وجوده- لو أنه أطاع الله وأطاع الرسـول واتَّخذ معه سـبيلاً، ليُعـرب عن رغبته التامـة، تبعاً لندمه التام، لو أنـه انصاع إلى كلمة الحق.

ونسـتفيد مـن هذه الآية أن الحقائق تتكشـف للظـالم في يوم

القيامة، حيث تنزاح عن بصيرته الحجب التي كانت تمنعه من معرفة القبائح مثل حمية الجاهلية والحقد والحسد والغرور، وتتساقط عن رؤيته الأعذار التافهة والتبريرات؛ فيجد نفسه بلا عذرٍ كافٍ يبرر جهله بالسبيل الذي كان ينبغي له أن يتَّخذه مع الرسول في الحياة الدنيا.

ولكن؛ ما هي حقيقة هذا السبيل الذي يُؤدي عدم اتِّخاذه مع الرسول، وعدم التمسك به إلى أن يتحوَّل الإنسان إلى ظالم في دار الدنيا، وإلى أن يُحاط بكل ذلك الندم والحسرة؟.

إننا لم نجد ما يستحق أن يطلق عليه السبيل مع الرسول، سوى أمرين، كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يدعو المسلمين أبداً إليهما، وهما:

١- القرآن المجيد.
٢- العترة الطاهرة.

وهذان الثقلان هما اللذان اعتبرهما الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم السبيل إليه. بمعنى أن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم حينما قال: **«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللهِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي..»**[1].

ذلك القول الذي اتَّفق عليه الرواة والمحدثون بكافة مشاربهم.. إنما قاله بهدف إنقاذ أبناء الأمة من براثن الظلم؛ إذ الضلال المذكور في هذا الحديث الشريف هو أكبر وأشد أنواع الظلم، وبه يُساق الإنسان الظالم إلى مهاوي جهنم، والعياذ بالله.

» من حقائق كتاب ربنا العزيز، أنه يشير إلى عوامل الانحراف أو الهداية الإنسانية في منظومة متكاملة من الآيات الكريمة.

(١) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص٣٣.

وفي الآيـة بصيرة أخرى تتمثـل في أن القرآن المجيد لم يُصور ندم الظالم في يوم القيامة على أنه ناتج عن عدم الكون مع الرسـول فحسـب، وإلَّا لكانت العبارة القرآنية بالشكل التالي: يا ليتني كنت مع الرسـول؛ لأن الخروج عن دائرة الظلـم لا يمكن بمجرد ادِّعاء الانتماء إلى الرسول، بل باتِّخاذ سبيله سبيلاً له ومسلكاً.

أو لنقـل: إن الانتـماء إلى الرسـول لا يتحقـق إلَّا بتصور أمر آخر، وهو أن يكون إلى جانبه (سبيلٌ) يُتَّخَذ ويتم الإيمان به والسير ضمنه.

وعليـه، فـإن ادِّعاء الكون مع الرسـول شيء، واتِّخاذ سـبيله شيءٌ آخـر. ومن هنا جاء في الدعاء المأثـور الذي يُردده المؤمنون في شـهر شعبان: «**وَأَجْعَلْهُ لِي** (الرسول) **شَـفِيعاً مُشَفَّعاً، وَطَرِيْقاً إِلَيْكَ مَهْيَعـاً، وَاجْعَلْنِيْ لَهُ مُتَّبِعاً، حَتَّى أَلْقَاكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِّيْ رَاضِياً وَعَنْ ذُنُوْبِيْ غَاضِياً**»[1].

وكذلـك صُحبـة الرسـول لا تنفـع إلَّا بتحقق الغايـة منها، والتـي حـددت الآيـة الكريمـة طريق الوصـول إليها، وهـي اتِّخاذ سبيله مسلكاً. ويتمثل هذا السبيل هو في أمرين:

١- فهم بصائر القرآن.
٢- التزام العترة النبوية الطاهرة.

وهي ولايـة واحدة غير قابلة للتجزئة. كـما أن فهم القرآن يسـتدعي فهـم جميـع آياتـه والإيمان بهـا بوصفهـا وحـدةً واحدة متكاملة.

(١) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص٨٢٩.

» بصائر وأحكام

١- إن الحقائق تتكشف للظالم في يوم القيامة، وتُسقط عن قلبه حجب الحمية والحقد والحسد والغرور.. عندئذ سيجد نفسه مجرداً عن كل عذر يحول دون معرفة السبيل الذي ينبغي أن يتخذه مع الرسول في الحياة الدنيا.

٢- إن الإيمان بالرسول لا يصح تصوره ولا يكتمل معناه إلَّا باتِّخاذ السبيل معه، وهذا السبيل هو: فهم بصائر القرآن وتطبيقه، والتزام العترة النبوية الطاهرة.

٣- من الواجب على كل مؤمن معرفة حق الرسول والأئمة عليه وعليهم صلوات الله، تمهيداً لاتِّخاذ سبيلهم، وتتكامل المعرفة بفقه كلماتهم وسيرتهم مقدمةً لاتِّخاذهم قدوة صالحة.

» يا ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

» من الحديث

* بِإِسْنَادِ الْمُجَاشِعِيِّ عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام قَالَ: «قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله **الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»(١).

* فِي خَبَرِ الشَّيْخِ الشَّامِيِّ سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «أَيُّ صَاحِبٍ شَرٌّ؟.

قَالَ عليه السلام: **الْمُزَيِّنُ لَكَ مَعْصِيَةَ الله**»(٢).

***

تفصيل القول

يبقى الظالم الذي لم يتخذ مع الرسول سبيلاً، ولم يعتصم بالقرآن والرسول وعترته يتمنّى ويتمنى بعد أن أحاط به الندم، إلى أن تعود به الذكريات المريرة إلى دار الدنيا، فينطق لسانه بالحق

(١) بحار الأنوار: ج٧١، ص١٩٢.
(٢) بحار الانوار: ج٧١، ص١٩١.

ويكشف اللثام عما سبب له الخسران الأبدي.

وهكذا يعترف بارتكاب جريرة، ويقرّ على نفسه باستحقاقها الويل، فيقول:

١ - ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾.

وهـذه الكلمـة تعبير عن أشـد ندم يهـوي إليه البشر بسـوء اختياره. وفي التفسـير أنه يتجسد هناك في العذاب المقيم في وادٍ يقع في الدرك الأسفل من النار ويُدعى بهذا الاسم، حيث يستغيث من عذابه المعذبون في سائر دركات النار جميعاً.

والسبب في هذا الإقرار وما يعقبه من تمنٍّ، هو أنه اتّخذ فلاناً خليلاً. والخليل هو الصديق الوثيق العلاقة، حيث تشبك بين الخل وخليله أواصر الود والمحبة حتى يكاد ينعدم الاختلاف بينهما.

٢ - ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾.

» الخليل هو الصديق الوثيق العلاقة، حيث تشـبك بـين الخـل وخليله أواصر الود والمحبة حـتى يكاد ينعـدم الاختـلاف بينهما.

وبقرينة الإقـرار والتمني يتضـح أن هذا الخليل قد أثّر فيه كل الأثر، حتى صار ينظر من خلاله إلى واقع حياتـه وجملـة أفعاله وأقوالـه ومواقفه في الحيـاة الدنيا. ممـا يكشـف أن لصلة الصداقـة عظيم الأثـر في صياغة شخصية الإنسـان ومصيره، مما يدعو العاقل إلى توخي المزيـد من الحذر في بنـاء علاقاته الاجتماعية، ولا سـيما الصديق الذي يتوقع تأثيره في الفرد. وإذا ما كانت هذه الصداقة ذات أثر في حياة الإنسان في الدنيا، فلا شك في كونها ترسم كثيراً من ملامح مصيره في الدار الآخرة، حتى لقد قيل في وصف تأثير الصداقة: «قُلْ لي من تصادق، أَقُلْ لك من أنت».

ويُحتمل أن يكون الخليل المؤثر من وسط البيئة الاجتماعية للفرد، كأن يكون والداً أو أخاً أو زوجة أو قريباً أو جاراً أو معلماً أو موجِّهاً حزبياً. ولهذا يكون لزاماً على كل إنسان أن يضع لنفسه معايير وموازين لاختيار البيئة الاجتماعية التي يعيش ضمنها.

وهذا الذي يعرض القرآن الكريم، وفي هذه الآية الشريفة بالذات صورته وواقعه الأخروي، يزداد هلعاً في يوم القيامة بعد اكتشافه ما سيؤول إليه مصيره، حيث لم يتخذ مع الرسول سبيلاً، فلم يعِ حقيقة القرآن، ولم يتمسك بالعروة الوثقى المتجسدة بولاية الرسول وأهل البيت، ولم يستوعب مفاهيم الكتاب العظيم، ولم يرتو من معينه الصافي. واستبدل كل ذلك بإقامة العلاقة الوطيدة مع طرف آخر مناقض للرسول وللقرآن، وفي ذلك إشارة قرآنية لطيفة ورائعة للغاية تتمثل في استحالة بقاء الإنسان على الحق مع عدم اتِّخاذ السبيل إلى الرسول.

الانتخاب الصعب بين الهدى والضلال

وبكلمة أخرى: إن الإعراض عن السبيل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يعني بالبداهة السقوط في أوحال الباطل، ولا طريق ثالث يقع في البين، إذ ما بعد الهدى إلَّا الضلال. وبالتالي، فإن الباطل كل الباطل أن يعتمد إنسان اجتهاده الشخصي البعيد والمنفصل عن نص القرآن المجيد، والغريب عن التقيد بقيد الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام والتنوُّر بنورهم الرباني، ناهيك عن القول بالفصل بين القرآن والعترة، كقول البعض: حسبنا كتاب الله. ولكن لماذا هذا الفصل أَوَلَا يعلمون أن الله أنزل كتابه آيات محكمات ومتشابهات، وأرجع تأويل المتشابهات إلى الراسخين في العلم، وأنه أمر بالطاعة للرسول كما أمر بتقوى الله، وأنه جعل من أبعاد رسالة النبي تزكية

النفوس.. لماذا إذاً هذه المقولة؟.

الجواب: إن أشـد ما تنافس عليـه الناس الزعامة، وإن حب الرئاسـة كان وراء الكثير من الجرائم الكبرى عـلى امتداد التاريخ، ومنها جريمة الكفر بالأنبياء والأوصياء.. وفي هذه الأمة أيضاً كان الطمع في الزعامة، والاستهزاء بمقام الرسول صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى، والحقد والحسد على مقام أهل البيت عليهم السلام، والإصرار عـلى إزالتهم عن مراتبهـم التي رتَّبهم الله فيها.. كل ذلك كان وراء نفي دور الرسول صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام.

» بصائر وأحكام

١- للعلاقـات الاجتماعيـة عظيم الأثر في صياغة شـخصية الإنسان، مما يدعوه إلى الدقة فيها، وبالذات في اختيار الخليل الذي يبادله الحب واختيار الاتجاه.

٢- من اللازم على كل إنسان أن يضع لنفسه معايير لاختيار البيئة الاجتماعية التي يعيش ضمنها.

٣- الإعـراض عـن السـبيل مـع رسـول الله صلى الله عليه وآله يعنـي بالبداهـة السـقوط في أوحال الباطل؛ وذلـك لأن ما بعد الهدى إلَّا الضلال.

٤- على الإنسان أن يُحاسب نفسه بين الحين والآخر، ويُعيد برمجة علاقاته الاجتماعية لكيلا يقع في هوة الضلالة استرسـالاً مع علاقاته السيئة.

» وكان الشيطان للإنسان خذولاً

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

***

تفصيل القول

١- ﴿لَّقَدْ﴾.

(قد) أداة تحقيق وتأكيد لما يُراد حكايته إذا سبقت فعلاً بصيغة الماضي ودخلت عليه، وهنا أفادت الأداة تأكيداً آخر إذ سبقها لام التأكيد، فصارت الحكاية ذات تأكيد بعد تأكيد.

٢- ﴿أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾.

فعل الإضلال هنا منسوب إلى ذلك الخليل. ولكن من هو هذا الخليل؟. وماذا صدر عنه من فعل مشين ليستحق أن يُوصف بأنه السبب للإضلال، مع أن الضلالة -كما الهداية- من شأن صاحبها ما دام مختاراً في اختيار أيهما شاء؟.

حقًّا يتحمل كل إنسان مسؤولية قراره وطبيعة انتخابه،

ويجازى عليه. ولكن بما أن الأمر خطير فإن كل من ساهم في الضلالة يتحمل أيضاً مسؤوليتها دون أن تنقص من مسؤولية غيره شيئاً. ويبقى أن نعرف لماذا نُسب الإضلال إلى الذِّكر، وأساساً ما هو ذلك الذِّكر؟.

أولاً: لأن الذكر هو وسيلة الهدى عند البشر؛ فإن الانحراف عنه يعني الوقوع في هاوية الضلالة.

ثانياً: لقد وصف القرآن الكريم نفسه في آيات عديدة بأنه ذكر من الله، كقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[1].

وكذلك الرسول مُبلِّغ الذكر فهو أيضاً ذكر، حيث قال سبحانه: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾[2]. وقد سُمِّي أهل البيت عليهم السلام بأنهم أهل الذكر، حيث قال سبحانه: ﴿فَسْأَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

وهكذا يمكن القول: بأن القرآن هو ذكر الله، ولكن بشقيه؛ الصامت والناطق. الصامت المتجسد في السور والآيات المجموعة في الكتاب الذي هو بين الدفتين، والناطق المتمثل في الرسول والأئمة المعصومين من ذريته وفي طليعتهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، باعتبارهم الممتثلين لكلام الله والراسخين فيه والشارحين له.. وكل ذلك تمّ بإذن الله تعالى وإرادته.

» يتحمل كل إنسان مسؤولية قرار وطبيعة انتخابه، ويجازى عليه. ولكن بما أن الأمر خطير فإن كل من ساهم في الضلالة يتحمل مسؤوليتها دون أن تنقص من مسؤولية غيره شيئًا.

أقول: إن عدم اتِّخاذ الظالم سبيلاً مع الرسول،

(١) سورة ص، آية: ٨٧.
(٢) سورة الأنعام، آية: ٧٠.
(٣) سورة الأنبياء، آية: ٧.

هو نفسه الضلال عن الذكر بشقيّه، هذا الذكر الذي من طبيعة الاهتداء إليه أن يضمن سعادة الدارين. ولكن لمّا ضل عنه الظالم بفعل فلان، ابتُلي بالشقاء في الدارين. إذ من المستحيل ادّعاء السعادة في الدنيا والآخرة لمن أعرض عن ذكر الله الذي جاء به رسول الله ﷺ. وقد قال ربنا سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[1]. فالإعراض عن المنهج القرآني سبب تام للضياع في كافة صوره.

والله المتعال قال للإنسان أيضاً: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2].

أما الذي يدَّعي السعادة -في الدنيا على الأقل- بمعزل عن ذكر الله بشقيه؛ الصامت والناطق، فذاك من يُعاني في تحديد مساره السليم.

وأخيراً؛ قد يتجسد الذكر بالنسبة إلى شخص في كتاب أو مجلس أو درس أو أي شيء يُذكِّر بالله.

٣- ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾.

أي: كان الشيطان وما يزال، وهذا هو جوهر الشيطان، فهو لا تربطه بالإنسان رابطة، اللهم إلَّا نيته المُبيتة في إضلاله ثم خذلانه بعد أن حقَّق هدفه من إضلاله.

ونستفيد من الآية أن الشيطان كان قد وعد من أضله بالنصرة ثم خذله، كما نستفيد أن الشيطان قد يتمثل في الخليل؛ إذ

(١) سورة طه، آية: ١٢٤.
(٢) سورة الرعد، آية: ٢٨.

الوسواس قد يكون إنسيًّا أو جنيًّا.

وكيف لا يخذل الشيطان المُغْتَرَّ به وهو فاقد لأسباب القوة، لأنه لا يعتمد ركناً شديداً، وقد قال عنه ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1].

وقد يقال: إن كلمة الشيطان مأخوذة أصلاً من عبارة (شيءٌ طنَّ)؛ أي وسوس في الذهن والقلب، وهو تعبير عن الإلقاءات الباطلة في روع البشر حتى يلبس عليه الحقائق.

وحيث يخذل شيطان الإنس أو شيطان الجن الإنسان الظالم في دار الآخرة بعد أن (غرَّه في الدنيا) فإنه سيُصاب بمزيد من الندم والحسرة.

» بصائر وأحكام

١- القرآن هو ذكر الله، ولكن بشقيه: الصامت والناطق. الصامت المتجسد في السور والآيات، والناطق المتمثل في النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام.

٢- الإعراض عن المنهج القرآني سبب تام للضياع بكل صوره.

٣- وهكذا لا يجوز أن يعتمد الإنسان على وعد أَخِلَّاء السوء؛ لأنهم سوف يخذلونه عند الشدة.

(١) سورة النساء، آية ٧٦.

» لماذا اتخذوا القرآن مهجوراً؟

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾.

» من الحديث

* قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّقَ مُصْحَفَهُ، لَمْ يَتَعَاهَدْه وَلَمْ يَنْظُرْ فِيْهِ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقاً بِهِ يَقُوْلُ: يَا رَبَّ الْعَالَمِيْنَ؛ إِنَّ عَبْدَكَ هَذَا اتَّخَذَنِي مَهْجُوْراً، فَاقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ**»(١).

* عَنِ الْفَضْلِ بْنِ شَاذَانَ عَنِ الرِّضَا عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «**أُمِرَ النَّاسُ بِالْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ لِئَلَّا يَكُونَ الْقُرْآنُ مَهْجُوراً مُضَيَّعاً، وَلِيَكُونَ مَحْفُوظاً مَدْرُوساً، فَلَا يَضْمَحِلَّ وَلَا يُجْهَلَ..**»(٢).

***

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج١٤، ص٢٨.
(٢) وسائل الشيعة: ج٦، ص٣٨.

تفصيل القول

١ - ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾.

لمـاذا جاء الحديـث عن صورة مهمـة من صور يـوم القيامة المستقبلية بصيغة ماضيةٍ؟.

لعله للتأكيد، بمعنى أنها واقعة متحققة لا محالة.

وإذا سـمحنا للخيـال أن يُجَنِّح ليعايش ذلك المشـهد؛ فكأن النبـي ﷺ يقـف بحيث يراه الجميـع ثم يُؤْذَن لـه بالكلام وأهل المحشر يشهدون، فيقول:

٢ - ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى﴾.

ينطق الرسول بكل تأكيد ويُخبر اللهَ تعالى بخبر مأساوي يُعبِّر عـن فعـلٍ قام به قومـه. والقوم هنا إشـارة إلى جمع مـن البشر يقوم بعضهم بحاجات بعض، سـواءً كانوا من عنصر واحد كالعرب أو من منطقـة واحدة أو هم الجماعة الذين يلتفون حول مبدأ مجرد، أو دين معين، أو تجمعهم مصلحة مشتركة، أويتحدون خطراً عظيماً.. المهم هو أن القوم هم الذين يجمعهم أمر مشـترك. والمراد هنا -كما يبدو- هم المسلمون في أي عصر عاشوا أو مصر.

والمشهد هنا مشـهد شكوى يقوم النبي ﷺ مقام المدّعي، والرَّبُّ -المالك ليوم الدين- هو الحكم العدل، وقوم الرسـول هم المُدَّعى عليهم. وأما الأدلة والشـهود فهي الحقائق التي ستتكشـف عياناً بإذن الله تعالى، فلا حاجة لاستدعاء شخص بعينه، ناهيك عن علم الله جل وعلا بما فعله قوم الرسول، سواء في حضوره وخلال

أيام حياته صلى الله عليه وآله وسلم، أو بعد رحيله. وتؤيد ذلك -كما يبدو- من مجموعة الروايات المعتبرة والصحيحة التي أوردها علماء المسلمين أجمع عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، إذ رُوي عن ابن عباس قال: «خَطَبَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى الله عُرَاةً حُفَاتاً غُرْلاً. ثُمَّ تَلَا: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[1].

» أن من قوم الرسول من آمن بالقرآن، ولكنهم لم يقرؤوه ولم يُكلفوا أنفسهم عناء معرفة ما جاء فيه من أحكام ومفاهيم وبصائر، وذلك بعد أن وضعوه على الرفوف.

ثُمَّ قَالَ: أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي.

فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ!.

فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾[2].

فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُم»[3].

٣- ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾.

إذن؛ فموضوع الشكوى النبوية إلى الله تعالى، هو أن قومه قد تركوا القرآن فهجروه. والهجر هنا على أربع مراتب:

الأولى: هجر الكفار -وهم من قوم الرسول-؛ أي من العرب أو ممن أرسل إليهم النبي فإنهم أيضاً قومه، حيث كفروا

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠٤

(٢) سورة المائدة، آية: ١١٧.

(٣) بحار الأنوار: ج٢٨، ص٢٤.

به جملة وتفصيلاً.

الثانية: إن من قوم الرسول ﷺ من آمن بالقرآن، ولكنهم لم يقرؤوه ولم يُكلِّفوا أنفسهم عناء معرفة ما جاء فيه من أحكام ومفاهيم وبصائر، وذلك بعد أن وضعوه على الرفوف.

الثالثة: إن منهم من قرأه، ولكنهم امتنعوا عن التدبر في آياته، وربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ﴾؟[1].

فلم يتدبروا فيه لانشغالهم في أمور إمرار معاشهم أو انغماسهم في لهوهم.

الرابعة: إنهم قرؤوه وتدبروا آياته المجيدة، ولكنهم لم يعملوا به؛ لأنهم استعاضوا عنه بمناهج وضعية بشرية، كمن يرفع عقيرته صباح مساء، وينادي بفصل الدين عن السياسة؛ أي بعزل القرآن وبصائر القرآن وأحكامه عن الحياة برمتها.

وقد ورد في الرواية الشريفة عَنِ الْفُضَيْلِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «**قَالَ رَسُولُ الله ﷺ تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَاحِبَهُ فِي صُورَةِ شَابٍّ جَمِيلٍ شَاحِبِ اللَّوْنِ، فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا الْقُرْآنُ الَّذِي كُنْتُ أَسْهَرْتُ لَيْلَكَ وَأَظْمَأْتُ هَوَاجِرَكَ وَأَجْفَفْتُ رِيقَكَ وَأَسْبَلْتُ دَمْعَتَكَ.. إِلَى أَنْ قَالَ: فَأَبْشِرْ. فَيُؤْتَى بِتَاجٍ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ وَيُعْطَى الْأَمَانَ بِيَمِينِهِ وَالْخُلْدَ فِي الْجِنَانِ بِيَسَارِهِ وَيُكْسَى حُلَّتَيْنِ.**

ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَارْقَهْ.

فَكُلَّمَا قَرَأَ آيَةً صَعِدَ دَرَجَةً. وَيُكْسَى أَبَوَاهُ حُلَّتَيْنِ إِنْ كَانَا

(١) سورة النساء، آية: ٨٢.

مُؤْمِنَيْنِ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُمَا: هَذَا لِمَا عَلَّمْتُمَاهُ الْقُرْآنَ»[1].

وكما يبدو من جملة الآيات القرآنية الشريفة والروايات الكريمة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام، أن يوم القيامة سيعج بالشكاوى، بينما سيشهد ذلك اليوم شكاوى تصدر عن جهة معينة ضد جموع كثيرة وحاشدة من الخلق.

وقد كفل الله تعالى حقوق جميع خلقه،فكان للجميع الحق في بث شكواه إلى ربه، باعتباره مالك يوم الدين، وكونه الحكم العدل تقدَّست أسماؤه. وهنالك تُحمل الشكاوى على محمل الجد في يوم الفصل، فيتجه الله تعالى إلى المدّعى عليهم فيستنطقهم لتُبدَى الحقائق ويُمَهَّد للحكم الفصل.

وفي طليعة الذين يشكون ربهم، هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه أقرب وأحب الخلق إلى الله، ولأن قرآنه الذي أُنزل عليه أعظم الكتب، ولأن شكواه أهم الشكاوى.

ومن هنا، يتوجب على كل مؤمن يدَّعي الانتساب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يسعى كل سعيه ويبذل كل جهده في أن يتجاوز مراتب الهجر الأربع؛ فيؤمن بكتاب الله حقًّا، ثم يقرأ كتاب الله كما أراد هو أن يُقرأ، بدلاً من أن يعتزل عنه أو يعزله فيظلمه. وأن يتدبر معاني الآيات، فلا يكتفي بحروفه. وأن يعمل بما يعرف من القرآن، فلا يكون منافقاً يتفاوت قوله ومعرفته عن عمله؛ لأن ذلك مما يعظم مقته عند الله سبحانه وتعالى.

وهجران الذكر يشمل هجران أهله، وهم أئمة الهدى عليهم السلام

(١) وسائل الشيعة: ج٦، ص١٧٩.

الذين هم القرآن الناطق، وكذلك هجران كل عالم رباني يُذكِّر الناس بربهم.

بلى؛ إن هجر القرآن يعني اعتزاله وعزله، حيث يتمخض عنه الحكم بغير ما أنزل الله تعالى. بمعنى أن الهجر يعني الكفر والظلم والفسق. ويتمثل الهجر في استيراد الثقافات البشرية الوضعية والاستعاضة بها عن ثقافة القرآن المجيد.

» بصائر وأحكام

١- إن يوم القيامة سيعج بالشكاوى وقد كفل الله تعالى حقوق جميع خلقه، وفي طليعة الشاكين نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يشكو قومه إلى الله سبحانه لهجرهم الذكر: (كتاب الله، والأئمة الهداة، والعلماء بالله).

٢- على من يدَّعي الانتساب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أن يسعى كل سعيه أن يُؤمن بكتاب الله حقًّا، ويتلوه حق تلاوته، ويتدبر في معانيه، ويعمل به.

» كفى بالله هادياً ونصيراً

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

» من الحديث

* عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنْ أَبِيهِ عليهما السلام قَالَ: «**قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: مَا زِلْتُ أَنَا وَمَنْ كَانَ قَبْلِي مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ مُبْتَلَيْنَ بِمَنْ يُؤْذِينَا، وَلَوْ كَانَ الْمُؤْمِنُ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ لَقَيَّضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ مَنْ يُؤْذِيهِ لِيَأْجُرَهُ عَلَى ذَلِكَ**»(1).

* وَقَالَ الْإِمَامُ مُحَمَّدٍ الْبَاقِرُ عليه السلام: «**أَصَابَ الْقَحْطُ قَوْماً فِي زَمَانِ هُودٍ النَّبِيِّ عليه السلام، فَأَتَوْهُ لِيَسْتَسْقِيَ لَهُمْ، فَخَرَجَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ مَنْزِلِهِ عَجُوزٌ سَلِيطَةٌ صَيَّاحَةٌ**، فَقَالَتْ: فَلِمَ لَا يَسْتَسْقِي لِنَفْسِهِ؟.

فَقَالُوا: أَرْشِدِينَا إِلَيْهِ.

فَقَالَتْ: هُوَ فِي زَرْعٍ لَهُ يَسْتَسْقِيهِ فَأْتَوْهُ.

فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا هُوَ كُلَّمَا زَرَعَ بَاباً قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ

(1) بحار الأنوار: ج٢٧، ص٢٠٨.

فَقَالَ عليه السلام: **مَا حَاجَتُكُمْ؟**.

قَالُوْا: جِئْنَاكَ فِيْ حَاجَةٍ، فَرَأَيْنَا أَعْجَبَ مِمَّا جِئْنَا.

قَالَ عليه السلام: **وَمَا رَأَيْتُمْ؟**.

قَالُوْا: رَأَيْنَا عَجُوْزاً خَرَجَتْ مِنْ مَنْزِلِكَ، سَلِيْطَةً صَيّاحةً، فَصَاحَتْ فِيْ وُجُوْهِنَا.

فَقَال عليه السلام: **تِلْكَ امْرَأَتِي، وَإِنِّيْ لَأُحِبُّ طُولَ بَقَائِهَا.**

فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ الله؛ وَمَا تُحِبُّ مِنْ طُولِ بَقَائِهَا؟!.

قَالَ عليه السلام: **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْ يُؤْذِيهِ، فَأَنَا أَحْمَدُ اللهَ أَنْ جَعَلَ الَّذِيْ يُؤْذِيْنِيْ تَحْتَ يَدِي، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَسَلَّطَ عَلَيَّ شَرًّا مِنْهَا»**[1].

***

تفصيل القول

لماذا هجر القوم كتاب ربهم، أَوَلَيس الكتاب كان ذكراً لهم يُنجيهم به الله من العذاب؟.

إن هجر الكتاب لم يكن خاصًّا بهذه الأمة، إنما هو نتيجة سُنَّة الامتحان التي جرت في الآخرين كما جرت في الأولين. كيف ذلك؟.

إن الله تعالى قرَّر بحكمته البالغة أن يكون لكل نبي عدوٌّ

(١) مشكاة الأنوار: ص٤٩٨.

من المجرمين الذين يُعلنون الحرب على منهجه وعلى وصيه وعلى أتباعه، لكي يتم ابتلاء الناس بهم، وليتميَّز به الخبيث من الطيب، وليحيا من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بيّنة.

وهذا العدو لكتاب الله، يُمارس عداءه بحق حفظة حافظي الكتاب، وهم الأوصياء والأولياء. ويتمثل عداءه في صور شتى، حيث لا يكتفي بتكذيب الكتاب وسخرية الجاهلين له، بل يتجاوزه إلى خلق الافتراءات ضده وضدهم، وحتى مواجهتهم بالتشريد والقتل، وبذلك يصبح مجرماً. وبإجرامه يزداد بُعداً عن منهج الله، هو ومن اتَّبعه. وبذلك تتحقق سنة الفتنة للخلق حيث يجد أمامه النجدين: نجداً يؤدي به إلى الجنة، وآخر يهوي به إلى الجحيم.

والجعل الإلهي هنا لا يعني إجبار البعض على أن يكونوا أعداء مجرمين بحق النبي وما يمثل من خط إلهي، وإنما الجعل هنا بمثابة التقدير الإلهي لهذه الدنيا؛ حيث إن حركة كل نبي لابد وأن تُقابلها حركة عدو، من المجرمين الذين يختارون -بمحض إرادتهم- التمرُّد على الحق والكفر به، ويتمادى هؤلاء حتى يسقطوا في هاوية الصراع مع الأنبياء.

وفي الآية ردٌّ بالغ لوسوسة شيطانية: كيف ترك الله رسالاته ورسله عُرضة لإيذاء الكفار ولشبهاتهم؟.

والجواب: لأن الدنيا دار فتنة، ولو أن ربنا كان يقمع أعداء الرسالة كليًّا لم تتوفر فرصة الاختيار للبشر، بل كان الناس جميعاً يدخلون في دين الله. فلم يُعرف المؤمن من المنافق، لأن كثيراً منهم كان يدخل في الدين طمعاً وخوفاً وليس بخلوص النية.

شهادة من التاريخ

وهكـذا تم في الأمة الإسـلامية الصراع ضـد القرآن الكريم وحملتـه وحفظتـه، حيـث قـام البعض مـن الخلفاء بنـشر الثقافات الجاهليـة لمواجهة خـط النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيتـه عليهم السلام، وذلك عبر اسـتيراد الأفكار اليونانية والفارسـية والهندية، وبعضاً من ثقافات بنـي إسرائيل، وقاموا بنشرها وتشـجيع علماء السـلاطين في البلاد لتبنيها، لتكون بديلة عن بصائر القرآن الكريم.

» بصائر وأحكام

إن الله تعـالى قـرَّر بحكمة بالغة أن يكـون لكل بني عدو من المجرمـين، الذيـن يُعلنـون الحرب عـلى منهجه وعـلى وصيه وعلى أتباعـه، لتبقى سـنة الفتنة قائمـة وفرصة الانتخـاب متاحة، ولكي يتميـز الخبيـث من الطيـب، وليحيا مـن حيَّ عن بينـة، ويهلك من هلك عن بيّنة.

» كذلك لنُثَبِّت به فؤادك

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

» من الحديث

* قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِالله عليه السلام «**أُنْزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِلَى الْبَيْتِ المَعْمُورِ، ثُمَّ أُنْزِلَ مِنَ الْبَيْتِ المَعْمُورِ فِي مُدَّةِ عِشْرِينَ سَنَةً**»(١).

* وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: **يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؛ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَرَتِّلْهُ تَرْتِيْلاً**.

قَالَ: وَمَا الْتَرْتِيلُ؟.

قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **بَيِّنْهُ تِبْيَاناً، وَلَا تَنْثُرْهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَلَا تَهُذَّهُ هَذَّ الشِّعْرِ. قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُونَنَّ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ**»(٢).

(١) بحار الأنوار: ٩٤، ص١١.
(٢) تفسير مجمع البيان: ج٧، ص٢٩٥.

تفصيل القول

١ - ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾.

لقد طرح الذين كفروا شبهة ظنوا أنها تُبرِّر لأنفسهم تكذيب الكتاب.

ويبدو أن المراد هنا بالكافرين هم المكذبون بالكتاب، حيث قالوا:

٢ - ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾.

وزعموا أنه لو كان القرآن قد نزل على الرسول دفعةً واحدة لآمنوا به. لقد كان ذلك الزعم مجرَّد تبريرٍ واهٍ. لماذا؟.

لأن السورة الواحدة من القرآن الكريم، بل الآية الواحدة منها تحمل من النور والهدى ومن آيات الإعجاز ما يحمله الكتاب كله؛ ومثل ذلك مثل الخلية الحية الواحدة التي تدلُّنا على حقيقة الحياة، بالقوة ذاتها التي تدل عليها سائر أنواع الأحياء. ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله تعالى أساساً، أو كانوا جريئين في البحث عن الحقيقة، لما أهمَّهم أن تكون رسالة الخالق قد نزلت دفعة واحدة أم جاءت متوالية حسب الحكمة التي يُقدِّرها الرَّبُّ سبحانه وبما يناسب الفترات الزمنية أو الحوادث المتتالية، وذلك بحكمة موائمة للاستعداد المتوفر في نفسية المعاصرين للرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم.

» إن السورة الواحدة من القرآن الكريم، بل الآية الواحدة منها تحمل من النور والهدى ومن آيات الإعجاز ما يحمله الكتاب كله.

إنه مجرَّد إشكالٍ واهٍ عَكَسَ رغبةً مُستشريةً في قلوب الكافرين في عدم إيمانهم بالقرآن، فضلاً عن كفرهم المسبق بمن أنزل القرآن، وبمن أُنزل عليه القرآن.

ثـم مـا كان ليحدث لـو كان القرآن أُنزل جملـة واحدة؟ هل كان سيدعوهم إلى الإيمان بالقرآن وبالرسول؟.

لا ريـب في أن ذلـك لم يكن أن يحـدث، لأن الأزمة الكبرى لـدى الكافرين لم تكن في توالي الآيـات، بقدر ما هي مُتعلِّقة بأصل الإيمان بالله وبالرسول.

ولعلهم إنما كفروا بالقرآن، لأنهم اسـتغنوا بتشريعات باطلة ابتدعوها من عند أنفسـهم، وتوارثوها مـن آبائهم وتعوَّدوا عليها، وقامت عليها مصالحهم المعاشية.. وهكذا لم يرتضوا التنازل عنها.

كما أنهم قد كفروا بالرسول؛ لأن الإيمان به -حسب رأيهم- كان يُصيبهم في مقتل، من حيث نظرتهم إلى خُلُق الرسـول العظيم الـذي تتناقض أخلاقهم معه، وإلى كون الرسـول يتحدَّث لهم عن أخبار السـماء وهم كانوا يزعمون أنهم أحق بذلك منه حسداً وكبراً وغروراً.

حكمة التوالي في نزول الوحي

ولكـن لـو أن القـرآن كان قد نـزل جملة واحـدة، فهل كانوا يفقهونـه، وهم الذين رموا الرسـول ﷺ بتهمة الكذب والجنون والسحر والتسمّع إلى الجن بعد أن سمعوا مجرد آية واحدة، فما بالهم لو أن الرسول جاء إليهم بالقرآن كله؟.

كلَّا؛ إن لهبوط الوحي مُنَجَّماً حكمةً بالغةً يذكرها الرب:

٣- ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

إن تنـزُّل القـرآن بالتـوالي يعكـس أصـلاً تربويًّـا مهـمًّا، هو

التـدرُّج في بناء الأمة وتربية أبنائها على تلك البصائر الجديدة، التي كان يصعب على الناس الارتفاع إلى مستواها دفعةً واحدةً.

وواضـح أن المخاطـب هنا، هو كل شـخص يرتضي القرآن دسـتوراً إلهيًّـا وكتـابَ هدايـة على مـر العصـور، نظـراً لأن الفؤاد -فـؤاد أي إنسـان- أصغر من أن يسـتوعب القرآن ومـا يحويه من ثقـل عقائدي وتربوي أخلاقي دفعةً واحدةً، ولقد وصفه الله تعالى بالقول الثقيل، حيث قال ربنا: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1].

فالقرآن قول ثقيـل؛ لأن فيه أمانة الرَّبِّ الكبرى، وليس من السهل استيعاب هذه الأمانة دفعةً واحدةً.

والواقـع أن قُـدرات البشر في تلقـي البصائر محـدودة جدًّا، وهـي بحاجة إلى التدرج في مخاطبتها وتفعيلها، وقد قال عز اسـمه بهـذا الصـدد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2].

إذا فسرنـا النظر بالإمهـال (من النَّظِرَة) يكـون معنى الآية: أن الله تعـالى لا يسـمح للإنسـان أن يطلـب التبريـر والتهـرُّب من مسـؤولياته، وإنـما لـه أن يطلب الفرصـة لأدائها. وهكـذا نجد أن من ميزات الدين الإسـلامي أنه يوفر الأجـواء التعليمية والتربوية المناسبة لتلقي وتطبيق الشريعة.

ثـم إذا كان القـرآن قـد نـزل جملـة واحـدة، فـماذا كان يبقى للرسول من أمر إبلاغه، إذ كان كافياً أن يستيقظ الناس في الصباح -مثـلاً- ليجـدوا في كل بيت من بيوتهم نسـخة من القـرآن المجيد

(١) سورة المزمل، آيه٥.
(٢) سورة البقرة، آية ١٠٤.

فيقرؤونها مستغنين عن المُبيِّن؟.

كلَّا؛ إن الله تعـالى أعلم بحاجـات الخلق، التي منها: الحاجة إلى المربي الذي يُزكِّي النفوس ويُعلِّم الحقائق الواحدة تلو الأخرى، وإلى القدوة والأسـوة، وإلى الميزان الذي يشـهد على حُسن أو سوء تطبيق الناس لتعاليم القرآن، ومن ثم إلى الإمام الذي يقود المسـيرة خطوة بعد خطوة.

ونفهـم من ذلـك أن الكافريـن -بتكبُّرهم- كانـوا يُريدون التهرُّب من الإيمان بالرسول، باعتباره مُبلِّغاً لرسالات رَبِّه وشاهداً على تطبيقها وإماماً للناس في حياتهم وراعياً لبناء الأمة ومُؤذناً ببناء حضـارة. وما أشـبه هـؤلاء الكفار بأولئـك الفلاسـفة الذين قالوا للنبي موسـى عليه السلام بعد أن دعاهم للإيمان: حقًّا أنت نبيٌّ، ولكنك مبعـوث إلى العوام من النـاس دوننا نحن الفلاسـفة، وإننا في غنىً عن واسطة بيننا وبين الله. حقًّا كانوا جاهلين بما يتعلَّق بأصل النبوة ودورها في الحياة الاجتماعية.

وبتعبير آخر: إنهم كانوا يستهدفون من وراء شبهتهم التقليل من شأن الرسول والاستكبار عن التسليم له.

ثم قال ربنا سبحانه:

٤- ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾.

أي: رتَّبناه بمنازلـه ترتيباً حكيماً لكي يكون كتاباً جديراً بأن يُقـرأ ويُتَّبـع، ولو كان عكـس ذلك، لما قُـرئ أبداً، ولما فُهـم أبداً.. ولكنـه قـد رُتِّل من جانـب الله وقُـرئ على قلب الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم، وقـد دُرئت عنه كل الأباطيل والشـبهات، فـكان واضحاً لكل من

له قلب، واضحاً بعد الاستماع إلى إيضاحات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتبيينه، وبعد تفصيل أهل البيت عليهم السلام لتعاليمه بما يناسب مستوى عقول المستمعين.

» بصائر وأحكام

١- نزول القرآن بالشكل الذي نزل به مُنَجَّماً، يعكس أصلاً تربويًّا مهمًّا هو التدرُّج في التربية، وبناء الأمة الرشيدة والحضارة الإلهية.

٢- لابد من توفير سائر الشروط الموضوعية لبلاغ الرسالة وتطبيقها من خلال التدرُّج في بيانها وتثبيتها في الأفئدة، ومنها تزكية النفوس واستثارة العقول، وإمامة الناس في مسيرتها الإيمانية.

» جئناك بالحق وأحسن تفسيراً

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

***

تفصيل القول

من أبعاد رسالات الرَّبّ مواجهة الثقافات الباطلة والوساوس الشيطانية، ولكن كيف نجد القرآن الكريم لا يُفنِّد الأباطيل بأنواعها، حتى يُقدِّم للإنسان البديل الحق، فما هو الحق الذي ذكر هنا يا ترى؟.

الحق هو حكم الله الذي يتفق وحكم العقل الخالص البعيد عن حجب الجهل والغرور والتكبر، ويتفق بالتالي مع الركائز المتأصلة في الفطرة الإنسانية.

وكلما طرح الكافرون الشبهات المُغلَّفة بزخرف القول ومارسوا -بذلك- الجدل الباطل، رغبةً منهم في التهرُّب من مسؤوليات الإيمان بما يُمليه الوحي والعقل والفطرة، وما دعا إليه

الرسول عبر القرآن الكريم.

أقـول: كلما فعـل الكفار ذلـك، فإن الله تعالى ينصر رسـوله والمؤمنـين ببيان مَثَل الحق. فمَثَل الحق جواب الله على مثل الباطل، وهو يتضمـن مُقوِّمات القبول من جانب العقـل والفطرة، كما تجد فيه من الأدلة المنطقية ما يتكفَّل بإسكات المبطلين.

وهكـذا نعـرف أن هـذا الأمـر هـو من حِكَـم تنـزُّل القرآن متدرجاً؛ لأن الله سبحانه يُبيِّن الأمثال الحقة التي تتناغم وعقل ابن آدم وفطرتـه ردًّا على ما يُورده الكافرون من أسـئلة وشـبهات، كما يُورد لكل قضية يعاني منه المجتمع حلَّا مناسباً.

وقد درج المفسرون على بيان ظروف نزول الآيات وسموها بأسـباب النـزول، حيـث كانـت الآيـات الكريمـة تتنزل حسـب الظروف والحاجات والتحديات، ولكنها بالتأكيد لا تنحصر فيها، وإنـما فيها من الهـدى ما ينفع الظروف المشـابهة، وفيهـا من الحِكَم والأمثال ما تشـمل ساحات أوسـع. ثم إن النبي ﷺ ومن بعده أهل بيته عليهم السلام يقومون بتفسير تلك الأمثال وتأويلها.

وهذا مـا يُفهم من قولـه تعـالى: ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ﴾، بعد قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾؛ إذ الحـل الإلهـي والمثل الرباني يتوجَّه إلى الرسـول ليقـوم بشرحـه وتوضيحـه والاسـتدلال عليـه، فكـما أن إشـكال الكافريـن ومَثَلهـم يُرفع بوجـه النبي، كذلك الـردّ الإلهي والحكم القـرآني يتوجّه إلى النبـي ليكون مرجعاً للنـاس في تحصيل الجواب الإلهي الشافي.

بقي أن نعرف أن المثل هو جزء ظاهر من حقيقة كلية.

وبتعبير آخر: مفردة من مفردات قضية عامة.

ولقد بيَّن القرآن الكريم الحقائق العامة، وضرب لها أمثلة، وبيَّن في الوقت ذاته بصيرته في ثقافات الآخرين وما فيها من أمثلة.

» بصائر وأحكام

١- القرآن الكريم يواجه الثقافات الضالة والوساوس الشيطانية، وبعد أن يُفنِّد القرآن الأباطيل بأنواعها، يُقدِّم للإنسان البديل الحق.

٢- على أولي البصائر في الأمة أن يُراقبوا الجو الثقافي العام فيبادروا برد الشبهات، أولاً بأول، ويقولوا كلمة الحق كلما بَثَّت أبواق إبليس وساوس مزخرفة.

» الجهنميون شرٌّ مكاناً

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤)﴾.

» من الحديث

رَوَى أَنَسٌ: «أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا نَبِيَّ الله! كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟.

قَالَ ﷺ: **إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَحْشُرَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

***

تفصيل القول

من خصائص الحياة الدنيا أن ظاهرها قد لا يُنبئ عن باطنها، ولهذا؛ كانت الدنيا دار امتحان وابتلاء، ولو كان جميع ما في الدنيا ظاهراً ويعرف الإنسان عقباه على طريق الحتم، لانتفى الامتحان

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص١٥.

إذاً.. ولكـن كان لابد من دور للإنسـان وفكره وإرادته. ومن هنا؛ وجدنا أن ربنا عز وجل يُفرِّق في سـورة الفرقان المباركة بين كلماته التي هـي الوحي، وهي البيـان للحقائق وبين الأمثلة الشـائعة بين الناس.

وكان الفـرق بينهما، أن تلـك الأمثلة التي يقتات عليها الناس.. ليست بالحقائق؛ لأنها لا تنتهي إلى الحق، فهـي أصلاً عاجـزة عن تنظيم سـلوك الإنسـان بحيث ينجو من عذاب الجحيم، مهما تنمَّقت وتزيَّنت.

»إن ربنـا يُفـرِّق في سـورة الفرقـان المباركـة بين كلماته الـتي هـي الوحي، وهي البيان للحقائق وبين الأمثلة الشائعة بين الناس.

ونمـوذج ذلـك أنك لـو كنـت حائـراً في اختيار طريق من طريقين، فأرشـدك شرطي المرور إلى أحدهما، فيـما أبلغـك رجل آخـر فصيح اللسـان جميـل الهيئة بأن الطريق المطلوب هو غير ما ذكره شرطي المرور.

تـرى أيَّ القولـين تعتمد؟. مـع ملاحظة أن إرشـاد شرطي المـرور كان لا يعـدو أن يتعدَّى بهيئته الإشـارة، فيـما الآخر كان ما كان عليـه من المنظر والهيئة. وتحـدَّث إليك بكلمات مزخرفة وأنت تعلـم بكـون شرطي المرور مختصًّا بما سـألت، فيما الثاني محط شـك لعدم معرفتك المسبقة به. كذلـك الأمثال فإنما المثل الحق هو الذي يهديـك إلى النجـاة من نـار جهنم. وهـذا المقياس لا تجـده إلَّا عند كلـمات الوحـي وأمثاله، بينما الأمثـال الأخرى أنَّـى زُخرفت فهي مجرد كلمات فارغة.

إن من يضرب الأمثال ويُلقي الشبهات على شخص الرسول وجوهر الرسالة، ويُكذِّب بأوضح شيء في الوجدان البشري، وهو حتمية حدوث يوم القيامة، إنما هو الذي ضل سبيله، ولا يمكن له

أن يكون دالًّا على الصراط السوي، وبالتالي؛ فهو لا يأتي إلَّا بما هو باطل، مهما زخرف حديثه.

١ - ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

إن الفكرة الأساسية السليمة والصائبة هي التي تنتهي بك إلى النجاة من النار. أما الفكرة الأخرى أنَّى كانت، حتى ولو كانت لها فوائد مادية فما دامت تنتهي بالإنسان إلى جهنم فلا فائدة من ورائها.

أما الحشر على الوجوه إلى جهنم، فهو واقع لا محالة بحق ذوي الأفكار الباطلة مهما كانوا منتصبي القامات في الدنيا وواثقين من أنفسهم في الظاهر؛ للدلالة على استشعارهم الندم العميق على ما فرطوا في أمرهم، إذ سيكون واقعهم الحسرة والحيرة والضلال.

٢ - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾.

نظراً لأن الأفكار الخاطئة ليست غير ذات نهاية مُجدية فحسب، وإنما وجودها في الإنسان مضرّ به. فمن حمل أفكاراً سلبية، انعكست في واقعه الاجتماعي لتتحوَّل إلى حالة تشاؤم وحسرة، ومن ثم تسوقه إلى جهنم ليكون الأكثر شرًّا في زوايا الجحيم.

فالفكرة السلبية تدفع بصاحبها إلى شر الأماكن. بينما الفكرة الصحيحة تضع صاحبها في المكان الصحيح والمناسب، حيث تحمله على النظر للحياة نظرة إيجابية متفائلة متوكِّلة على الرَّبِّ القدير.

ونستفيد من الآية الكريمة أن أهم ما يجب أن يسعى إليه

الإنسان هو الخلاص من النار. فعلى كل امرئ أن يتصوَّر نفسه في النار ثم يسعى سعياً للخروج منها، ليفوز حقًّا بالتزحزح عن النار والدخول إلى الجنة. لأن الخير كل الخير ما كانت عاقبته الجنة، والشر كل الشر ما كانت عاقبته النار. وهذا الهدف العظيم لا تحققه لا الشبهات ولا الوساوس، وإنما بصائر الوحي ورؤى القرآن وسيرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

» بصائر وأحكام

١- إن الفكرة السليمة والصائبة هي التي تنتهي بك إلى الحق والنجاة من النار، وأما الفكرة التي تنتهي بالإنسان إلى جهنم، فلا فائدة حقيقية من ورائها.

٢- أهم ما يفترض أن يسعى إليه الإنسان، هو الخلاص من النار.

» الخلافة مشيئة اللّه، لا مشيئة البشر

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

حدَّثنا القرآن الكريم في هذا السياق من الآيات عن مجموعة من الحقائق، ثم لم يلبث أن أتانا بحجج بالغة على هذه الحقائق، من واقع التاريخ.

فها هي قصة موسى وهارون عليهما السلام، ومن ثم قصة نوح عليه السلام، حجة بالغة في هذا السياق.

قال ربنا سبحانه:

١ - ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ ﴾.

فكما أنزل الله القرآن على خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم، كذلك موسى عليه السلام آتاه الله الكتاب. فلم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدعاً من الرسل، وكان كتاب النبي موسى عليه السلام يحوي بصائر وأحكاماً

وأمثلة وتعاليم أخلاقية وكل ما فيه نفع الإنسان وهدايته.

وحيث يقول: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ فإننا نفهم أن وراء الإيتاء بصيغة الجمع إرادة ربانية عظيمة جدًّا، ولذلك تكون للكتاب المأتيّ به قداسة خاصة وحرمة مميزة.

٢- ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾

وهذا هو السبيل الذي مع الرسول في أمة موسى عليه السلام، فهو الكتاب والوزير.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ إشارة واضحة إلى أن خلافة الأنبياء ووزارتهم والإمامة والوصاية من بعدهم، إنما تكون بجعل إلهي واختيار رباني، شأنها في ذلك، شأن النبوة نفسها، وهي التي لا تتم إلَّا بجعل إلهي واختيار رباني، نظراً لأن النبوة وتفاصيلها وموازين تعيينها من الأوامر الإلهية. وهكذا اختيار الوصي لابد أن يكون من الخصائص الإلهية، ذلك لأن خلافة النبي امتداد لرسالته وتكميل لمهمته فكان من الضروري أن تتوافر في الخليفة مواصفات النبي من العلم والعصمة والكرامة الربانية. وليس لأتباع النبي أن يختاروا بأنفسهم من يشاؤون، حتى ولو تحقق إجماعهم المطلق والتام على شخص دون غيره؛ إذ مشيئة الناس في هذا الأمر ليست في محلها، لأنه لا صلاحية لهم في هذا الأمر، كما لا صلاحية لهم في اختيار النبي، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(١). لأن اعتبار مشيئة الناس معياراً لتعيين الإمام بمثابة الـرَّدِّ على الله، وفيه من المفسدة ما في اختيار النبي من قبل الناس، وهو لا يكون، بل هو بمثابة إبطال النبوة وما حققه النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سورة الأنعام، آية: ١٢٤.

من إبلاغ الرسالة.

لقد كان هارون وزيراً لأخيه موسى بجعل مباشر من قبل الله تعالى، فحاربه قومه وتمردوا عليه، بتعيينهم السامري قائداً لهم في غيبة موسى، حيث قادهم إلى عبادة العجل، فكفروا بالله تعالى وأغضبوا نبيهم موسى حتى حلَّ ما حلَّ بهم من العذاب، وأُمروا من جانب الله تعالى بأن يقتلوا أنفسهم تكفيراً لهم عن جريمتهم الكبرى بتركهم هارون بعد استضعافهم له وتهديدهم له بالقتل إن لم يختر الصمت والاعتزال.

إن هذه الآية المباركة التي وردت بعد جملة الآيات التي تتحدَّث عن أمة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم، إنما جاءت لتوضيح ما ورد فيها من إشارات، حتى لكأن هذه الآية المباركة بمثابة إشارة أخرى فيما يتصل بواقع هذه الأمة، إذ بيَّنت قضية الكتاب والوزير، باعتبارهما السبيل المُنزل مع الرسول، وأنه لابد من اتِّخاذه لتحقق معنى الانتماء إلى الرسول. فإذا لم يتم اتِّخاذ هذا السبيل، يفقد مدّعي الانتماء إلى الرسول مصداقيته.

وهنا إشارات لابد من التنويه إليها:

* إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في المتواتر من الحديث لأمير المؤمنين عليه السلام: «**أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»[1].

* وقال صلى الله عليه وآله وسلم مخاطباً أمته: «**سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كُلُّ مَا كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَالْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ**

(١) بحار الأنوار: ج٥، ص٦٩.

دَخَلَ جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ..»[1].

فكان علي عليه السلام له كما كان هارون لموسى عليه السلام، بل وزاد عليه، حيث جعله تعالى نفس الرسول، كما جاء في تفسير آية المباهلة، بينما لم نجد التعبير ذاته فيما يتَّصل بهارون عليه السلام.

وهكذا جعل الله عليًّا عليه السلام وزيراً للنبي صلى الله عليه وآله، كما جعل هارون لموسى عليه السلام، وقد نصَّ على ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، في واقعة الغدير المشهورة. والتي شهد عليها الصحابة، ونقلها غالبية المحدثين عبر قرون متواصلة.

وكما انقلب قوم موسى عليه السلام على هارون، كذلك انقلب أصحاب النبي على علي، والاستضعاف كان قاسماً مشتركاً بينهما، شأنه في ذلك شأن تقديمهما مصلحة الدين التي تقتضي عدم سلوك مسلك العنف والقتال لاسترداد حقهما.

» بصائر وأحكام

١- إن خلافة النبي ووزارته والإمامة والوصاية من بعده، إنما تكون بجعل إلهي واختيار رباني، شأنها في ذلك شأن النبوة نفسها.

٢- ليس لأتباع النبي أن يختاروا خليفته، حتى ولو تحقق إجماعهم على شخص فلن يصبح مشروعاً، لأن اعتبار مشيئة الناس معياراً لتعيين الإمام بعد النبي بمثابة الرد على جعل الله.

(١) بحار الأنوار: ج٥٣، ص١٢٧.

» الدمار عقبى الذين كذَّبوا

﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) ﴾.

» من الحديث

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا خَرَجَتْ رِيحٌ قَطُّ إِلَّا بِمِكْيَالٍ إِلَّا زَمَنَ عَـادٍ؛ فَإِنَّهَا عَتَتْ عَلَى خُزَّانِهَا فَخَرَجَتْ فِي مِثْلِ خَرْقِ الْإِبْرَةِ فَأَهْلَكَتْ قَوْمَ عَادٍ، وَمَا نَزَلَ مَطَرٌ قَطُّ إِلَّا بِوَزْنٍ إِلَّا زَمَنَ نُوحٍ عليه السلام؛ فَإِنَّهُ عَتَا عَلَى خُزَّانِهِ فَخَرَجَ فِي مِثْلِ خَرْقِ الْإِبْرَةِ فَأَغْرَقَ اللهُ بِهِ قَوْمَ نُوحٍ عليه السلام»[1].

***

تفصيل القول

١ - ﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾

الأمر موجَّـه إلى النبيين العظيمين: موسـى ووزيره هارون، أمرهما الله بالذهاب والتوجُّه إلى المكذبين بآيات الله، ومن قبل كان

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص٥٢٥.

الله تعالى قد قال لهما آمراً: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[1].

ولكن هل القوم الذين ينبغي على موسى وهارون الذهاب إليهم هم آل فرعون ذاتهم؟.

بلى؛ ولكن لا تخصهم إذ إن سنة الله جارية في كل من يُكذِّب بآيات الله بأنّه يعرض نفسه لعقاب شديد، فالآية تُذكِّر بجملة حقائق.

أولاً: إن الله أمر النبي موسى وأخاه هارون لإبلاغ الرسالة.
ثانياً: إن الرسالة صدّقت بآيات الله.
ثالثاً: إن القوم بآيات الله.
رابعاً: إن الله دمرهم تدميراً.

وهذه السنة تجري في كل قوم، وذكرها هنا لتكون عبرة لقوم موسى عليه السلام أيضاً. فهم حين كذَّبوا بالتوراة، وبسائر الآيات التي ظهرت مع نبيهم موسى عليه السلام، واسترسلوا مع السامري في عبادة العجل، فإنهم قد سلكوا الطريق ذاته الذي سلكه عدوهم فرعون. ومن هنا كان جزاؤهم الجزاء ذاته، ولكن حسب مدى جريمتهم، حيث إن الله أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم. وهكذا قال ربنا سبحانه:

١ - ﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا﴾.

لأن الله عز وجل مُنزّه عن اللعب. فكما هو أرحم الراحمين حيث يُسبغ النعم، ويُرسل الرسل والرسالات برحمته، فهو كذلك شديد العذاب وشديد النقمة، إذا ما حصل الكفران بنعمه والتكذيب برسله. والأمر بينهما أنه يُمهل ولا يُهمل، ومهلته

(١) سورة طه، آية ٤٣.

التـي يُقدِّمهـا إلى خلقه لا تعني كونه ينسـى. فالدمـار قد وقع على كلا القومين؛ سـواء فرعون وقومـه الذين أُغرقوا في البحر، أو قوم موسـى الذين أصبحوا فاسـدي العقائد والأفكار، وصاروا شُذَّاذ الآفاق، وضُربت عليهم الذلة والمسـكنة أينما ثُقِفُوا. ومهما تظاهروا بالعزة واستخدموا القوة والثروة، فهم مدمّرون من حيث استحقار الشعوب لهم.

بـلى؛ إن الله تعـالى، ومن خلال هذا المقطـع القرآني المقدس، قد أراد إلفات نظر أمة خاتم أنبيائه إلى أن سنة الله في خلقه لن تتغير ولن تتبدل، مهما كثرت الادعاءات وتلوّن المدعون.

وبالفعل؛ ها نحن نرى أوضاع المسـلمين وكيف يتحكم بها أقوام الأمم الأخرى، بمن فيهم شذاذ الآفاق وقتلة الأنبياء؛ وذلك بهجرهم للقرآن وأئمة الهدى.

» بصائر وأحكام

١- جـل جلال الله وتقدَّس عن اللهـو واللعب، فهو أرحم الراحمين، حيث يُنزل النعم ويُرسـل الرسـالات برحمته. كذلك هو شديد العذاب عند الكفر بنعمه والتكذيب برسله.. إنه تعالى يُمهل ولا يُهمل.

٢- إن سـنة الله في خلقـه لن تتغير وهي تجـري في الآخرين بمثل ما جرت في الأولين.

» مصير قوم نوح آية وعبرة

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧)﴾.

***

تفصيل القول

هـذه الآية الشريفة تشـير إلى مَثَـل من الأمثلـة القرآنية التي تنطـق بالحـق، وتُعبِّر عـن التفسـير الأحسـن للحركـة الاجتماعية والحركـة التأريخية؛ هذا التفسـير وهذا المثل يُشـكل البديل لأمثال الذيـن كفـروا، وهـذا المثل يوضح سُـنَّة إلهيـة ثابتة، ليعـرف المهتم بمصـيره أن نظرتـه إلى الحضـارات السـابقة لا ينبغـي أن تكون إلى مـا خلَّفته من البنـاء التقني والمنتج الفني، وغيرهـا. وإنما تكون إلى العوامل التي قضت عليها ودمرتها، لنعرف كيف نتجنَّب أمثالها.

وبالرغـم من الفارق الزمني والجغرافي بين مَثَل ومَثَل إلَّا أن سـنّة الله فيهما واحدة. هنا يضرب الله مثلاً آخر، وهو سـابق للأول بحقب زمنية طويلة، وهذا المَثَل هو قصة نوح عليه السلام وقومه، هـذه القصة التي غـيَّرت تفاصيـل أحداثها وجـه الأرض وطبيعة

الحياة فيها.

كان نـوح النبـي عَلَيْهِ السَّلَامُ أول أولي العـزم من الأنبيـاء، وكان كثير الخشية من الله، شديد البكاء من خشيته حتى عُدَّ من البكائين، فسُمِّي نوحاً لكثرة نَوْحِهِ، ولكن قومه كذَّبوه.

١ - ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾.

قوم نوح الذين تُشـير الشـواهد التاريخية إلى إقامتهم في بلاد النهرين، قد كذَّبوا الرسل. مما يعني أحد أمرين:

- إما أن قوم نوح لم يأتهم رسول واحد فقط هو نوح، وإنما الحقبة الزمنية التي امتدت إلى تسعمائة وخمسين سنة قد شهدت بعثة العديد من الرسل إليهم، وكانت رسالة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مهيمنة على أولئك الرسل.

- وإما أن التكذيب بنبي واحد يساوي التكذيب بالرسل جميعاً.

ورغـم وجـود النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورغم تواتر الرسـل، ولكن قومهـم كذّبوهـم جميعاً، وظلـوا على أصنامهـم عاكفين، وعـلى مصالحهـم الدنيويـة الباطلـة حريصـين، غافلـين عن أن رسـالات هـؤلاء الأنبياء والرسـل كفيلة بتحقيق مصالحهم الدنيوية عبر الطرق الشرعية، إضافة إلى تأمين سـعادتهم الأخرويـة، إلَّا أن وسـاوس الشـيطان وأماني النفوس الأمَّارة بالسوء منعتهم دون الانقياد إلى الرسل.

»تشـير -الآيـة الشريفة- إلى مَثَل من الأمثلـة القرآنية التي تنطق بالحـق، وتُعبِّر عن التفسير الأحسن للحركـة الاجتماعية والحركة التأريخية.

ومـن المعروف لمـن كان له قلـب، أن الخير من الله المنعم المفضل.. أما النقمة والضلال والشر، فمرده إلى الإنسـان نفسه وسوء أفعاله.

ولما كان التكذيب بالمرسـلين عائداً إلى مصدره البشري، فإن الإنسان إذ ذاك سيُجزى بما يُماثل جريمته في التكذيب.

٢- ﴿أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾.

بأمر من الله وبتطبيق من جنود يعملون بأمره لا يفترون، قد أُغرِقَ المكذِّبين. إذ كما التكذيب يُراد منه كبت الحق وقمع الحقيقة، كذلك هو الإغراق لم يُبقِ للمكذبين ولا لآثارهم باقية.

نعـم؛ إن الله تعـالى يريـد منا بالدرجـة الأولى أن نعي السُّـنَّة التاريخيـة الثابتـة لـدى تصفحنـا تاريـخ المدنيـات السـابقة، دون الانهماك في اكتشـاف التراث المادي البحت؛ لئلَّا نُصاب بداء البدء من الصفر الذي يعكس قلة العقل وندرة الخبرة وشدة الكسل.

٣- ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ﴾.

حقًّـا لم يكـن الإغراق لقوم نـوح لمجرد الانتقـام من هؤلاء القـوم، وإنما ليكون أيضاً عبرة لمـن يعتبر، كي يُنبِّه من هو غافل عما يُـؤدي به قعوده عـن الحق وتماديه في الباطـل. فقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تحوَّلـوا إلى علامـة بارزة في تأريـخ البشرية، إذ تلاشـت حضارتهم الضخمة حين عجزوا عن مواجهة سيول الماء وغزارة المطر.

ثم يُبيِّن ربنا سبحانه ما هو مَثَل يسري في كل عصر ومصر، يتمثَّل في سُنته الثابتة، وأنه قد أعد لكل ظالم أينما وُجد عذاباً أليماً، فقال سبحانه:

٤- ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

أي: أن سُـنة الله في خلقـه أن يَعِدَ الصالحين سـعادةً وخيراً، فيما يُوعِـد الظالمين بالعذاب الأليم. وكلما كان ظلم الظالمين أشـد، كان العـذاب آلم. ولعل الألم في هـلاك قوم نوح تمثَّل في طول الأمد

في المعانـاة، حيـث مـات قـوم نـوح بالإغراق، فـكان موتهـم موتاً بطيئـاً، حتى أصبحوا بهذه الإماتة أحدوثة تلوكها ألسـن البشر عبر التاريخ. فسـحق الله تعالى القوم المُكذِّبـين بعذابه الأليم، بينما نَجَّى الثلة القليلة من المؤمنين برسـالة نوح عليه السلام، الذين ركبوا سفينتهم التي صنعها لهم نبيهم بإرادة الله وإرشاده.

وهكـذا يُنجِّـي الله الصالحـين إذا لجـؤوا إلى كهف التسـليم لأولياء الله وركبوا سفينة النجاة المتمثلة في طاعة أئمة الهدى.

وهكـذا جـرت حـوادث التاريـخ؛ هلاك قـوم ونجـاة آخرين. ليعـرف العـالم بـأسره أن وراء هـلاك الظالمـين المكذبين، كـما وأن وراء نجـاة المؤمنين، يد الله عز وجل، هـذه اليد المنتقمة من أعدائها، الرحيمة بأوليائها. وأن من الخطأ الكبير تفسير حركة التاريخ بمعزل عن إرادة الله تعالى، لاسيما إذا كان الأمر متعلقاً بتكذيب أو تصديق رسله ورسالاته.

» بصائر وأحكام

١- عـلى المهتـم بمصيره أن يعرف أن نظرتـه إلى الحضارات السـابقة ينبغـي ألَّا تكـون إلى ما خلفته مـن البناء التقنـي والمنتوج الفنـي، وإنما إلى العوامل التي قضت عليها ودمرتها؛ ليعرف حقيقة الحضارة ودورتها التاريخية، ويتخذ منها عبرة تنفعه في حياته.

٢- مـن سـنن الله تعـالى في خلقه، أنه يعد الصالحين سـعادة وخـيراً، فيما يَعِدُ المكذبين عذاباً. وكلما كان ظلم الظالمين أشـد كان عذابهم أكثر ألماً.

» حضارات في مهب الريح

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾.

» من الحديث

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ، وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ؟. أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ؟. أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ وَأَطْفَؤُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ وَأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ؟..**»[1].

***

تفصيل القول

لكلٍّ من عادٍ وثمودَ وأصحاب الرَّسِّ -وخلال الفترات التي سبقتهم أو تخللتهم أو أعقبتهم- كيانات حضارية في الجزيرة العربية وأطرافها، والتي تعرضت للتغيُّرات المناخية بعد انتهاء طوفان النبي نوح عليه السلام وعودة الحياة إليها. وقد حظيت تلك

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١٨٢ (الوصية بالتقوى).

الكيانات بقسط من التطور، ولكن سرعان ما وقعت في متاهات الفساد، فبعث الله سبحانه رسلاً ليُنذروهم، ولكنهم أبوا إلَّا كفراً وطغياناً، رغم أن الله عز وجل قد آتاهم من النعم ما مكَّنهم من بناء مساكنهم حتى في قمم الجبال وعلى سفوحها وحول الينابيع وروافدها.. فما زادهم إلَّا نفوراً. فغضب الله عليهم، فصاروا كأعجاز نخل خاوية.

ولقد تنبَّه العلم الحديث إلى هذه الحقيقة، ومدى العلاقة بين سلوك الإنسان الطالح والصالح؛ وواقع الطبيعة. فإذا كانت الأرض عموماً تغضب على من يكفر بربها، فإنها تتحوَّل إلى مقام أمين لمن يُؤمن بربها. لاسيما وأن المُكذِّب بالله يملأ البر والبحر فساداً، على عكس المؤمن بالله حيث يسعى ليملأها عدلاً وقسطاً وإعماراً. وقد بيَّن ربنا تعالى هذه الحقيقة بقوله: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾(١).

» بصائر وأحكام

١- لقد بعث الله تعالى إلى الأمم التي نالت قسطاً من الحضارة رسلاً يرشدونهم إلى الخير والصلاح وينهونهم عن الشر والفساد.. ولكنهم لما أبوا إلَّا الكفر، غضب الله عليهم وأنزل عليهم عذاباً أليماً؛ فأصبحوا كأعجاز نخل خاوية.

٢- إن علينا أن ندرس آثار الأمم المنقرضة في ضوء بصائر الوحي لتتحوَّل إلى عبر نافعة لنا.

(١) سورة الروم، آية ٤١.

» إنذار الرب

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

***

سنة الله في هلاك الأمم الكافرة واحدة، وهي تمرُّ عبر مراحل. فإذا انحرفت أمة وفسدت فساداً اقتصاديًّا أو سياسيًّا أو جنسيًّا أو أي نوع آخر من الفساد، فإن الله تعالى يبعث إليهم رسلاً منذرين، فإن استجابوا لأولئك الرسل رفع عنهم العذاب، كما رُفع عن قوم يونس عليه السلام.. وفي هذه المرحلة يضرب لهم بهم الأمثال، كأن يقول لهم الرسول: أنتم جئتم بعد قوم عاد أو قوم ثمود أو قوم لوط. ويذكرهم بمصير عاد، بمصير ثمود، بمصير قوم نوح وغيرهم، ويضرب لهم الأمثال.

والمثل يعني جزءاً بارزاً من الحقيقة، وحينما يُنقل هذا الجزء البارز تُعرف به الأجزاء الأخرى.

ويستمر الرسول في الإنذار حتى تتم عليهم الحجة كاملة، فإذا أرادوا أن يتقبلوا المثل تقبلوه، وإلَّا فإن العذاب يسحقهم ويُدمِّرهم تدميراً.

كذلك قال ربنا تعالى في آية كريمة: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾(١).

وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾(٢).

ونستفيد من هذه الآية الكريمة بصيرة هامة، هي أن ربنا تعالى لرحمته الواسعة بعباده لا يأخذ الناس على غرة، ولا يُعذِّبهم إلَّا بعد أن يُواصل الإنذار بعد الإنذار، ويُعطيهم المهلة بعد المهلة.. لكن الناس مع الأسف الشديد إذا وجدوا أنهم لم يُعذَّبوا، كذَّبوا بالعذاب وطالبوا بنزوله بهم فوراً وتمادوا في الغي؛ لذلك قال ربنا سبحانه وتعالى:

١ - ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾.

يعني لم يُهلك الأمم السابقة كعاد وثمود، وكذلك القرون التي كانت قبل ذلك؛ لم يُهلكهم ربنا مرةً واحدةً ومن دون سابق إنذار، إنما أهلكهم بعدما ضرب لهم الأمثال.

ثم قال ربنا سبحانه:

٢ - ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾.

يعني بعد ضرب الأمثال لا يُمهلون ولا يُرحمون، وإنما ينتهون انتهاءً كاملاً.

والعبرة التي نستفيدها من هذه الآية؛ أن على الإنسان ألَّا

(١) سورة الإسراء، آية: ١٦.
(٢) سورة إبراهيم، آية: ٤٥.

يتمادى في الغي حينما يجد فرص المهلة، هذه الفرص إنما هي فرص نهائية حيث يأتي من بعدها العذاب الشامل.

» بصائر وأحكام

١- من رحمة الله بالإنسان أنه لا يُؤاخذه من دون إنذار.

٢- على الإنسان أن يستفيد من فرص المهلة ولا يتمادى في الغي إذا رأى أن العذاب قد تأخر عنه، لعلها هي الفرصة النهائية قبل أن يُصبح عبرة لمن يأتي بعده.

٣- على الإنسان أن يضع أمامه التاريخ ليعتبر به، قبل أن يُصبح هو عبرة لغيره.

» من عبر التاريخ

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

» من الحديث

فِي رِوَايَةِ أَبِي الْجَارُودِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «**وَأَمَّا الْقَرْيَةُ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ، فَهِيَ سَدُومُ قَرْيَةُ قَوْمِ لُوطٍ، أَمْطَرَ اللهُ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ، يَقُولُ: مِنْ طِينٍ**»[1].

***

تفصيل القول

١ - ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ﴾.

كان كفار مكة يمرون على القرية التي بادت وبقيت أطلالها، ولعل هذه القرية كانت تُمثِّل حضارة كبيرة، إلَّا أن القرآن لا يدعوها

(١) بحار الأنوار: ج١٢، ص١٥٢.

بالمدينة، ربما لأن المدينة هي التي تحكمها القيم الإلهية.

ويبدو أن من حكمة الله تعالى أنه يبقي على بعض آثار الذين ظلموا بعد هلاكهم لتكون علامة بارزة لمعرفة الحقائق الخاصة بهم، ولكي يتَّخذ منهم الآخرون عبرة. كما قال سبحانه بالنسبة إلى فرعون بعد أن أغرقه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾[1].

وكانت أطلال تلك القرية تدل على أنها قد دُمِّرت بفعل عذاب.

٢- ﴿ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾.

والمطر في القرآن يستعمل للإشارة إلى العذاب، بينما الغيث يستعمل للخير لأنه يُغيث الناس من القحط والفقر. وقد يكون مطر السوء أشعة ضارة نزلت على أهل هذه القرية، أو عاصفة، أو حجارة كحجارة طير الأبابيل، أو مطراً غزيراً أدى بهم إلى الغرق بعد انحرافهم بسيولٍ عاتية أو صاعقة من عذاب كتلك التي أصابت أصحابَ الأيكة الذين شاهدوا سحابةً فظنوا أنها عارضٌ مُمطرهم ولكنها تحوَّلت إلى عذاب، أو قومَ عادٍ الذين قصفتهم الصخور التي حملها الهواء العاصف بهم، وكقوم لوط الذين عصف بهم العذاب واقتُلعت الأرض وأبيدوا بزلزال شديد.

٣- ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾.

سؤال استنكاري يوجِّهه الله سبحانه وتعالى إلى كفَّار قريش، مفاده ضرورة النظر والاعتبار؛ ذلك لأن أفضل العلم وخير حكمة

(١) سورة يونس، آية: ٩٢.

هما اللذان يتوفران من خلال التفكر والاعتبار.. ولكن أولئك الجاهليين الذين كانوا يمرون بمساكن الذين ظلموا لم يعتبروا مما اقتضى الاستنكار.

إنهم كانوا يرونها، ولكن رؤيتهم لم تكن مقرونة بالتفكُّر بأسباب هذا الدمار الهائل الذي أحدثه عذاب الله، ولذلك فرؤيتهم لم تعد رؤية.

والسبب في إحجامهم عن الرؤية المطلوبة، أنهم كانوا ذوي قلوب محجوبة؛ إذ إنها ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1].

أي: أن جوهر الإنسان يصير جوهراً بليداً، حين ينعدم فيه التفكير والاعتبار، وينغلق قلبه. والعلة الكبيرة في بلوغهم هذه النقطة السحيقة من الحضيض يُبيِّنها القرآن الكريم بقوله:

٤ - ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

» إن التاريخ البشري مدرسة، ولكنه ليس لكل الناس، وإنما لأولئك الذين يفتحون بصائرهم لغرض الإعتبار، وأن آثار القرى المعذبة بعذاب السماء علامة مهمة من علامات مدرسة التاريخ.

فهم لا يُؤمنون بالآخرة ولا يتوقعون بعثاً إلى عالم جديد، فهم عاشوا في حدود الحياة الدنيا وجحدوا بما وراءها فانغلقت قلوبهم.

لقد أحاط التفكير المادي بأفكارهم، فلم يعودوا يُفكِّرون بما وراء المادة من قوانين، حتى أضحوا يُنكرون عالم الغيب جملةً وتفصيلاً، بل وينسبون كل حديث عما وراء المادة إلى الأساطير والخُرافات، وكل ظنهم أنهم يعيشون ويموتون وما هم بمبعوثين، ولذلك فهم لا يُعيرون أدنى

(١) سورة الحج، آية ٤٦.

أهميـة لمن مـات قبلهم، إذ لا حسـاب أخـروي في حسـاباتهم؛ أي أن عقولهـم قـد انغلقت وقلوبهم قـد عميت وانعـدم فيهم التفكير والاعتبار؛ لأنهم أنكروا أصلاً فطريًّا هامًّا جدًّا، وهو أصل الجزاء؛ بعقابـه وثواب، وأنكروا أصل الحكمة من وجودهم وإيجادهم على الأرض في الحياة الدنيا، واعتبروا أنفسهم مجرد كائن طبيعي، يعيش ويفنى كبقية الكائنات غير المعنية بالحشر إلى يوم القيامة.

إن الإيـمان بيـوم القيامـة الذي يُحـرض عليه القـرآن المجيد وعمـوم المنهج الإسـلامي في التفكير هـو حجر الزاويـة في المنهج العلمـي السـليم. وهكـذا كان مـن ينكـر الآخرة أعمـى حتى عن معرفـة الدنيا؛ لأن الدنيا وجه واحد من الحقيقة فقط، فكيف يُفسِّر الحقيقة من لا يرى إلَّا وجهاً واحداً منها.

ومن هنا فإن المؤمن بالآخرة يُضاعف يقينه؛ هذا اليقين الذي يرقى بذهن الإنسان إلى مستوى أخذ العبرة ممن سبق ومن تفاصيل التاريخ، ليجتنب المهالـك وينطلق في صناعة كيان حضاري مُتميِّز محصَّن عن التعرُّض للعذاب الإلهي كما تعرَّضت له الحضارات من قبل.

ومـن هنا؛ يتضـح أن التاريخ البشري مدرسـة، ولكنه ليس لـكل النـاس، وإنـما لأولئـك الذيـن يفتحـون بصائرهـم لغرض الاعتبـار، وأن آثـار القـرى المُعذَّبة بعذاب السـماء علامة مهمة من علامـات مدرسـة التاريـخ. هذه المدرسـة التـي لا تهتـم بالقصور الخربة والحجارة المُكدَّسـة والتماثيل القديمـة، بقدر اهتمامها بما هو وراء هذه الأشـياء، من قوانين حكمتها ورسـمت خارطة مسيرتها على مر السنين والقرون.

» بصائر وأحكام

١ - من حكمة الله تعالى أنه يُبقي على بعض آثار الذين ظلموا آيةً وعلامةً لمعرفة الحقائق الخاصة بأخذ العبرة منها.

٢ - إن الإيمان بيوم القيامة من شأنه أن يُضاعف يقين الإنسان؛ فيجعله أشد اهتماماً بأخذ العبرة، وأكثر حرصاً على الاستفادة من تفاصيل التاريخ؛ ليتجنب المهالك وينطلق في صناعة كيان حضاري سليم.

» لماذا الاستهزاء بالرسول؟

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

١ - ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾.

تهرباً من الإيمان بالمنطق السليم والدعوة الصادقة ترى البعض يبدأ بانتقاص شخصية من يحمل ذلك المنطق وتلك الدعوة. وهكذا شرع الكفار بالاستهزاء بالنبي ﷺ تغطيةً على عجزهم عن محاورته محاورة منطقية؛ بل تراهم يحاولون مغالبة أنفسهم التي كادت تستيقظ تحت تأثير الحجج الدامغة. وهكذا جاء استهزاؤهم فراراً من الحقيقة ومن أدلتها الواضحة، التي اخترقت فطرتهم، وأيقظت عقولهم، ولكنهم كابروها وكفروا بها واستهزؤوا بصاحب الدعوة.

وهنا يُطرح التساؤل التالي: أَوَلَمْ يخلق ربُّنا البشر في أحسن

تقويم في جسمه وروحه وعقله، فلماذا الكفر بالحقيقة والاستهزاء بالرسول؟.

الجواب: لأن البشر يتهربون من المسؤولية، فتراهم يُنكرون يوم الجزاء وتختلط عندهم المعايير؛ ولذلك تراهم يُوغِلون في عنادهم للرسول، غافلين عن أن أصل عنادهم للرسول مردود إلى إنكارهم لإمكانية حدوث يوم القيامة، ذلك اليوم الثقيل الذي يقفون أمام ربهم للحساب العسير، وهو -بدوره- ناجم عن هروبهم من المسؤولية.

بلى؛ إن إنكار يوم القيامة يحجب العقول، فأنَّى لمن لا عقل له أن يجلس إلى طاولة الحوار المنطقي؟.

وهكذا استنكروا نُبوَّة الرسول وقالوا:

٢- ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾.

إنهم قد اتَّخذوا لأنفسهم معايير باطلة لتقييم الناس، فاعتقدوا -مثلاً- أن أفضل الناس أغناهم مالاً. ولهذا لم يعترفوا بفضائل الرسول من الشرف الرفيع والصدق والأمانة.. وهكذا استهزؤوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

» بصائر وأحكام

١- لقد خلق الله سبحانه الإنسان في أحسن تقويم، سواءً من حيث تكوينه الجسدي أو الروحي؛ ولكن لماذا تراه ينحرف ويضل وينسى؟.

لأنه يتهرب من أمانة المسؤولية، فيتهرَّب من الحقيقة، وحتى

لو عرفها لم يعترف بها عناداً واستكباراً.

٢- مـن أجـل التهرُّب من ضغط الأدلـة الدامغة ومن وخز الوجدان، كان الكفار يستهزئون بالرسول.

٣- لكيـلا يضـل الإنسـان عـن السـبيل، عليـه أن ينظر إلى الدعوات مُجَرَّدة عن الهوى وعن العصبيات.

» سيعلم الكافرون من أضل سبيلاً

﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

إذا أردنا رسم هرم لتراتب العوامل المضادة للعلم والإيمان، فإننا سنجد اتِّباع الهوى في رأس الهرم، حيث يستبد آنئذ الجهل بمملكة النفس وتبدأ رحلة التسافل عند الإنسان. وبالعكس، إذا انتصر العلم والإيمان حيث تبدأ رحلة التكامل.

وحضيض التسافل، يُسمِّيه القرآن الكريم: اتِّباع الهوى واتِّخاذه إلهاً. قال الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾؟[1].

والهوى يتشكل خارجيًّا في آلهة تُعبد من دون الله، فربما صوَّروها، على هيئة صنم أو طاغوت أو مال أو منصب وجاه. ولذلك تمَّ الحثُّ على مقاومة الجبت، و(هو هوى النفس) قبل

(١) سورة الفرقان، آية: ٤٣.

الحث على مقاومة الطاغوت؛ لأن جهاد النفس أكبر وأولى من جهاد الطاغوت. وما لم يتم جهاد النفس، لن تعني مجاهدة الطاغوت شيئاً.

إن عبادة الهوى -كما قدَّمنا- هي رأس الهرم في قضية الكفر بالله تعالى؛ إذ يمهد لها الإنسان بالكفر بالقيامة، ثم الكفر بالرسول كما تحدَّثت عنه الآيات السابقة، ثم يهبط الكافر إلى مستوى العكوف على هوى نفسه فتراه يعبدها عبادةً مطلقةً.

» الهوى يتشكل خارجيًّا في آلهة تُعبد من دون الله، فربما صوَّروها، على هيئة صنم أو طاغوت أو مال أو منصب وجاه.

وهنالك تنقلب لديه المقاييس، حيث يعتبر المنكر معروفاً والمعروف منكراً، حتى أنه ليعتبر الدعوة إلى الهدى من جانب الرسول ﷺ نوع ضلالة.

١- ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾.

ثم إنهم سَمُّوا عنادهم صبراً. والآية دلَّت على مدى قوة الأدلة التي جاء بها الرسول إليهم حتى جعلتهم -لولا عنادهم- يستسلمون لها، ذلك أن الكلمة الصادقة التي جاءت بها رسالات الله كانت نافذة في ضمائرهم، مثيرة لعقولهم، متوافقة مع ما أودعه الرَّبُ في فطرتهم.

بلى؛ إن العناد يوقع ابن آدم في مشاكل لا تنتهي، قد تُصاحبه إلى قبره، بل إن من الناس من يلتصق بالعناد حتى في يوم القيامة، بل وحتى في النار، بحيث لو أن الله تعالى رده إلى الدار الدنيا فرضاً، لعاد إلى ما نُهي عنه. يقول الله تعالى عن الكفار في النار: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾[1].

ويتضح من ذلك، مدى عظمة من يختار طريق التوبة ويُفضِّله على طريق الاعتزاز بالإثم؛ إذ التوبة الحقيقية تعد في المفهوم السماوي الغاية في بلوغ الإنسان التائب أعلى مراتب العقل، وتحكيم المعايير الصحيحة في نفسه.

كيف تقنع من تردَّى في مهاوي الكفر حتى انقلبت عنده المقاييس؟. لا شيء ينفعه من المنطق السليم، أَوَلَيس هو قد تهرَّب من المنطق وتشبث بالاستهزاء هروباً من ضغط وجدانه؟.

بلى؛ هناك سبيل واحد قد ينفعه؛ إنذاره بما سيلاقيه بتكذيبه. وهكذا قال الله تعالى:

٢ - ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

لهؤلاء الذين امتزج العناد بنفوسهم، حتى قلب فيها المفاهيم وأمات فيها العلم، يُوجِّه الله عز وجل إنذاره الشديد، ويُخبرهم بأنه تعالى سوف يمهلهم، ثم في الساعة التي يُقدِّرها سيعلمون مدى خسرانهم،وذلك حين يرون العذاب، سواءً أكان عذاب الدنيا، أو عذاب القبر، أو عذاب يوم القيامة.

ولكن ماذا سوف يعلمون؟.

سيعلمون حين يرون عذاب الله حقيقة القيم التي أركزها الرَّبُّ في فطرة البشر، وأن انقلابهم على هذه القيم لم ينفعهم نفعاً، بل إن علمهم بمن هو أضل سبيلاً لن يجديهم شيئاً غير تضاعف حسرتهم واشتداد معاناتهم وآلامهم؛ لأن عذاب الله لا مردّ له ولا مَنْجَى منه.

(١) سورة الأنعام، الآية ٢٧ - ٢٨.

» بصائر وأحكام

١- إذا أردنا رسم هرم لتراتب العوامل المضادة للعلم والإيمان، فإننا سنجد اتِّباع الهوى في رأس الهرم، حيث يستبد الجهل آنئذ بمملكة النفس وتبدأ رحلة التسافل عند الإنسان.

٢- إن العناد يُوقع ابن آدم في أزمات قد تُصاحبه إلى قبره، بل إلى يوم القيامة.

٣- التوبة الحقيقية تُعَدُّ في المفهوم السماوي الغاية في بلوغ الإنسان أعلى مراتب العقل وتحكيم المعايير الصحيحة في حياته.

٤- على الإنسان أن يتذكَّر بين الحين والآخر قيم الحق ويستحضرها، حتى لا تنهاث في ذهنه تلك القيم أو يخبت ضوؤها.

» أرأيت من اتخذ إلهه هواه؟

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

» من الحديث

* قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَا تَحْت ظِل الْسَّمَاءِ مِنْ إِلَهٍ يُعْبَدُ مِنْ دُوْنِ اللهِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ هَوًى مُتَّبَعٍ**»[1].

* قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**الْهَوَى إِلَهٌ مَعْبُوْدٌ**»[2]. وقال عليه السلام: «**لاَ دِيْنَ مَعَ هَوًى**»[3].

***

تفصيل القول

١ - ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾.

يختار الإنسان معبوده بنفسه، رغم العوامل التي تضغط عليه

(١) المعجم الكبير، الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني، ج٨، ص١٠٣.
(٢) غرر الحكم: حديث رقم ٦٩٩٩.
(٣) غرر الحكم: حديث رقم ٧٠٢٥.

لاختياره،إذ أنها رغم كثرتها وشدة تأثيرها، تبقى عوامل مساعدة وليست عوامل حتمية. وهكذا كان الإنسان مسؤولاً عن اختيار عقيدته مهما شكَّلت سائر العوامل المساعدة عليه من ضغوط، كالمجتمع والاقتصاد والسياسة وتراث الآباء.

إن عبادة الهوى تتشكَّل -كما سبق القول- على هيئة صنم أو طاغوت أو عنصرية أو ما أشبه، ولكن الموجِّه للإنسان في كل هذه الهيئات إنما هو هواه المطاع من دون الله.

٢- ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾

ونستلهم من هذه الكلمة، بصائر شتى:

أولاً: إن نافذة التأثير في الإنسان لترك عبادة الله سبحانه إلى عبادة الأنداد، هي اتِّباع الهوى. فإنك لا تجد من يعبد الطاغوت حبًّا له، إنما خشيةً منه أو طمعاً. والخشية والطمع هي من عوارض الهوى.

ثانياً: إن اتِّخاذ الأنداد (عبادة الهوى مثلاً) لا يعني بالضرورة الركوع والسجود وإقامة الشعائر لهم، بل إنما هو الاسترسال في الاتِّباع.

ثالثاً: السبيل إلى إخلاص العبودية لله سبحانه يتمثَّل في نهي النفس عن الهوى، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1].

وبعد هذا يُبيِّن لنا السياق القرآني حقيقة أخرى وهي:

(١) سورة النازعات، آية: ٤٠-٤١.

٣- ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

حينما يبلغ الفرد هذه المرحلة المنحدرة من عبادة هواه، فإنه لن تنفعه شفاعة الشافعين؛ لأنه قد اظْلَمَّ كل قلبه. وكأن هذا المقطع من الآية ينتظم إلى حد بعيد مع قوله تعالى في موضع قرآني آخر: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾[1].

وهذا الدرك الأسفل إنما اختاره هو لنفسه، وإن من الظلم أن تنسب ذلك إلى فعل الله سبحانه وتعالى دون الإنسان نفسه، لاسيما وأن النبي الذي ينفي الله تعالى عنه الوكالة على من يتبع الهوى فيعبده فيصل إلى واقع ميؤوس منه.. قد أدّى مهمته بأفضل شكل، كما أن رسالة النبي قد حوت كل حكم وصيغت بأفضل صيغة.

» بصائر وأحكام

١- إنما الإنسان مسؤول عن سلوكه واختيار عقيدته، بالرغم من كل العوامل الضاغطة، كالمجتمع والاقتصاد والسياسة وتراث الآباء.

٢- إن من يعبد هواه قد يصوره على هيئة صنم أو طاغوت أو عنصر أو سلطة أو ثروة، ولكن الموجِّه له في كل هذه الهيئات إنما هو هواه المُطاع.

٣- على الإنسان أن يُراقب نفسه دائماً لكيلا يسقط في شَرَك عبادة الهوى.

(١) سورة الزمر، آية ١٩.

» الكفار أضل من الأنعام سبيلاً

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

» من الحديث

قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَوْ حَبَسَ عَنْ عِبَادِهِ مَعْرِفَةَ حَمْدِهِ عَلَى مَا أَبْلاهُمْ مِنْ مِنَنِهِ المُتَتَابِعَةِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمِهِ المُتَظَاهِرَةِ، لَتَصَرَّفُوا فِي مِنَنِهِ فَلَمْ يَحْمَدُوهُ، وَتَوَسَّعُوا فِي رِزْقِهِ فَلَمْ يَشْكُرُوهُ. وَلَوْ كَانُوا كَذَلِكَ لَخَرَجُوا مِنْ حُدُودِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى حَدِّ الْبَهِيمِيَّةِ فَكَانُوا كَمَا وَصَفَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾**»[(١)].

***

تفصيل القول

حينما يسمع الإنسان قولاً، أو يعقل قضية ثم لا ينتفع بها سمع أو عقل، فإنه في الحقيقة كان كأن لم يسمع ولم يعقل. لماذا؟ لأنه لم يحقق

(١) الصحيفة السجادية: رقم (١) إذا ابتدأ عليه السلام بالدعاء بدأ بالتحميد لله.

الهدف من سمعه وعقله، وعليه أن يُراجع منهجيته في التفكُّر.

وإن من أهم عوامل الضعف في المنهجية: أن الإنسان يفتش بين الموضوعات ما يتناسب وهواه؛ مثل مُسبَّقاته الذهنية أو موروثاته الثقافية أو مصالحه الذاتية أو حميَّاته وعصبيَّاته.

فمثلاً قد تكون من مُسبَّقات الذهن لإنسان ما؛ قاعدة الولاء المطلق للحاكم وقناعته التامة بعدم الخروج على الحاكم وإن ظلمه، وهو حين يصطدم بالحقيقة السماوية القائلة: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1]، أو قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[2]، فإنه إن لم يأخذ هاتين البصيرتين بعين الاهتمام، يكون -في واقع أمره- كمن لم يسمع شيئاً ولم يعقل أمراً. بمعنى أنه تعمَّد تجاهل الحقيقة. وهذا أمر يُحرّمه الله تعالى ويُدينه أشد الإدانة، بل ويُعاقب عليه؛ لأنه قد صدر منه كفران عملي لما أنعم الله تعالى عليه، من كرامة السمع والعقل، حتى هبط إلى مستوى المخلوقات الأدنى.

١ - ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾.

للوصول إلى الحق يسلك الإنسان أحد السبيلين: فإما أن يعقل بنفسه ويستفيد من تجاربه أو مما أودعه الله في قلبه من ركائز المعرفة، وإما يستفيد من تجارب الآخرين ويستمع إليهم. ولكن المشكلة عند هؤلاء فقدانهم لكلا السبيلين؛ فلا هو يسمع من الآخرين سماعاً ينتفع به، ولا هو يعقل. ولكن لماذا؟.

لأنهم اختاروا العمى على الهدى، نتيجة تفضيلهم رغباتهم على عقولهم، وأوهامهم على الحقائق.

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٧.
(٢) سورة المائدة، آية: ٤٤.

ونقرأ في التاريخ أن أحد قادة قريش -وهو الوليد بن المغيرة- جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وطلب منه أن يعرض عليه الدين، فتلا عليه آياتٍ من سورة فُصِّلت الكريمة، فما أن بلغ النبي من الآية الكريمة: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾(١)، فإذا بالوليد لا يتحمَّل المزيد، بل اقشعَّر بدنه، وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته (من شدّة تأثّره بالقرآن) و مَرَّ إلى بيته، ولكنه مع ذلك اعتبره سحراً(٢). لماذا؟ لأنه لم يستطع أن يواجه ما في نصوصها من حقائق مناقضة لمسبَّقاته الفكرية وموروثاته الثقافية، ولأنه كان يرفض التفاعل الإيجابي مع النص القرآني الصادق، تمادياً في غيِّه.

٢- ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.

حين يفقد الإنسان منهجية التفكير، ويتجبَّر على آيات الهدى فإنه يتسافل إلى مصاف الأنعام، بل يهبط إلى ما هو أدنى منها. لماذا؟.

لأن الأنعام تعيش تابعة لما أودع الله تعالى فيها من الغرائز، فلا تجد لنفسها مناصاً من الانقياد لتلك الغرائز، وهي تكفيها لاستمرار حياتها ومواجهة الأخطار. أما الإنسان الذي كرَّمه الله تعالى بالقدرة على التعقل، فإنه لا يقدر على مواجهة التحديات إلَّا بالعقل، فإن لم ينتفع به فإنه سوف يُمسي أسوء من الأنعام، لأنه لم يستفد من هذه القدرة التي تعين البشر على التطوُّر في الحياة عبر سبر الحقائق وتسخير الطبيعة بها، ولكنه حين أبى بعناده واستكبر بغروره وأنانيته.. أنَّى له أن يتطور ثقافيًّا وهو قد أغلق على عقله كل منفذ يمكن أن يمر من خلاله شيء جديد؟. ولذلك؛ فإن مثل هذا الفرد يخلق لنفسه دائرةً محكمة الإغلاق ثم يتقوقع فيها، فإذا جاء شخص وأراد أن يكسر طوق هذه

(١) سورة فصلت،آية ١٣.
(٢) بحار الأنوار، ج٩، ص٢٤٤، الحديث ١٤٨.

الدائرة، فإنه يواجهه ويقاومه بالمستوى المماثل لقوة بناء هذه الدائرة.

ومثال ذلك: أن قوم النبي إبراهيم عليه السلام قرّروا قتله وحرقه بالنار، وهو من أشد أنواع القتل. لماذا؟.

لأنه حطَّم دائرة كبريائهم عندما حطَّم أصنامهم؛ أي أن تقديسهم لأصنامهم كان ضمن دائرة صلدة قد أحاطوا أنفسهم بطوقها، فكانت ردة فعلهم عنيفة للغاية تجاه إبراهيم النبي عليه السلام لأنه حاول إخراجهم من هذه الدائرة الزائفة.

ولنا أن نتصوَّر أيضاً مستوى الحقد الذي أضمره أهل مكة ضد الرسالة حينما عمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام إلى تسفيه معتقداتهم وتحطيم أصنامهم.

والآية (٤١) إلى الآية (٤٤) من سورة الفرقان قد حدَّدت أسباب الانحراف لدى الإنسان، وهي العناد الشخصي، والموروثات الاجتماعية، واتِّباع الهوى، حيث تتسلط عليه حالة جعلته أدنى مستوى من الأنعام.

» بصائر وأحكام

١- حينما يسمع الإنسان قولاً ما، أو يعقل قضية ما، ثم لا ينتفع بما سمع أو عقل، فإنه في الحقيقة كان كما لو لم يسمع أو يعقل، وعليه بمراجعة منهجيته في السماع والتعقل.

٢- حين يفقد الإنسان منهجية التفكير ويتجبَّر على آيات الحقيقة فإنه يهبط بواقعه إلى مصافِّ الأنعام، بل إنه يزداد عناداً إلى ما هو أدنى وأضل؛ لأنه لم يُزوَّد بالغرائز كما عند الأنعام.

» هذا خلق اللّـه

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ﴿٤٥﴾ ﴾.

» من الحديث

في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ فقال عليه السلام: «**الظِّلُّ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ**»(1).

***

تفصيل القول

١ - ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾.

لماذا جاء الخطاب بهذه الصيغة؟. أليس لأن الاستفهام دعوة إلى الإنسان كي يجعل من رؤيته إلى المخلوقات نظرةً ثاقبة لكي يعرف مدى حكمة الله في خلقه ودقَّة صنعه وواسع قدرته؟ ويؤيد

(1) تفسير القمي: ج٢، ص١١٥.

ذلـك أن فعل (رأى) لا يحتاج إلى التعدي بـ﴿إِلَىٰ﴾ ولكن.. لما كان فعل الرؤية، هنا بمعنى النظر، فقد أضيف إليه حرف ﴿إِلَىٰ﴾.

ولم يتم التعبير بمفردة اسم الجلالة (الله) مثلاً بدلاً من كلمة الـرَّبّ، للإشـارة إلى التدبير المبـاشر للخلق والاسـتواء على عرش الملك.

ولكن ما هو فعل الرَّبّ (التدبير) الذي ينبغي أن يلتفت إليه الإنسان؟. إنه:

٢- ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾.

أي عـلى الإنسـان أن ينظـر مليًّا لعله يكتشـف واقـع الظل، الـذي تدل حركتـه إلى يد القـدرة، حيث يشرف عليـه تدبير الرَّبّ إشرافـاً تامًّـا ومسـتمراً. فالظـل هو احتجـاب النـور والضوء عن مسـاحة ما بفعل حاجز ما، كأن نضع عموداً، ليكون له ظل مخالف من حيث اتّجاه الضياء.

وحينـما يأمرنـا الـرَّبّ سـبحانه بالنظـر إليه من خـلال آية، تتملَّكنـا روعتها ودقتها ونفاذ حكمتها، مثـل حركة الأرض وهي تدور حول الشـمس فتنعكس على ما فيها أشعتها وظلال أشعتها، فإذا بنا نرى ما في الأرض من جبال وأشجار وعمارات وما فيها من آيات الجمال والجلال.

أقول: حينما يأمرنا ربنا سـبحانه بالنظر إليه من خلال صنعه المتقـن وتدبيره الحسـن؛ فإنه يفتح إلى قلوبنا نوافـذ إلى نوره المتألِّق، حتى ننظر إليه بأبصار القلوب فنرى جلاله وجماله ونرى آثار رحمته وفواضل مننه.

حقًّا إنها نعمة كبرى أن يأذن الرَّبّ لعبده بالنظر إليه من خلال آياته، ويحسّ بحلاوة مناجاته، ويرتوي من عذب سقياه، ويُطهِّر قلبه من أدران الغفلة عنه؛ فيقتدي بأولياء الله الصالحين، حيث نرى الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام يقول: «**وَإِلَيْكَ شَوْقِي، وَفِي مَحَبَّتِكَ وَلَهِي، وَإِلَى هَوَاكَ صَبَابَتِي، وَرِضَاكَ بُغْيَتِي، وَرُؤْيَتُكَ حَاجَتِي، وَجِوَارُكَ طَلِبَتِي، وَقُرْبُكَ غَايَةُ سُؤْلِي، وَفِي مُنَاجَاتِكَ [أُنْسِي] وَرَاحَتِي**»(١).

» إنها نعمة كبرى أن يأذن الرَّبّ لعبده بالنظر إليه من خلال آياته، ويحسّ بحلاوة مناجاته، ويرتوي من عذب سقياه، ويُطهِّر قلبه من أدران الغفلة عنه.

ومدُّ الظل يعني: حركته وامتداده من كل اتِّجاه.

٣- ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾.

فالظل وامتداده وسكونه منوط بمشيئة الله سبحانه وتعالى. ولا شيء في هذا الكون منفصل وجوده وحركته وحياته وموته عن الإرادة الربوبية؛ إذ كل الأشياء، مهما استطالت وكبرت أو تضاءلت وصغرت، فإنها متعلقة بهذه الإرادة المطلقة. ولو شاء الله -تبارك وتعالى- لجعل الظل ساكناً لا يتحرَّك، ولأفقده القدرة على الامتداد على مساحة الأرض.

أي رغم أن الظل معلول لعلة تامة وهي الشمس وحركتها الطبيعية، كما يبدو، إلَّا أن مشيئة الله لها من الإطلاق ما هي قادرة به على أن تجعل الظل ثابتاً ساكناً إما بسكون مصدره وهو حركة الشمس أو حتى رغم تحرُّك مصدر الضوء. وهذا مَثَل على قدرة الله سبحانه وتعالى، إذ لا قانون فوق قدرة الله ومشيئته؛ لأنه تعالى هو مُوجِد القوانين الطبيعية.

(١) الصحيفة السجادية: مناجاة المريدين.

٤ - ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

أي إن معلولية الظل لحركة الشمس، أو إن شئت قلت: إن هذا التلازم بينهما إنما هو جعل إلهي نابع عن إرادته، فلا شيء يعلو القهر الإلهي.

فالشمس إذاً مهيمنة بإرادة الله على وجود الظل، وهي الدليل عليه، إذ لا ظل بلا مصدر للضوء، كالشمس أو المصباح.

لقد جعل الله الشمس دليلاً على الأظلة التي تمتد إلى مسافات بعيدة جدًّا حين الشروق، وتتقلص وتنكمش حين الظهر، وتعود إلى حالة التمدد عند الغروب، ثم تنقبض وتتلاشى عندما يغيب القرص نهائيًّا حيث يحلّ الليل.

وهذا الذي أشارت إليه الآية الشريفة التالية: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾[1].

وكما الظل يبسطه الرَّبّ ويمدُّه ثم يقبضه إليه قبضاً يسيراً، كذلك بيده قبض وبسط خلقه جميعاً. فهو الذي يُخرج المرعى ثم يجعله غثاءً أحوى، وهو الذي يجعل الحيوان المنوي إنساناً سويًّا ثم يُنكِّسه في الخلق ثم يقبضه إليه ثم يُعيده تارة أخرى، وهو الذي فتق السماوات والأرض بعد أن كانت رتقاً ثم يطويها كطي السجل للكتب كما بدأ الخلق الأول يعيده.

وهكذا دورات الخلق يبسطها ويقبضها كيف يشاء. ولو تدبر المرء في ظل الشمس كيف يمدُّه الرَّبُّ ثم يقبضه، لعرف قدرة الله المهيمنة على خلقه كيف تتصرَّف في الخلائق سبحانه.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٤٦.

» بصائر وأحكام

١- لا شيء في الخلـق منفصـل في وجوده وحركته عن إرادة الرَّبّ، والنظر إليها بتأمل وسيلة الوصول إلى المعرفة.

٢- لا تنظر -حين تصبح أو يمشي- إلى الظواهر التي تُحيط بك. وإنما انظر لترَ ربَّك من خلال آيات قدرته وعظيم رحمته.

» هيمنة اللّه

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

***

تفصيل القول

لعل صيغة الجمع هنا ﴿قَبَضْنَٰهُ﴾ للإشارة إلى الهيمنة الإلهية على كل الأسباب المؤثرة على الخلق، من الأجسام البارزة فوق الأرض ومن أشعة الشمس، والشمس بذاتها أيضاً.

أقول: إن في مواجهة دوافع الكفر والضلال التي تمَّت الإشارة إليها في الآيات القليلة السالفة، تتحدَّى ركائز الإيمان بالله، ومن أهمها سعة إطار النظر إلى المحيط ليرى العالم في إطار واحد، لأن سعة الرؤية تعني إحراز أكبر قدر ممكن من الحقائق.

فحينما تكون نظرتنا إلى العالم المحيط بنا نظرة ثاقبة ذات تأمل واعتبار، نجد الأرض وقد انبسطت عليها أشعة الشمس وظلالها ثم انحسرت عنها آية من آيات الرَّبّ. وهناك تُصبح الشمس وظلالها فوق الأرض وما يعتريها من بسط وقبض مدرسةً إيمانية لنا وهدى.

وهكذا يزداد المؤمن قرباً من ربِّه مع كل شارقة وغاربة.

» بصائر وأحكام

١- من أهم منافع الإيمان بالله سبحانه اتِّساع الرؤية إلى المحيط؛ لأن اتِّساع الرؤية يعني إحراز أكبر قدر ممكن من المعرفة.

٢- حديث الرَّبّ سبحانه عن الشمس وهي في الجهة العليا للنظر، وعن الظلّ فوق الأرض في حال إنسيابه وتمدُّده وانقباضه.. يوصل رؤية الإنسان إلى ذروة الاتِّساع والانفتاح، ومن خلالها ينقله إلى معرفة الرَّبِّ معرفةً حقيقيَّة.

» ظواهر الخليقة مناهج المعرفة

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

» *من الحديث*

* رُوِيَ عَـنْ جَابِـرِ بْنِ عَبْدِ الله الْأَنْصَـارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «قَالَ رَسُـولُ الله صلى الله عليه وآله: **قَالَتْ أُمُّ سُـلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ لِسُـلَيْمَانَ عليه السلام: يَا بُنَيَّ إِيَّـاكَ وَكَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ، فَـإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ تَـدَعُ الرَّجُلَ فَقِيراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

* قال الإمام الصادق عليه السلام: «**النَّوْمُ رَاحَةٌ لِلْجَسَدِ**..»(٢).

***

تفصيل القول

السياق القرآني لهذه الآية الكريمة وما بعدها من الآيات الثلاث التالية يدعو إلى التأمل في منظومة متكاملة من الظواهر

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٣، ص٥٥٦.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص٤٠٢.

المحيطة بنا والتي إذا ما نظرنا إليها نظرة البصير كوحدة واحدة، فسوف نزداد خبرة بالسنن الإلهية الحاكمة في أرجاء الخليقة ومن خلالها نزداد عرفاناً لربنا تعالى.

فمادُّ الظل وقابضه وخالق الشمس هو الذي جعل الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار نشوراً، وهو الذي أرسل الرياح بُشرىً لرحمته، وهو الذي يُنزل من السماء ماءً طهوراً ليغيث الناس بعد أن تراءى لهم شبح المجاعة.

هكذا يُعرِّف الله سبحانه نفسه للإنسان عبر صور تتكامل في خلقه، وفي تكاملها آية تدبير، لئلَّا ينظر البشر إلى ما حوله من ظواهر بمنهجية تجزيئية، لأنها لا توصل المرء إلى الحقيقة التامة.

إن المخلوق عاجز عن الإحاطة علماً بربه، وإنما عليه أن يعرفه بأسمائه ومن خلال آياته.

١ - ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ﴾.

ثمة ثلاث زوايا ينبغي للإنسان التأمل فيها، وهي زوايا لمثلث واحد؛ هي زاوية ظواهر الخلق، وزاوية آيات الخالق، وزاوية العلاقة بين الجوانب المختلفة من خلق الله.. كيف تتكامل؟.

فهذه الشمس -مثلاً- أنظرُ إليها، فأرى فيها النور، وألمس منها الدفء، وأستدل بها على الرَّبِّ خالقها، وأُدلِّل بجمالها على جانب من جماله، وبعظمتها على شيء من عظمته، وبحركتها على جانب من جوانب هيمنته. فهاتان إذاً زاويتان؛ زاوية الشمس المخلوقة، وزاوية آيات الرَّبِّ الخالق. وهناك زاوية ثالثة، هي زاوية العلاقة بين الشمس وبين النظام المحيط بها؛ المؤثر فيها والمتأثر بها.

ويكشـف هذا الأمر لنا أنّ الله تعالى حينما يُبيِّن الحقائق، فإنه يبينها من زوايا متعددة. ومنطق القرآن هنا ينسـب هذه الأفعال إلى الله سبحانه باسـتخدام مفردة ﴿ وَهُوَ ﴾ رغم أننا نعرف أنه سبحانه قد سـخّر لهذه الأعمال ملائكةً ووضع لها سنناً وأنظمة، مما يعني أن الفعل والتسـخير عائدان بالأصل إلى الله تعالى، ليس فقط في خلق الأشـياء وتقديرها ووضع أنظمة لها، بل وأيضاً في تدبيرها وإجراء السنن عليها لحظة بلحظة.

وحـين نـرى أن هذا النظام الدقيق مسـخَّر للإنسـان، فترى الليل لباسـاً له والنهار معاشـاً والرياح والشـمس وظلالها وغيرها تخدمـه، نعـرف أنه -في نهاية المطـاف- كائن كريـم، وعليه أن يعي آفـاق هـذه الكرامة فيعبد ربـه ولا يعبـد مخلوقاً مثلـه أو أدنى منه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ﴾.

هكذا جعل ربنا الظلام لمنفعة الإنسـان، حيث يسـتتر به ابن آدم كما يستتر باللباس.

٢- ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا ﴾.

إذ النـوم راحة لأعضاء الجسـد، من تعب النهار ومشـاغله. وهـذه نعمـة كبـيرة جـدًّا، قـد يغفل عنهـا الإنسـان السـوي، لأنه يسـتثمرها بشـكل تلقائي، إلَّا أن المُصاب بالأرق يعي جيداً حقيقة هذه النعمة.

٣- ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾.

لم يصـف النهار ولم يسـمِّ فائدتـه باليقظة، وإنما بالنشـور؛ إذ النهار يقظة وانبعاث.

إن هـذا العـرض المُميَّـز للظواهـر المخلوقة يُؤكِّـد لابن آدم ضرورة الانفتـاح عليهـا وعـلى أمثالهـا، دون التقوقـع عنهـا؛ لأن التقوقـع يبعده عن الإيمان بربِّـه، لأن الإيمان قرين المعرفة، والمعرفة لا تتأتـى ما لم يتوفر الانفتاح، والانفتاح على الخليقة وظواهرها من أهـم وسـائل المعرفة. وبالانفتـاح يُعرف تدبير الله ومـدى هيمنته، حتى تتحوَّل هذه المعرفة إلى يقين.

» بصائر وأحكام

١- كل المخلوقـات عاجزون عن إدراك ذات الله سـبحانه، وإنما عليهم أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ومن خلال أفعاله وآياته.

٢- الانفتاح على الطبيعة وظواهرها من أهم وسائل المعرفة، وبهـذا الانفتاح يُعرف صنع الله تعالى ومدى هيمنته.. حتى تتحوَّل هذه المعرفة إلى يقين.

٣- نسـتلهم من الآية أن خير ما نستفيده وقايةً من مرديات الهـوى، وأخطـار الدنيـا، إنما هو الليـل ظلامه وهـدوؤه، وكذلك السبات فيه، بينما نستفيد من النهار انبعاثاً وحركةً ونشوراً.

» من أفعال اللّـه في الطبيعة

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾﴾.

» من الحديث

عن المفضل قال: قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

«ثُـمَّ نَظَـرَتِ الْعَـيْنُ إِلَى الْعَظِيـمِ مِـنَ الْآيَـاتِ مِنَ السَّـحَابِ الْمُسَـخَّرِ بَـيْنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ بِمَنْزِلَةِ الدُّخَانِ، لَا جَسَـدَ لَـهُ يُلْمَسُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، يَتَخَلَّلُ الشَّـجَرَةَ فَلَا يُحَرِّكُ مِنْهَا شَيْئاً وَلَا يَهْـصِرُ مِنْهَـا غُصْناً، وَلَا يَعْلَـقُ مِنْهَا بِشَيْءٍ يَعْـتَرِضُ الرُّكْبَانُ فَيَحُولُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ مِنْ ظُلْمَتِهِ وَكَثَافَتِهِ، وَيَحْتَمِلُ مِنْ ثِقْلِ الْمَاءِ وَكَثْرَتِهِ مَـا لَا يُقْدَرُ عَـلَى صِفَتِهِ مَعَ مَا فِيهِ مِـنَ الصَّوَاعِقِ الصَّادِعَـةِ وَالْبُرُوقِ اللَّامِعَةِ وَالرَّعْدِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَالْجَلِيدِ مَا لَا تَبْلُغُ الْأَوْهَامُ صِفَتَهُ وَلَا تَهْتَدِي الْقُلُوبُ إِلَى كُنْهِ عَجَائِبِهِ، فَيَخْرُجُ مُسْتَقِلًّا فِي الْهَوَاءِ يَجْتَمِعُ بَعْدَ تَفَرُّقِـهِ وَيَلْتَحِمُ بَعْدَ تَزَايُلِهِ تُفَرِّقُهُ الرِّيَـاحُ مِنَ الْجِهَاتِ كُلِّهَا إِلَى حَيْثُ تَسُـوقُهُ بِإِذْنِ اللهِ رَبِّهَا، يَسْـفُلُ مَرَّةً وَيَعْلُو أُخْرَى، مُتَمَسِّكٌ بِمَا فِيهِ مِنَ

المَـاءِ الْكَثِيرِ الَّذِي إِذَا أَزْجَاهُ صَارَتْ مِنْـهُ الْبُحُورُ، يَمُرُّ عَلَى الْأَرَاضِي الْكَثِـيرَةِ وَالْبُلْـدَانِ المُتَنَائِيَةِ لا تَنْقُـصُ مِنْهُ نُقْطَةٌ حَتَّـى يَنْتَهِيَ إِلَى مَا لَا يُحْصَى مِنَ الْفَرَاسِخِ فَيُرْسِلَ مَا فِيهِ قَطْرَةً بَعْدَ قَطْرَةٍ..»(١).

* عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثُّمَالِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: **«أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ سَنَةٍ أَقَلُّ مَطَراً مِنْ سَنَةٍ، وَ لَكِنَّ اللهَ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ. إِنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ إِذَا عَمِلَ قَوْمٌ بِالمَعَاصِي صَرَفَ عَنْهُمْ مَا كَانَ قَدَّرَ لَهُمْ مِنَ المَطَرِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ وَإِلَى الْفَيَافِي وَالْبِحَارِ وَالْجِبَالِ..»**(٢).

***

تفصيل القول

تلـك هي آية أخرى من آيـات الله التي هي الغاية في الإتقان واللطف، يصورها لنا كتاب الله تعالى، داعياً إلى التفاعل معها، حتى يـزداد المؤمن يقيناً، ولكيـلا تكون نظرته إلى الكائنـات وظواهرها نظرة سـاذجة وسـطحية ومجردة عـن الاعتبار؛ لأن هـذا النوع من النظر لا يصل بالإنسان لا إلى إغناء الفكر ولا إلى سلامة الروح.

١ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾.

الله دون سـواه قد قدَّر وخلق، وهو الذي يُدبِّر ذلك الخلق؛ إذ إن يد الله مبسـوطة كل البسـط، ولا حدود لهيمنته على الظواهر والحالات المختلفة في خلقه.

٢ - ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾.

وكأن الرياح كانت ممسـوكة، فأرسـلها الله تعالى لأداء مهمة

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص١٦٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٨٨، ص٣٢٨.

معينة، وليسـت هي متروكة بلا سـبب، ولا هي مرسلة بلا هدف. وهـذا يعنـي أن النظـام الدقيق من لطيف فعـل الله في كل شيء. ثم هي ليست ريحاً واحدة، لتُؤدِّي مهمة واحدة، بل هي رياح مُتعدِّدة ومتفاوتة في الانطلاق وفي المهمة وفي التوقيت.

٣- ﴿بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾.

وأحد نـماذج الرحمة الإلهية هنا هو المـاء، الذي تحمل الرياح ملايين الأطنان منه، فتسوقه من بلد إلى بلد حسب الحكمة الربانية التـي تُحدِّد الحاجة إلى كميات المطر ومناسـيب المياه، والدقة البالغة في عمليـة حمل المياه بواسـطة الرياح، ثم إنزال المياه على مسـاحات مُحـدَّدة. وقـد رُوي عـن أمير المؤمنـين علي بـن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «**فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّـمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ كَقَطَرَاتِ المَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ**»(١).

وقد أوكل الله سـبحانه بكل قطـرة من قطرات المطر ملائكة لخزن المطر، وآخرون يهبطون مع قطر المطر إذا نزل.

هذا ما نقرؤه في دعاء الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في الصلاة على حَمَلـة العرش وكل مَلَك مُقرَّب: «**وَقَبَائِـلِ المَلَائِكَةِ الَّذِينَ اخْتَصَصْتَهُمْ لِنَفْسِكَ، وَأَغْنَيْتَهُمْ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ بِتَقْدِيسِكَ، وَأَسْكَنْتَهُمْ بُطُونَ أَطْبَـاقِ سَـمَاوَاتِكَ، وَالَّذِيـنَ عَـلَى أَرْجَائِهَا إِذَا نَـزَلَ الْأَمْرُ بِتَـمَامِ وَعْدِكَ، وَخُـزَّانِ المَطَرِ وَزَوَاجِرِ السَّـحَابِ، وَالَّذِي بِصَوْتِ زَجْرِهِ يُسْـمَعُ زَجَلُ الرُّعُودِ، وَإِذَا سَـبَحَتْ بِهِ حَفِيفَةُ السَّـحَابِ الْتَمَعَـتْ صَوَاعِقُ الْبُرُوقِ، وَمُشَيِّعِي الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَالهَابِطِينَ مَعَ قَطْرِ المَطَرِ إِذَا نَزَلَ..**»(٢).

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم: ٢٣.
(٢) الصحيفة السجادية: الدعاء رقم: ٣.

هـذه الدقـة تدفـع بمـن كان لـه عقـل وقلـب سـليمين إلى الاستزادة من المعرفة برَبِّ الخلق.

إذاً؛ فالمـاء رحمـة، والرياح تسـبق المطـر وتحمله، فهـي تُبشِّر بهطوله. وهكذا كل رحمة إلهية تسبقها بشائر تُخبر عنها.

٤ - ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾.

الله تعالى هو المنزل للماء من السـماء، ولكن أي ماءٍ، وما هي صفة هذا الماء ودوره؟.

إنـه الماء الطهـور؛ بمعنى كونه طاهـراً مُطهِّـراً، فهو طهور. ومعـروف أن مـاء المطـر من أغنـى أنواع الميـاه، لذلك فهـو طاهر بنفسـه، مُطهِّر لغيره، وهو كذلك أحلى مذاقاً وأهنأ شراباً لما فيه من الطُّهر والصَّفاء. والماء هو رمز الحياة، فالحياة تتنزل على المخلوقات بلا عناءٍ منهم، وإنما هي نعمة عظيمة مُسخَّرة لهم.

٥- ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

فالمـاء الطهـور المنـزل في السـماء أداة إحيـاء للبلـدة الميتـة. والحديث هنا عن البلدة الميتة، لماذا؟.

أولاً: لأن الأرض لا تموت تماماً، وإنما فيها عناصر كامنة من الحياة، وإلَّا لما انتفعت بالماء.

ثانيـاً: إن الآيـة تُذكِّرنـا بالصلـة الوثيقـة بـين المـاء والحيـاة الحضاريـة. فالمـاء حيـاة للنبـات والأحيـاء، وطعـام للبـشر، ونماء للثروة، وحركة اقتصادية متكاملة.

وبعض خبراء الحضارات يعتقـدون أن اللبنة الأولى للبنيان

الحضـاري إنما هو التنمية الزراعيـة، وهي رهينة الغيث. ولعل بقية الآية تشير إلى هذه الحقيقة.

٦- ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾.

ومـن فوائـد المـاء المنزل من السـماء -غـير إحيـاء الأراضي الميتة- سـقي المخلوقات والأنعام لترعـى، بل وليشرب منها أناس كثيرون، وهم بدورهم سـينتفعون من لحـوم وأصواف ولبن تلكم الأنعام، إضافة إلى انتفاعهم من قوّتها لدى أسفارهم.

ويبـدو مـن مفهوم الآيـة، أن تكاثـر أعداد البـشر منوط إلى حدٍّ كبـير جدًّا بكثرة الأمطار ووفرة المياه. ولعل تقديم كلمة ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾ للدلالـة على أن الخالق هو الرازق. فمن قدَّر الخلق قدَّر لما خلق الرزق، والرزق يكون مقداراً حسب حاجة الخلق. وكانه جاء التعبـير بـ(مـا) وليس (من) لأن ما خلـق الله من أصناف غير ذوي العقول أكثر عدداً وأوسع حاجة إلى الماء.

» بصائر وأحكام

الرياح المبشرات من لطيف صنع الله تعالى، والتي هي الغاية في الإتقـان.. حيث يُصوِّرها لنا القـرآن داعياً إلى التأمل فيها ليزداد الإنسـان يقينـاً؛ فلا تكـون نظراتـه إلى الكائنـات وظواهرها نظرة سـطحية؛ لأن هذا النوع من النظر لا يصل بالناظر إلى إغناء الفكر بالعبرة ولا إغناء الروح بالإيمان.

» فأبى أكثر الناس إلَّا كفوراً

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

» من الحديث

رَوَى الرَّبِيْعُ بْن صُبَيْح قَال: «مُطِرَ النَاسُ عَلَى عَهْدِ رَسُوْلِ الله ذَاتِ لَيْلَـةٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَصْبَحَ النَّاسُ فِيْهَا رَجُلَيْنِ، شَاكِرٌ وَكَافِرٌ، فَأَمَّا الشَّاكِرُ فَيَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى عَلَى سُقْيَاهُ، وَغِيَاثَهُ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَقُوْلُ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا**»[1].

***

تفصيل القول

١ – ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ ﴾.

إن الله تعالى قد فصَّل الأمثال، وصوَّرها بصور كثيرة حسب أفهام الناس ومستوياتهم. والتصريف تحريك وتقليب، وذلك بهدف عظيم قال عنه سبحانه:

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج١٤، ص٥٧.

٢ - ﴿بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ﴾.

أن المُخاطَب بأمثال الإيمان هم الناس، فلم تكن غريبةً عنهم، ولم يكن فهمها من جانبهم أمراً صعباً، لأن الله تبارك وتعالى أرحم الراحمين، ومن تجلياته ومن رحمته أنه يُحبُّ الإنسان، ولو لم يكن يحبه لما بعث إليه الأنبياء، ولما أنزل الكتب، ولما مَنَّ عليه بالنعم المتوالية؛ فالحب والرحمة هما جوهر ما أُنزل على الإنسان وما أُرسل إليه، ومن رحمته أنه يُذكِّره بخالقه، بعد أن جعل الإيمان به مُرتَكِزاً في فطرته، فهو بحاجة إلى إثارة وتذكير ليعرف ما يليق به من موقف تجاه خالقه، عطاءً له وإكراماً.. ولكن ماذا بعد الذكرى؟.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

أكثر الناس أغلقوا منافذ أفئدتهم وسمعهم وأبصارهم، وعطَّلوا عقولهم، واسترسلوا مع وساوس الشيطان وضغوط النفس الأمَّارة بالسوء، حتى أصبحوا صرعى في حضيض الكفران بهذه النعمة (نعمة التذكرة).

ومفردة ﴿كُفُورًا﴾ إشارة إلى شدة الكفر واستمراره. ونستفيد من هذه الكلمة أيضاً أن الواجب كان يقتضي شكر نعمة الرسالة، فلم تشكر، وإنما كانت ردة الفعل مزيداً من الكفران.

والتعبير هنا يدل على وجود نية مُبيَّتة للكفر، وهوى مطاع باتِّجاهه، واختيار سيئ وجحود.

وإباء أكثر الناس أن يَذَّكَّروا بما صرَّفه الله تعالى لهم من الأمثال والآيات، يدعونا إلى عدم الانسياق وراء التيار الاجتماعي، وأنه من أراد الإصرار على ذلك، فلابد أن يستعد لمواجهة التيار العام

وأن يتسلَّح بالاستقلال في إرادته واختياره العقيدة الصحيحة، فلا مُبرِّر للتقليد في العقائد.

» بصائر وأحكام

١- الحب والرحمة هما جوهر ما أنزل الله على الإنسان من رسالة؛ ومنهما نعمة الذكرى التي إذا استوعبها الناس تضاعفت النعم عليهم.

٢- والناس قد أبوا بنيِّة مبيَّتة وانتخاب سيئ التذكر؛ مما دل على المزيد من كفران النعم.

» الكفار لا يهتدون بالنذير

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾.

***

تفصيل القول

١ - ﴿وَلَوْ﴾.

أداة شرط تُشعر باستبعاد ما بعدها.

٢ - ﴿شِئْنَا﴾.

تعظيم للإرادة الإلهية. إذ بالمشيئة يتحكَّم الله سبحانه بمقدَّارت الخلق.

٣- ﴿لَبَعَثْنَا﴾.

اللام للتأكيد لإمكانية البعثة، مع أنه سبق بحرف الشرط ﴿وَلَوْ﴾ أي لا راد لمشيئة الله. ولا شيء محالٌ أمام إرادة الخالق المقتدر، ولكن ماذا ينفع النذير والحال أن الكافرين كانوا يُبرِّرون كفرهم بتبريرات واهية، متغافلين عن أن أساس كفرهم نابع من أنفسهم هم قبل أي شيء آخر؟.

٤- ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾.

قد نستلهم من الآية الكريمة أنه لو كان أهل القرى بعيدين عن الأعذار الباطلة، لكان من الممكن أن يبعث الله في كل قرية نذيراً يُحذِّرهم عذابَ الله وغضبه، ولكنهم حيث أبوا إلَّا كفوراً، وحيث إن الله عالم بأن المشكلة -مشكلة رفض الإيمان- مُتكرِّسة ومتأصِّلة في أعماق النفوس، فإن احتمال الفائدة ضعيف، ولم تعد ثمة حاجة إلى إرسال المرسلين المنذرين.

بتعبير آخر: لو كان عدم بعث النذير إلى مختلف القرى هو السبب في كفرهم، لكان ربنا يبعث أولئك النُّذُر، ولكن عِلَّة الكفر كامنة في أنفسهم وليست في قلة النُّذُر.

ولعل الآية الكريمة تُشير إلى الآية الأولى من هذه السورة المباركة، والتي دلَّت على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما هو نذير للعالمين جميعاً، فلا حاجة إلى بعث الرسل إلى كل قرية. ولعل الآية التالية تدل على ذلك أيضاً، حيث أمر الرَّبّ نبيه الكريم بأن يُجاهد بالقرآن كل القرى جهاداً كبيراً.

» بصائر وأحكام

١- إن الكافرين كانوا يُبرِّرون لكفرهم بتبريرات واهية، مُتغافلين عن أن أساس كفرهم نابع من أنفسهم قبل أي شيء آخر.

٢- لقد أرسل الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم نذيراً للعالمين بحكمة بالغة، وأمره بأن يُجاهد الكفار بالكتاب جهاداً كبيراً، ولم يكن سبحانه عاجزاً أن يبعث إلى كل قرية نذيراً.

» لا تطع الكافرين

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾.

» من الحديث

عَـنِ ابْنِ مَحْبُوبٍ رَفَعَهُ قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ فَـرَضَ الْجِهَادَ وَعَظَّمَهُ، وَجَعَلَهُ نَصْرَهُ وَنَاصِرَهُ، وَاللهِ مَا صَلَحَتْ دُنْيَا وَلَا دِينٌ إِلَّا بِهِ**»[1].

***

تفصيل القول

١ - ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

بعـد جملـة العراقيـل التـي يضعها الكافـرون أمام الرسـول لكـي يطفئـوا مصبـاح الهدى، فـإن الرسـول وكذلك مـن يتبعه في أوامر الرسـالة يواجـه هذه العراقيل، عبر عـدم الانصياع لضغوط الكافرين وعدم طاعتهم وإنما بجهادهم.

(١) وسائل الشيعة: ج١٥، ص١٥.

٢- ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾.

والجهاد هو بذل ما في الوسع من الجهد، وتحريك كل الطاقات الهائلة التي يمتلكها الإنسان؛ للوقوف بوجه الكفر. وقد تكون تلك الطاقات مجهولة من جانب صاحبها، ولكنه سوف يراها في حالات التحدي.

ثم إن الجهاد لا يكون بمجرد بذل الجهد فقط، وإنما ينبغي اقترانه بالاستعانة بالرسالة الإلهية. بمعنى أن قول الحق الذي يريد الإنسان المؤمن إلقاءه إلى أسماع غير المؤمنين، يلزم أن يكون مستقىً من معين القيم الإلهية، وليس مما يختزله الشخص من الثقافة الاجتماعية التي تعلَّمها هو من محيط أسرته أو مدينته؛ لأن هذه الثقافة الاجتماعية غالباً ما تكون ممزوجة بأفكار جاهلية باطلة، وإن صُبغت بصبغة دينيه ظاهرية.

وهكذا قال ربنا سبحانه: ﴿بِهِۦ﴾ أي بالقرآن الذي طالما رفع الكافرون أنواع الإشكالات ضده؛ لأن بصائر القرآن تُزوِّد المؤمن بما يحتاجه من أسلحة الجهاد الفكري، حيث بيَّن الله تعالى من خلاله كل الوسائل والبصائر الجهادية، ليكون التذكير بالقرآن لمن يَعْلَم أن في داخله خوفاً من عقاب الله ووعيده.

٣- ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾.

ووصف الجهاد بالكبير، لعله يدل على الجهاد المستمر على مستوى الزمان وعلى مستوى المكان والوسائل، فلا يدع حالة باطلة إلَّا ويتخذ إزاءها موقفاً صحيحاً.

ونستوحي من الآية أيضاً أن تطبيق القرآن الكريم من قبل المؤمن يعطيه قوة هائلة يتسلَّح بها في مواجهة الكفار.

» بصائر وأحكام

رغم كل العراقيل التي يضعها الكافرون أمام إبلاغ الرسول لرسالته، فإنه مأمور بأدائها. وكذلك الإنسان المؤمن فإن عليه تجاوز كل الصعاب وعدم التسليم لضغوط الكافرين، بل ومواجهتهم بكل ما أُوتي من قوة.

» هذا صنع اللّه

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

» من الحديث

رَوَى ثِقَاتُ أَهْلِ النَّقْلِ عِنْدَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أنهُ قَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ؛ عَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَالمَعْرِفَةِ، بِمَنْ لَا تَعْتَذِرُونَ بِجَهَالَتِهِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ الَّذِي هَبَطَ بِهِ آدَمُ وَجَمِيعَ مَا فُضِّلَتْ بِهِ النَّبِيُّونَ إِلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، فِي عِتْرَةِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم فَأَنَّى يُتَاهُ بِكُمْ؟ بَلْ أَيْنَ تَذْهَبُونَ؟...**

أَمَا بَلَغَكُمْ مَا قَالَ فِيكُمْ نَبِيُّكُمْ صلى الله عليه وآله وسلم، حَيْثُ يَقُولُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ، مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا؛ كِتَابَ اللهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِّي فِيهِمَا، أَلَا ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ فَاشْرَبُوا ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فَاجْتَنِبُوا»(١).

***

(١) بحار الأنوار: ج٢، ص٢٨٥.

تفصيل القول

١ - ﴿وَهُوَ﴾.

يُشْدَهُ الذي يتأمَّل في لطيف صنع الرَّبِّ في خلقه كيف يتكامل منظران في نظام الماء في الخلق، فهذا عذب فرات وذا ملح أُجاج، وكلاهما يوفران للبشر ولسائر الكائنات فوائد، وهما متقاربان ومن دون أن يمتزجا. هنا يتساءل من أُوتي فطرة سليمة ويقول: من ذا الذي قدَّر ثم دبَّر هذا الصُّنع اللطيف؟.

وهنا يأتي **الجواب**: هو ذلك الإله الذي أحاط علماً وتقديراً وتدبيراً بكل شيء سبحانه.

إنه هو دون سواه، ولا أحد علَّمه أو أعانه، وأنه لم يُمارس فيما ابتدأه وابتدعه لُغُوباً ولا علاجاً حتى يتعلَّم سبحانه بالتجربة. كلَّا؛ إنه:

٢ - ﴿الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾.

لقد خلق الماءين وابتدعهما من غير صورة مسبقة على شكلين وخاصيَّتين، وكأن التثنية في الماء تُبيِّن حصراً في عدده ونوعه.

٣ - ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾.

مفردة ﴿هَٰذَا﴾، تستخدم للتعريف فكأنها دعوة للانتباه. والعذب هو الحلو، والفرات هو المستساغ للشرب.

٤ - ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

فيه كميات من الملح والخليط؛ فهو أُجاج غير صافٍ.

ولعل المقصود به، هو ماء البحر الذي تُساعد ملوحته على معيشة الحيوانات التي فيه.

٥- ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾.

لقد جعل بين الماءين برزخاً وفاصلاً يحافظ على استمرار النوعية في الماءين، فلا يتحوَّلان إلى نوع واحد؛ إذ في ذلك عسرٌ على المخلوقات المستفيدة منهما.

٦- ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

إن صلابة البرزخ الفاصل تجعله بمثابة الحجر المحجور.

أقول: إن الظواهر الطبيعية التي كثيراً ما يُذكِّرنا القرآن الكريم بها، وسيلة إلى معرفة الرَّبِّ سبحانه وتعالى معرفةً تزيد المرء يقيناً وتقوى.

إن علينا أن نتأمَّل عظيم صنع الله، وإلى مدى الفائدة التي تعود علينا، وإلى بالغ الحكمة في كل جزء جزء من الخلق؛ فنتعرَّف شيئاً فشيئاً إلى أسمائه الحسنى، وأنه القادر على كل شيء، وأنه اللطيف الخبير، وأنه الحكيم المُدبِّر، وأن إليه المصير.

» بصائر وأحكام

يُذكِّرنا الرَّبُّ بآيات خلقه لتكون عبرة لنا، ولنتخذ منها وسيلة إلى معرفته سبحانه، حينما نتأمَّل في لطيف صُنعه، وبالغ حكمته في دقائق خلقه.

» وكان ربك قديراً

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

تفصيل القول

١ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾.

مرةً أخرى يُذكِّرنا الله سبحانه وتعالى بوحدانيته في أفعاله، كما هو إله واحد في وجوده، فهو الواحد بفعله، فلا تَعَلَّم من أحدٍ، ولا قَلَّد غيره، ولا أعياه خلقه للأشياء، ولا أعانه عليه غيره، وكان من لطيف تقديره وتدبيره أنه:

٢ - ﴿خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾.

الخلق يشمل الصنع، مضافاً إلى الإبداع. والماء الذي أشارت إليه الآية السابقة، باعتباره مخلوقاً بدوره، قد جعل الله تعالى منه مخلوقاً هو: البشر. فالإنسان إذاً مخلوق من الظاهرة المائية:

أولاً: لأن البشر شأن كافة الأحياء التي هي الأخرى قد جُعلت من الماء بإرادة ربانية، تجلَّت بها قدرته المطلقة.

ثانياً: أن النطفة التي ضمَّنها للخلية هي ذات سيولة، فهي حالة مائية. ولكن هذه النطفة تحوَّلت إلى ذكر وأنثى ونسلت منها الذرية.

٣- ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ﴾.

وهكذا تجلَّت حكمة النسب؛ حيث إن الروابط البشرية تبدأ -أول ما تبدأ- بالحالة النسبية، ثم ينطلق منها الانتشار الإنساني على الأرض، فتنطلق منها حضارة البشر.. هكذا أراد الله للإنسان. أما إرادة الكافرين، فهي قد تتجاهل هذه الحقيقة ويُؤدِّي تجاهلها هذا، إلى تفكُّك الرابط الأسري، مما يُنتج كياناً متآكلاً من الأساس.

وأما الصهر، فهو سبب لبقاء حالة الارتباط بين بني الإنسان. فكما النسب والتوالد رابط في العلاقة الإنسانية، كذلك المصاهرة. وهكذا أراد الله للإنسان على الأرض، أن يبقى بواسطة النسب والسبب (التزاوج) لتكتمل به دورة الحياة، بل وليكون عبر ما أودع فيه من العقل كائناً حضاريًّا متطوِّراً. وحينما نتفكَّر في أبعاد التدبُّر الإلهي في إيجاد العلاقة بين البشر سواءً عن طريق النسب أو السبب (التزاوج) فإننا نصل إلى بعض آفاق القدرة الإلهية.

٤- ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾.

فالرَّبُّ القدير هو الذي رعى الإنسان مذ كان ماءً نطفة إلى أن ترعرع ونما في الرحم، وحتى وُلِدَ وعاش ومات وبُعِث وحُشِرَ وحُوسب وسِيق إلى النار أو هُدي إلى الجنة.. فهو ربّ قادر بهيمنته التامة على هذا الإنسان. فما بال ابن آدم يكفر بهذا الرَّبِّ القدير الذي شرَّف الإنسان بأن عرَّفه إلى صفحات خِلقته، وعرَّفه إلى نفسه؟ وما باله لا يُسلِّم لكتاب ربِّه الذي يهديه إلى سعادته، أَوَلَيس الخالق هو المحيط علماً بمناهج سعادته؟.

» بصائر وأحكام

الأحيـاء كلها ومن بينها البشر قد خُلقت من الماء، وفي ذلك تجلٍّ عظيمٌ لقدرة الخالق، وتجلَّت فيها أسماؤه الحسنى، ومن أسمائه الحكمة، حيث جعل البشر في دائرة الأنساب والأصهار لكي تتكامل حضارته.

» وكان الكافر على ربه ظهيراً

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ۝٥٥ ﴾.

***

تفصيل القول

١ - ﴿ وَيَعۡبُدُونَ ﴾.

إن الذين يُعرضون عن التفكير بآيات الله، ولا يُعيرون أهمية إلى ضرورة النظر في توالي النعم عليهم سوف يهوون عاجلاً أم آجلاً في وادي الشرك السحيق، إذ تراهم آنئذٍ يعبدون الأنداد.

والعبادة -في جوهرها- الطاعة والتسليم. وهذه الأمور مرفوضة إذا كان ابن آدم يتوجَّه بها إلى غير الله عز وجل. فإذا عبد الله سبحانه استغنى عن عبادة غيره، ووجد في كهف عبادة الله سبحانه منعة دون ضغوط الجبت والطاغوت والأولياء من دون الله. أما إذا امتنع عن ذلك، فإنه يرتمي تلقائيًّا في أحضان من هو دون الله سبحانه وتعالى.

٢- ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ولما كانت طرق الشيطان كثيرة، فإن من لا يتحصَّن بعبادة ربِّه يجد نفسه يعبد كل ما لا يستحق العبادة، وفي مقدمة ذلك الشيطان والطاغوت وهوى النفس الأمَّارة بالسوء.

ولعل التعبير القرآني: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(١) يوحي بأن طاعة الرسول وطاعة الإمام وطاعة العالِم الفقيه وكل طاعة كانت بأمر الله سبحانه، وامتداداً لطاعة الرَّبِّ؛ فإنها تُعتبر طاعة الله تعالى، وبالتالي فهي من صميم عبادة الله، وهو لا يُشبه في أي جانب من جوانبه التقرُّب للأنداد.

وقد ورد في الحديث عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ يَقْطِينٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «**مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ عَبَدَ اللهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ عَبَدَ الشَّيْطَانَ**»(٢).

٣- ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾.

ليس ما يُعبد من دون الله من أصنام وأرواح ونجم وشمس وقمر مصدر نفع أو ضرر للبشر. أما ما يُعبد من دون الله من طاغوت مُتسلِّط أو هوى مُتَّبع أو ذي جاه أو مال؛ فإنه مخلوق لا ينفع أو يضر إلَّا بإذن الله. وحتى المنافع الدنيوية التي يحوزها العابد لغير الله، لا تُعَدُّ منفعة حقيقية، بل هي وبال على جامعها، المتهالك عليها، مهما تعاظمت.

ثم إن هذه الآلهة التي تُعبد من دون الله، عاجزة عن إلحاق الضرر بالإنسان إذا ما تجنبها الإنسان، وإنما الضرر الحقيقي يلحق

(١) سورة الفرقان، آية: ٥٢.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٣١٧.

به في حال الالتصاق بها.

وعليـه؛ تـرى الكافريـن يُضيِّعون على أنفسـهم فرصتهم في الحياة الحرة الكريمة، بل وتتسـبب لهم في المعيشـة الضنكى بسـبب إعراضهم عن عبادة الله سبحانه وتعالى، لأنهم لدى هذا الإعراض سيجهلون حقائق الخلق، بما في ذلك حقيقة أنفسهم.

» إن الذين يُعرضون عـن التفكـير بآيات الله، ولا يُعيرون أهمية إلى ضـرورة النظر في تـوالي النعـم عليهم سـوف يهوون عاجلاً أم آجـلا في وادي الشرك السحيق.

٤- ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾.

أي أن واقـع الكافـر بـالله، هـو الإعانـة للظالمـين وللآلهـة المزيفـة. فهو -في الواقع- مستسـلم لمـن هو دون الله تعالى، واستسلامه هذا يصب في مصلحة أعداء الله من الطواغيت والشـياطين، بعد أن يُجنِّد نفسه لهم وفي مختلف مؤسسـاتهم الثقافيـة والاقتصاديـة والعسـكرية. وهكـذا نعرف أنه لا مسـافة بين الحق والباطل. فمن لم ينفعه الحق أضره الباطـل، ومـن لم يتَّبع الهُدى جرَّه الضـلال إلى الردى. وكما قال الإمـام أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى يَجُرُّ بِهِ الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى..**»[1].

» بصائر وأحكام

١- العبادة في جوهرها الطاعة والتسليم. ولا ينبغي للمخلوق أن يعبد غير خالقه أو يسـلم أمره لمخلوق مثله. ومن يمتنع عن عبادة الله، فإنه يرتمي تلقائيًّا في أحضان الأنداد من دون الله تعالى.

٢- من لا يتحصن بعبادة الله ضد استحواذ الشيطان وهيمنة الطاغوت، يحرم نفسه من حياة كريمة ويفقد كل حقوقه.

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم: ٢٨.

» الرسالة بين الإنذار والتبشير

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦﴾.

» من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ عِبَادِهِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ عُهُودِ عِبَادِهِ إِلَى عُهُودِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ عِبَادِهِ إِلَى طَاعَتِهِ، وَمِنْ وَلَايَةِ عِبَادِهِ إِلَى وَلَايَتِهِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً»(١).

***

تفصيل القول

١ - ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾.

ماذا وراء هذا الحدث العظيم أن يُرسل ربُّ العالمين نذيراً إليهم جميعاً؟.

عشرات الافتراضات تقتحم أفئدتنا ويأتي الجواب:

(١) روضة الكافي: ج٨، ص٣٨٦.

كلَّا ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾.

هنا نفي تام لجميع الفروض التي قد تُشوِّه الحكمة من إرسالك يا أيها النبي. إن الله عز وجل لم يُرسل رسوله ولم يُزوِّده بالقرآن الكريم والقُدرة الخارقة على تحمُّل الصعب والأذى إلَّا لهدف معين؛ إنه التبشير والإنذار.

٢- ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

مُهمَّة النبي ﷺ هي التبشير والإنذار ليخرج الناس من الضلال إلى الهدى.

وهكذا فإن الرسول ليس مسؤولاً عن تصرفات الناس، بل إنهم هم المسؤولون. فهذا الذي لا يُكلِّف نفسه عناء البحث عن الحق والالتزام به هو المسؤول عن نفسه.

كذلك لم يُرسل النبي ﷺ لكي يفرض الدين على الناس فرضاً؛ لأن هدف وجودهم في هذه الدنيا الابتلاء، وليعلم الله الصادق وغير الصادق. وبالتالي فإن مسؤولية الاهتداء تقع في ثقلها الكبير على عاتق الإنسان نفسه، وليس النبي إلَّا مبشراً بعاقبة الفلاح ونذيراً من سوء العاقبة.

أما الصراع الذي كان يخوضه النبي ضد أعدائه، وما في هذا الصراع من تفاصيل، فإنما كان دفاعيًّا لتجنب الفعل العنيف الصادر عن الجهة الكافرة ضد الرسالة.

كذلك؛ كان من مُهمَّة النبي أن يُنذر الناس من سوء العاقبة والشر الكامن في الإصرار على الشرك بالله الخالق. والإنذار غير الإكراه؛

إذ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1]، وإنما المطلوب أن يتم قبول الإنسان لفكرة عقائدية ما، عبر الإقناع، لعدم الحاجة إلى الإجبار. قال الله سبحانه: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾[2]، وما الداعي إلى الإجبار وفي الإنسان فطرة نقية وعقل مضيء مما يُؤيِّد القيم التي جاء بها هذا المبشر النذير؟.

بلى؛ إن من الوساوس الشيطانية ما تدفع بمن يبحث عن أي عذر كان للتهرُّب من مسؤولية الحق، حيث تُلقي هذه الوساوس في روعهم أن مسؤولية هدايتهم أو ضلالتهم، فلاحهم أو شقائهم.. تقع على عاتق الدعاة إلى الله. كأن يقولوا: إن الصلاة التي يُؤدُّونها لا تنتقل بهم إلى الخلاص من الموبقات مثلاً، متناسين أن الأزمة الحقيقية تكمن في أنفسهم هم، قبل أن تكون صادرة عن الدعاة؛ لأنهم لم يهتموا ولم يستمعوا، لماذا؟.

لأنهم -بالأساس- لم يُريدوا الهداية منذ البدء، وإنما اتَّخذوا الرسول وتعاليمه هزواً، ولم يحملوها على محمل الجد.

» بصائر وأحكام

١- مسؤولية الاهتداء إلى الحق تقع على عاتق الإنسان نفسه، وليس النبي إلَّا مبشراً بعاقبة النجاح والفلاح ومنذراً بعقبى الكفر والعصيان.

٢- على كل نفس تحمُّل المسؤولية تماماً عن هداها دون الاتِّكاء على الآخرين، وآنئذٍ تُصبح كريمة بانتخابها الحق.

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٦.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥٦.

» من الذي يتخذ إلى ربه سبيلاً؟

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

» من الحديث

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أَنا وأَهْلُ بَيْتِي شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ، أَغْصَانُهَا فِي الدُّنْيَا، فَمَن تَمَسَّك بِنَا اتَّخَذَ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾**»(١).

***

تفصيل القول

١- ﴿قُلْ﴾.

بعد ما بيَّن ربُّنا سبحانه أن الحكمة من الرسالة الإنذار والتبشير، بيّن تجرُّد الرسالة عن أي أجر مادي. فقال الله سبحانه:

٢- ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

لم يجعل الله لجميع أنبيائه أن يسألوا أتباعهم أجراً على

(١) ذخائر العقبى، للطبري: ص١٦.

جهادهـم لصالحهم، إلَّا نبينا الأعظـم ﷺ، إذ فضّله الله تعالى في هـذا الأمر كما فضَّله على جميع الأنبياء عليهم السلام في أمور كثيرة، فجعل لـه في هذا المضمار أجراً يتصل هو الآخر بامتداد الرسـالة. فقال الله سبحانه:

٣- ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

وهـذا هو الأجر الذي حـدّد الله تعالى لنبيه المصطفى ﷺ في الدنيـا. إن أجـر النبي ﷺ يتمثَّل في اتِّخاذ سـبيل الرَّبِّ. فما هو هذا السبيل؟.

إنـه التمسـك بالكتاب والعترة، حيث قال سـبحانه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(١).

وبتعبير آخر: إن اتِّخاذ السـبيل إلى الله تعالى هو عينه المودة في القربـى، إذ المودة هي الحب في الله، والذي يكون مبنيًّا على أسـاس عصمة الحبيـب الرباني. وبالتالي فإن المودة تسـتدعي الطاعة التامة لمن جعل الله أجر الرسول ﷺ في مودتهم، وهم أولو قرباه.

وقد رُوي عَنْ سَلَّام بْنِ الْمُسْتَنِيرِ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فَقَالَ عليه السلام: **هِيَ وَالله فَرِيضَةٌ، مِنَ الله عَلَى الْعِبَادِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ**»(٢).

وقـد حدَّد الإمام محمد الباقر عليه السلام من هم القربى؟. حيث سـأله عبد الله بن عجلان عن الآية: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. فقَـالَ عليه السلام: **نَعَمْ هُمُ الْأَئِمَّةُ الَّذِيـنَ لَا يَأْكُلُونَ الصَّدَقَةَ**

(١) سورة الشورى، آية ٢٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٢٣٩.

وَلَا تَحِلُّ لَهُمْ»[1].

كما تنبغي الإشارة هنا إلى أن عدداً من الآيات في هذه السورة المباركة قد تكرَّرت فيها كلمة (السبيل) وقد تدبرنا في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾[2]، وأكَّدنا القول أن هذا السبيل الذي تحدَّث عنه الظالم هو ولاية أهل البيت عليهم السلام.

وجاء في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[3]، أي أنهم لا ولاية لهم لأهل البيت، هذه الولاية التي تضمن التسليم لله وللرسول.

وجاء في قوله عز وجل: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[4]، وهم الذين كانوا في دار الدنيا يُريدون تصوُّر الدين بما تهواه أنفسهم.

وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[5]، وهم أولئك الذين يعوزهم السمع والعقل في موقفهم مما جاء به الرسول.

ولنا أن نقول: إن السبيل المشار إليه في الآيات أعلاه من سورة الفرقان المباركة، هو عبارة عن سبيلين:

- سبيل الله.
- سبيل الأمن والفلاح.

(١) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٢٤٠.
(٢) سورة الفرقان، آية: ٤٧.
(٣) سورة الفرقان، آية: ٣٤.
(٤) سورة الفرقان، آية: ٤٢.
(٥) سورة الفرقان، آية: ٤٤.

والسبيل الآخر وهو الأضل.

ومعلوم أن السبيل الذي يُتَّخذ إلى الله ومع الرسول، الذي يتمثل في ولاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام ومودتهم، لئلَّا يُهجر الرسول ويُهجر القرآن، هو السبيل الذي يُوصل صاحبه في نهاية المطاف إلى جنان الخلد، وإلى رضوان الله الأكبر. على عكس ذلك، السبيل الأضل الموصل إلى جهنم وغضب الله الشديد؛ لأنه خلو من ذكر الله الصادق، وخلو من الإقرار التام بأجر الرسول في الدنيا فضلاً عن الآخرة. وبالتالي فإن الفرقان الحقيقي يكمن في اتِّخاذ السبيل مع الرسول إلى حيث وحدانية الله التامة، وهذا السبيل هو ولاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام.

قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: اسْتِكْمالُ حُجَّتِي عَلَى الْأَشْقِيَاءِ مِنْ أُمَّتِكَ، مَنْ تَرَكَ وَلَايَةَ عَلِيٍّ وَوَالَى أَعْدَاءَهُ وَأَنْكَرَ فَضْلَهُ وَفَضْلَ الْأَوْصِيَاءِ مِنْ بَعْدِهِ؛ فَإِنَّ فَضْلَكَ فَضْلُهُمْ وَطَاعَتَكَ طَاعَتُهُمْ، وَحَقَّكَ حَقُّهُمْ، وَمَعْصِيَتَكَ مَعْصِيَتُهُمْ، وَهُمُ الْأَئِمَّةُ الْهُدَاةُ مِنْ بَعْدِكَ»**[1].

» بصائر وأحكام

إن السبيل إلى الله عبر ولاية الرسول وآله المعصومين هو السبيل الذي يُوصل صاحبه إلى جنان الخلد وإلى رضوان الله. ولقد أمر الله المؤمنين بسلوك هذا السبيل لئلَّا يهجروا القرآن والرسول والأئمة الدعاة إلى الوحي والمفسرين له.

(١) الأصول من الكافي: ج١، ص٢٠٨.

» العلاقة بين التوكل والتسبيح

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾.

» من الحديث

روى الصدوق عن أبيه عَنْ أَبِي عَنْ سَعْدٍ عَنِ الْبَرْقِيِّ عَنْ أَبِيهِ رَفَعَهُ قَالَ: «سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ جَبْرَئِيلَ عليه السلام: **مَا التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟**.

فَقَالَ عليه السلام **الْعِلْمُ بِأَنَّ الْمَخْلُوقَ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ، وَاسْتِعْمَالُ الْيَأْسِ مِنَ الْخَلْقِ. فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ كَذَلِكَ لَمْ يَعْمَلْ لِأَحَدٍ سِوَى اللهِ، وَلَمْ يَرْجُ وَلَمْ يَخَفْ سِوَى اللهِ، وَلَمْ يَطْمَعْ فِي أَحَدٍ سِوَى اللهِ؛ فَهَذَا هُوَ التَّوَكُّلُ**»(١).

***

تفصيل القول

١ - ﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾.

من الشواهد الدالة على رسالة الأنبياء عليهم السلام؛ انقطاعهم عن

(١) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص٢٦٠.

الخلق، وتوكُّلهم على الله سبحانه وتعالى. فثقافتهم لا تتصل بثقافة البيئة المحيطة بهم، وأخلاقهم لا تتشابه مع أخلاق مجتمعهم، وهم لا يعتمدون على محيطهم في أداء رسالتهم. فلا يتحزبون مع حزب، ولا يتَّكلون على عشيرة، ولا يعتمدون على قوة بشرية. بل هم دائمو التوكل على ربهم تبارك وتعالى. ولقد كان هذا التوكل واضحاً جليًّا متجلياً في تصرفاتهم إلى الحدِّ الذي دفع بمن لم يعترف برسالاتهم وأراد تكذيبهم أن يُفسِّر توكُّلهم بأنه ضرب من الجنون؛ حاشاهم.

ومن هذه الزاوية؛ فإننا نؤمن بأن أفق التوكُّل لديهم هو دليل صدقهم، لأنهم -من خلال التوكُّل، كأحد أهم مباني الإيمان- يدعون الخلق إلى بناء حضارة الحق، وليس بمجنون من دعا إلى بناء حضارة الحق.

إن الأنبياء عليهم السلام يعتمدون على الله في كل شيء، ويستلهمون من قوته المطلقة، لاسيما وأنه تبارك وتعالى هو الذي أعطاهم ضمان النصرة والنصر. قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

واليوم، حيث يبلغ الإنسان -أي إنسان- هذه المرتبة السامية من التوكل، ولا يعتز بغير عز الله، ولا يعتمد غير قوة الله ربِّ العالمين، فإنه تعالى يجري فيه سنته، لأن سنته في الآخرين هي ذاتها سنته في الأولين، وقال ربنا سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[2].

ومن يتوكل على الله تعالى، فإنه يُعطيه القوة والعزم والإرادة،

---

(١) سورة الأنفال، آية ٦٢.
(٢) سورة الطلاق، آية ٣.

كما وأنه يُحبُّه ويكفيه أمور الدنيا والآخرة؛ لأن التوكُّل بحد ذاته تجلٍّ سامٍ لبصيرة ربانية عظمية وسلوكٌ فذٌّ، يتجلى باقرار الإنسان بالضعف والعجز، والتطلُّع إلى مَنْ يزيح هذا الضعف ويسدّ هذا العجز، ومَنْ غير الله الخالق الجبّار يقدر على إزاحة ضعف الإنسان وسد عجزه؟.

٢- ﴿عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾.

ظاهر هذه الكلمة المقدسة أمرٌ من الله تعالى إلى الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن واقعها العميق يُشير إلى دليل قاطع على صدق الرسالة المحمدية، وعلى أن الحبيب المصطفى إنما هو رسول من عند الله تبارك وتعالى.

ولكن؛ لماذا ورد وصف: ﴿ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾؟.

يكون التوكُّل والاعتماد من جانب الإنسان على مَنْ له صفة الرعاية الدائمة والمطلقة، وليس على مَنْ يعتريه النوم أو الموت.. ولو اعتمد المرء على من ينام أو يموت لما استفاد شيئاً.

وحيث تُطلق هذه الصفة على الله تعالى، فهي كذلك تعريف بالآخرين من دونه؛ أي أن ما سوى الرَّبِّ لا ينبغي الاعتماد عليه، كما أن من ينام أو يموت لا ينبغي أن يكون ربًّا، لأن الرَّبَّ هو الراعي والمتلطف بعباده؛ وأية رعاية، وأي لطف يبقى لدى مدعي الربوبية في حالة نومه أو موته؟.

فكان لابد لابن آدم أن يعتمد على قوة ترفده وتكفيه في كافة الأحوال وعلى وجه الدوام، والله تعالى قوي لا يضعف بنوم أو موت، كما هو عادل حكيم ولا يرد الخلل في عدله وحكمته، فهو

إذاً حري بأن يُتوَكَّل عليه.

ويُعلِم هذا الأمرُ الإلهي الإنسانَ بخطأ الاعتقاد ببقائه، فيطغى بهذا الخطأ؛ وكذلك خطأ الاعتماد على غير الله تعالى؛ لأن الجميع ضعفاء زائلون لا ريب.

٣- ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾.

كذلك التسبيح بحمد الله تبارك وتعالى يبدو أنه جاء كجزء من التأكيد على ما جاء في مطلع هذه الآية الكريمة: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾. بمعنى عدم جواز التوجُّه بالمدح والحمد لأحدٍ غير الرَّبّ طلباً لعونه؛ إذ لا حاجة أبداً إلى مداراة الناس أو مدحهم، حتى يستميلهم صاحب الدعوة إلى جانبه، وإنما يكفيه الرَّبّ ناصراً ومعيناً. وقد علَّمنا الأنبياء أنهم لا يسبحون إلَّا بحمد الله عز وجل، بل إن من الحكمة الإلهية أنها لم تُخضع الأنبياء لولاية أحد من الناس، لتُجَنِّبَهم التأثر أو الاضطرار إلى شيء من المداهنة. فهذا نوح وهذا إبراهيم وهذا موسى وهذا عيسى سلام الله عليهم أجمعين، لم يُذكر نوعُ ولايةٍ لأحدٍ عليهم من قراباتهم، بل إن إبراهيم عليه السلام صارح عمه الذي كان بمنزلة أبيه بالقول: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

أما نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فقد بعثه الله تعالى يتيم الأبوين، مع جلالة قدرهما وعظيم منزلتهما عليهما السلام.. وإلى هذا الحد كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مجرداً عن المحيط.

ثم إن التسبيح هو التنزيه.

(١) سورة الأنعام، آية: ٧٤.

أما كلمة ﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾ فهناك تفسيران لها:

أولاً: إنها بمعنى المعية، وهذا أحد المعاني الكثيرة لحرف الباء، مثل قول القائل: مشيت بالنهر.

فيكون معناه نسبح ربنا ونحمده. فنحن نسبحه على أنه يتسامى عن كل صفات النقص والضعف والعطل، ونحن نحمده على كل صفات الجمال والعطاء والفيض؛ أي: صفات الفعل.

ولكي نُوضِّح أبعاد حمد الله وتسبيحه فنحن بحاجة إلى بعض التفصيل:

أسماء اللّه الحسنى

إن أصول أسماء الله الحسنى أربعة.

الأول: الاسم الذي لا يخرج من الله تعالى إلَّا إليه، ولم يُطلع عليه أحداً، لا نبيًّا مرسلاً ولا ملكاً مُقرَّباً.

الثاني: اسم الجلالة (الله) الدال على معدن العظمة، وهو اسم جعله الله تعالى ليعرفه به خلقه، فيُشيرون به إليه.

الثالث: اسم الفعل الدال على أن الله فعَّال لما يشاء. ويُعبّر عن هذا الاسم بكلمة (تبارك)، حيث أنه سبحانه قد أعطى من فيضه عطاءً مستمراً، وينضوي تحت هذا الاسم الكثير من الأسماء، مثل: الرازق، الوهَّاب، الخلَّاق، وغير ذلك.. وسائر أسمائه الحسنى التي تدل على عطائه.

الرابـع: اسـم (تعـالى) الـدال على التعـالي عـلى كل صفات النقص، مثل السُّـبُّوح القُـدُّوس المتعالي. ولذلك؛ إن قلـت: الله تبـارك وتعالى، فقد ذكرت الأسـماء الثلاثة غير الاسم الأعظم المكنون.

والعبد المخلوق يُسـبِّح سـيده الخالق ويُنزِّهـه عن كل صفة نقـص، ويحمـده لكل عطاء وكل فعل وكل نعمـة وكل رحمة. ومن الرحمـة في بعض الأحيان أنـه تعالى يمنع عليه بعـض النعم، ولكنه -العبـد المخلـوق المؤمـن- يحمده عـلى حكمته التـي اقتضت المنع عليه.

ثانياً: إنه بمعنى الاسـتعانة، وهو المعنى الشائع لحرف الباء، كـما تقول كتبت بالقلـم. وهكذا يكون المعنى أننا نسـتعين بنعم الله التـي نحمده عليها ونسـبحه. فـإذاً حمدنا له وتسـبيحنا إياه هما من نعمه علينا، مما يقتضي حمداً جديداً وتسبيحاً طارفاً.

ذلك لأن الإنسـان حينما يُسبِّح ربه، فإنما يستفيد من نعمه عليه. فإذا نطق بالتسـبيح فإن لسانه وأعصابه وكل قوته منه. فهو في الحقيقة يُنزِّهه عن أن يُسبِّحه بغير أسـمائه وبغير حمده. بمعنـى أن الله تعالى هو الذي رزقه قوة التسبيح والتوفيق إليه.

» إن الأنبيـاء يعتمـدون علـى الله في كل شـيء، ويستلهمون من قوته المطلقة، لاسيما وأنه تبـارك وتعـالى هـو الذي أعطاهم ضمان النصرة والنصر.

وسـواء كان هذا المعنى أو ذاك، فإن كلا المعنيين يصبّـان في مصـب واحـد، وهـو: التسـبيح بحمـد الله تعـالى أنه جعله أهلاً للتسـبيح، ولـولاه، ولولا إذنه له، لما اسـتطاع أن يُسبِّح، ولا كان أهلاً للتسـبيح. وهذه حقيقة عَقَدِيَّة بالغة الأهمية ينبغي الالتفات إليها جيداً؛ إذ الشـيطان يدفع البعض

إلى الاغـترار بهذه المنزلة السـامية والتوفيق الرفيع، (أي تسـبيح الله وحمـده) وكأنه قد عرف الله تعالى وسـبَّح بحمده بقدرة ذاتية مجرَّدة عن نعمة الله وتوفيقه. والحال أنه لولا الله ما عرف الله، ولو لا نعمه لما سبَّحه أحد.

٤ - ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

يبـدو أن هنـاك علاقة بين التـوكُّل على الله والاسـتغفار من الذنب، كيف؟.

حينما يتـوكَّل العبد على ربه يكون في مقام القرب منه. وكلما شـعر البـشر بالقرب مـن ربِّه كلما شـعر بالحياء منـه، وبالتقصير في رحابـه، وأحس بالتـالي بالذنب، مما يدعوه إلى الاسـتغفار. وهكذا نقـرأ في آيـة كريمـة: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾[1].

والله سـبحانه خبير بذنوب عباده، وكفى به شـاهداً ورقيباً. ومن هنا فإن علينا المزيد من الاستغفار والتسليم له.

ثم ما هي العلاقة بين التسبيح والاستغفار؟.

الجـواب: لأن التسـبيح إقرار بالنقـص، فإنه يُمهِّـد للإقرار بالذنب. أو لنقل: إنه الإقرار بعينه.

إن المُتقـرِّب إلى الله يستشـعر بالتقصـير بحـق الله سـبحانه وتعـالى. أما المدّعـي للعصمة باطلاً، فهو غريب عـن منزلة القرب من ربِّه المتعال.

(١) سورة محمد، آية: ١٩.

والسبب في ذلك أن من يعيش في زنزانة ذاته تراه يقدس نفسه ويُلقي باللوم أبداً على غيره، حتى يتطاول على ربِّه ويتّهمه سبحانه. فإذا خرج المرء من ضيق نفسه إلى رحاب العالم وجد العكس تماماً، وجد أن نفسه هي المذنبة المقصرة. ولذلك يجدر بالذي يستغفر ربه أن يسبحه أولاً، كما قال النبي يونس عليه السلام على ما جاء في القرآن: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

أي أن الاستغفار إلى الله عقيدة وسلوك ينبغي أن يَلِيَا الإقرار بعقيدة التوحيد، بل إن عقيدة التوحيد لا تكتمل لولا أن يعرف الإنسان المخلوق حقيقة منزلته، وأين هو من ربِّه العلي العظيم. وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ**»[2].

لأن في النفس صفات النقص والذل والتقصير والجهل، وهي صفات دفينة في ظلمات النفس، وقد جعلها الله تعالى -بفضله ومنّه العميم- في الوقت نفسه أدلة على مصدر النور وينبوع الخير. وهذه المقاربة بين معرفة الذات وبين معرفة الخالق إنما هي من فضله تبارك اسمه.

» **إن الاستغفار إلى الله عقيدة وسلوك ينبغي أن يَلِيَا الإقرار بعقيدة التوحيد، بل إن عقيدة التوحيد لا تكتمل لولا أن يعرف الإنسان المخلوق حقيقة منزلته، وأين هو من ربِّه العظيم.**

فالإنسان إنما يتكامل؛ حينما ينتبه إلى ما فيه من النقص، وكلما زادت معرفته بنواقص نفسه زادت صلته بربه حتى يستعين به لرفع تلك النواقص. ولكنه قد

(١) سورة الأنبياء، آية ٧٨.
(٢) بحار الأنوار: ج٢، ص٣٢.

يطغى بنعمه إن لم ينتبه إلى مصدر النعم وسننها وآفاقها. ولذلك، كانت لمفاهيم هذه الآية الشريفة (التوكل، التسبيح، الحمد) علاقة وطيدة فيما بينها، وكل آيات الله تعالى تحوي من الحكمة والمنطق ما لا يعلمه إلَّا الله والراسخون في العلم.

» بصائر وأحكام

١- إن الأنبياء عليهم السلام يتوكلون على الله في كل شيء، لا سيما وأنه تبارك وتعالى هو الذي أعطاهم ضمان النصرة.

٢- التوكُّل على الله تجلٍّ سامٍ لفكرة مهمة، وهي: إقرار الإنسان على نفسه بالضعف والعجز، وهو يتطلَّع إلى من يزيح هذا الضعف ويسد هذا العجز. والله تعالى وحده قوي لا يضعف بنوم أو بموت، كما هو عادل حكيم.. فحري بالعبد أن يتوكَّل عليه دائماً وأبداً.

٣- التسبيح بحمد الله تعالى جعل المُسبِّح أهلاً للتسبيح، ولولا إذن الله تعالى له لما استطاع أن يُسبِّح، ولا كان أهلاً للتسبيح.

٤- من سما في معارج القرب من ربِّه استشعر مدى ذله وضعفه وتقصيره في جنب ربِّه، فاستغفره وتاب إليه.

» الخلق في قبضة الرب

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾.

» من الحديث

* قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «فَإِنَّ الله جَلَّ ذِكْرُهُ أَنْزَلَ عَزَائِمَ الشَّرَائِعِ وَآيَاتِ الْفَرَائِضِ فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، كَمَا خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَخْلُقَهَا فِي أَقَلَّ مِنْ لَمْحِ الْبَصَرِ لَخَلَقَ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ الْأَنَاةَ وَالْمُدَارَاةَ مِثَالاً لِأُمَنَائِهِ وَإِيجَاباً لِلْحُجَّةِ عَلَى خَلْقِهِ»[1].

* عَنْ جَابِرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ الله جَلَّ ذِكْرُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، خَلَقَ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ لِتَدْبِيرِ الْأُمُورِ»[2].

* قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في إجاباته على

(١) بحار الأنوار: ج٩٠، ص١٢١.
(٢) تفسير العياشي، الشيخ محمد بن مسعود العياشي، ج٢، ص١٢٠.

أسئلة المأمون العباسي: «ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام، وَهُوَ مُسْتَوْلٍ عَلَى عَرْشِهِ، وَكَانَ قَادِراً عَلَى أَنْ يَخْلُقَهَا فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ. وَلَكِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَهَا فِي سِتَّةِ أَيَّام لِيَظْهَرَ لِلْمَلَائِكَةِ مَا يَخْلُقُهُ مِنْهَا شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ، فَيُسْتَدَلَّ بِحُدُوثِ مَا يَحْدُثُ عَلَى الله تَعَالَى ذِكْرُهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ. وَلَمْ يَخْلُقِ اللهُ الْعَرْشَ لِحَاجَةٍ بِهِ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَرْشِ وَعَنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ. لَا يُوصَفُ بِالْكَوْنِ عَلَى الْعَرْشِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِجِسْمٍ تَعَالَى عَنْ صِفَةِ خَلْقِهِ عُلُوًّا كَبِيراً»(١).

***

تفصيل القول

لماذا التوكُّل على الله؟.

أولاً: لأن الطبيعة المحيطة بنا هي في قبضة الرَّبّ المتعال.

ثانياً: لأن في الإنسان طاقات كبيرة يغفل عنها عادةً قبل أن يتوكَّل على ربِّه، فإذا توكَّل على الله اكتشفها واستفاد منها.

ثالثاً: لأن هناك إمكانات هائلة في الطبيعة، فعند التوكُّل على الرَّبِّ، دلّه سبحانه على ما تختزنه مخلوقاته وعرَّفه عليها، حتى أنه ليُحوِّلها أدوات طيعة تحت تصرُّفه، لا سيما وأن هذا الإنسان قد اختصَّه الله بالكرامة حينما حمّله الأمانة الكبرى التي أشفقت السماوات والأرض والجبال أن تحملها، ولكن ابن آدم حملها فأصبح مسؤولاً عن أدائها بالطور الصحيح.

رابعاً: لأن قلب الإنسان تجتاحه وساوس الشيطان التي

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص٣١٧.

تبعث الخوف في قلبه لتحول دونه ودون اتِّخاذ القرارات الشجاعة، وحينما يتوكَّل على ربِّه، يتجاوز تلك الوساوس ويتعرَّف إلى عظيم ما أودعه الله سبحانه فيه من قدرات، ووعده بالنصرة لعبيده العاملين.

١ - ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾.

في هذا النص القرآني الشريف يُعرِّفنا الله سبحانه وتعالى إلى شيء من تجليات ربوبيته وقدرته الواسعة، فهو الله خالق السماوات والأرض. فالتوكُّل عليه هو الحل للمعضلات.

ولكن لماذا تحديد فترة الخلق للسماوات والأرض في أيام ستة ما دامت قدرة الله واسعة وأمره بين الكاف والنون، فإذا قال: كن؛ فيكون؟.

يبدو أن في ذلك إشارة إلى أن للزمن قسطاً في واقع الخلق، وهذه هي حقيقة عامة نعيشها. وهكذا لابد أن يُقرن التوكُّل بالصبر ليُعطي أكله. والزمن بدوره مخلوق من مخلوقات الله تبارك وتعالى، وهذه إرادة الله عز وجل، حيث جعل الأمور مرهونة بأوقاتها؛ لأن السماوات والأرض مخلوقان خارجان عن عالم الخلود المحذوف منه عامل الزمن.

وعبارة ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ لا تعني فترات زمنية تتكون الواحدة منها من أربع وعشرين ساعة، بل إن التعبير بستة أيام تعبير مجازي بالنسبة لما هو المتعارف لدينا من بيان الوحدة الزمانية باليوم. ومعلوم أن اليوم عند الله كألف سنة مما نعدُّ، ويوم القيامة خمسون ألف سنة. وهكذا نعرف أن هذه الأيام الستة تعني حسب الظاهر مراحل ست، وكل مرحلة منها لها خصائصها وآفاقها. ولعل إيراد

الغمـوض من جانب الآيـات والروايـات بهذا الصـدد تَمَّ لحكمة بالغـة مـن قبل الشـارع المقدس؛ لأن عـدم معرفة تفاصيلـه لا يُعَدُّ منقصة في الإيمان، أو لعله تُرك حتى يأذن الله تعالى في تبيينه، ولكن المهـم هو الإيمان بأصـل أن الخلقة قد مرَّت في سـت مراحل، إيحاءً منه تعالى بأهمية الزمن ودرءاً للعجلة وترغيباً في الصبر.

٢- ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾.

هذه الكلمة العظيمة جـاءت لفضح الافتراء الكبير الصادر عمَّن زعم أن الله سـبحانه وتعالى قد خلق السـماوات والأرض في سـتة أيام ابتداءً من يوم الأحد حتى يوم الجمعة ثم ذهب ليسـتريح يوم السـبت. وهؤلاء هم اليهود الذين برَّروا عطلتهم يوم السـبت وتصوروا -باطلاً- بأن يد الله مغلولة.

كلَّا؛ وإنما الله عز وجل قد اسـتوت هيمنته واسـتطالت قدرته وجـرى تدبيره في جميع خلقه في الأرض وفي السـماوات وما فيهما وما بينهـما، ومـا في الكرسي والعرش ومـا بعد العرش مـن عوالم الحجب والأنوار؛ فهو بعزته مهيمن على كل شيء، وإرادته نافذة في كل شيء.

وكـما هـو واضـح، فـإن نفـوذ الإرادة مـن لـوازم الإلوهية والربوبيـة؛ أي لا يُمكـن تصوُّر الـرَّبّ عاجزاً، ولـو كان عاجزاً لما كان ربًّا له الملك والجبروت.

وخَلْقُ الله سـبحانه ثم تدبيره تجَلٍّ لرحمته الواسـعة التي كلّما تأملنا في أبعادها زدنا معرفة بأسمائه، بل وحبًّا له.

٣- ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾

والله تبارك اسمه يدعو الإنسان إلى أن يتعرَّف إلى رحمته أكثر

فأكثر لِيَسْتَدرَّها ولِيَزْدَادَ منها، ولكن كيف يتعرف؟. ومَنْ يسأل؟.

من المفترض بابن آدم أن يتعرَّف إلى ربه الرحمن من خلال الخبير به.. ولكن مَنْ هو الخبير بالله؟.

هو الله نفسه بلا ريب، إذ عرَّف عن نفسه بنفسه ودلّ على ذاته بذاته، وأذن للإنسان أن يعرفه من خلال خلقه. وليس أخبر بالله تعالى من نبينا الأعظم وآله الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، إذ بهم عُرف الله تعالى. فهم القادرون على شرح وحي الله تبارك وتعالى لخلقه، وبكلماتهم المضيئة يعي الإنسان بعض أسماء ربِّه سبحانه، ومنه اسم الرحمة الشاملة والمستمرة.

وقد قال عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وهؤلاء أهل الذكر هم الخبراء العارفون بالله تعالى.

فالمعرفة بالله تعالى يجب أن تتم من خلال جهة خاصة يرتضيها الله تعالى نفسه، وهذه الجهة المقدَّسة هي التي عرَّفتنا بالله وأمَّلتنا برحمته الواسعة وخوَّفتنا غضبه الشديد.

» إن في الإنسان طاقات كبيرة يغفل عنها عادةً قبل أن يتوكَّل على ربِّه، فاذا توكَّل على الله اكتشفها واستفاد منها.

وهذه الكلمة تهدينا إلى ضرورة الاستزادة من معرفة الله، لأن هذه المعرفة تُمثِّل الجوهر في كل شيء. ومن هنا نُلاحظ في كلمات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكلمات أهل البيت عليهم السلام، وهم الأدلَّاء الحقيقيون على الله تبارك وتعالى، أنها مُفعمة بلفظ الجلالة وسائر أسماء الله وصفاته، مثل الزيارة الجامعة الكبيرة ودعاء عرفة

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

ودعـاء كميل ودعاء الجوشـن، والخطب النبويـة والعلوية عموماً، ليفتحوا لنا الآفاق الواسعة لمعرفة الرَّبِّ الرحمن.

» بصائر وأحكام

١- إذا تَـمَّ للإنسـان التـوكُّل على الـرَّبِّ المهيمـن، دلَّه على مـا تختزنه مخلوقاته مـن إمكانات ثم أعانه على تسـخيرها، حتى أنه ليحولها إلى أدوات طيِّعة بيده.

٢- إن للزمن قسطاً في خلق الحقائق.. وهكذا يجب أن يُقرن التوكُّل على الله بالصبر ليُعطي أُكُلَه.

٣- الزمـن مخلوق من مخلوقات الله، وهكذا اقتضت مشـيئة الله، حيث جعل الأمور مرهونة بأوقاتها.

٤- إن الله تعالى قد اسـتوت هيمنته وجرى تدبيره على جميع خلقـه في الأرض وفي السـماوات ومـا فيهما وما بينهـما؛ فهو برحمته مُهيمن على كل شيء، وإرادته نافذة في كل شيء.

» اسجدوا للرحمن

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾.

» من الحديث

* عَنْ أَبِي بَصِيرٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «**قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَطِيلُوا السُّجُودَ، فَمَا مِنْ عَمَلٍ أَشَدَّ عَلَى إِبْلِيسَ مِنْ أَنْ يَرَى ابْنَ آدَمَ سَاجِداً، لِأَنَّهُ أُمِرَ بِالسُّجُودِ فَعَصَى، وَهَذَا أُمِرَ بِالسُّجُودِ فَأَطَاعَ وَنَجَا**»(1).

* عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْعَطَّارِ قَالَ: «سَمِعْتُ الصَّادِقَ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليه السلام يَقُولُ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله كَثُرَتْ ذُنُوبِي وَضَعُفَ عَمَلِي.

فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: **أَكْثِرِ السُّجُودَ فَإِنَّهُ يَحُطُّ الذُّنُوبَ كَمَا تَحُطُّ الرِّيحُ وَرَقَ الشَّجَرِ**»(2).

***

(1) بحار الأنوار: ج٨٢، ص١٦١.
(2) وسائل الشيعة: ج٤، ص١٠٢.

تفصيل القول

كانت بيئة العرب في العصر الجاهلي بيئة خشنة عنيفة، فأثّرت في قلوب أصحابها، ولقد كان الواحد يئد بنته دون أن يرفّ له جفن. وهذه القسوة القلبية والعنف في السلوك أورثاهم تصوراً خاطئاً فيما يتصل بالعقيدة، فلم يفقهوا اسم الرحمن.

وهكذا كانت رؤيتهم المتعلقة بخالق الكون أشبه شيء برؤية اليهود، حيث تصوَّرت الرَّبَّ المتعال كونه جلَّاداً عديم الرحمة، حاشاه.

ولذلك؛ حينما جاء النبي الأكرم ﷺ بكلمة الرحمن، وهي المبالغة في الرحمة، وأبلغهم ضرورة عبادته والسجود له، تساءلوا باستنكار عمّا تعنيه كلمة (الرحمن).

١ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

وتجسَّدت هذه الثقافة الجاهلية في المدرسة الأموية الذين أنفق قادتهم ملايين الدراهم والدنانير من أموال المسلمين من أجل حذف آية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ من القرآن، مما يكشف عن مدى عدائهم لهذه الآية الكريمة. وجاء في ذلك عَنْ خَالِدِ بْنِ الْمُخْتَارِ قَالَ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليه السلام يَقُولُ: «**مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ عَمَدُوا إِلَى أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِ الله، فَزَعَمُوا أَنَّهَا بِدْعَةٌ إِذَا أَظْهَرُوهَا، وَهِيَ:** ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»(١).

حتى أن بعض فقهائهم ووعّاظهم أسقطوا البسملة الشريفة من قراءة السورة في الصلاة، في حين عَدَّ الإمام الحسن العسكري

(١) مستدرك الوسائل: ج٤، ص١٦٦.

عليه السلام الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم من علامات المؤمن، إذ قال: **«عَلَامَاتُ الْمُؤْمِنِ خَمْسٌ: صَلَاةُ الخَمْسِينَ، وَزِيَارَةُ الْأَرْبَعِينَ، وَالتَّخَتُّمُ فِي الْيَمِينِ، وَتَعْفِيرُ الْجَبِينِ، وَالجَهْرُ بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»**[1].

مما يعكس مدى جهاد المعصومين عليهم السلام في إطار تكريس مبادئ الحق ومعارضة الانحرافات الظاهرة والمتلصصة لحذف مفهوم الرحمة من الثقافة الدينية.

ويبدو أن الإصرار الأموي على طمس اسم الرحمة الإلهية وإبعاده عن ثقافة الأمة، هدفه توفير فرصة القمع للناس وتبرير قتل الناس بلا هوادة. لقد كان الحاكم الأموي يدَّعي الارتباط بالله، ويُمثِّل سلطة الدين، وكان في الوقت ذاته مصرًّا على تصفية خصومه بوحشية بالغة، فعمد إلى حذف مفهوم: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ من الدين ومن ثقافة الأمة؛ لأنه لا ينسجم وتوجهات سلطته.

ومن ذلك؛ ما أجاب به سمرة بن جندب حين كان والياً على البصرة من جانب الحاكم الأموي، حين أمعن في قتل الناس فيها، ولما اعترضوا عليه قال: «إن من أقتله إما أن يكون من أهل الجنة وإما من أهل النار، فمن كان من أهل الجنة فقد عجلت له في دخولها، ومن كان من أهل النار فقد كفيت الناس شرَّه».

وهذا هو المنطق نفسه الذي تُبرِّر به عصابات الجريمة سفكها لدماء الناس في هذا العصر الحرج. وكذلك كانت تفعل الجيوش العثمانية الهمجية حينما تُهاجم بعض مدن وقرى أوروبا الشرقية، حتى أنهم شوَّهوا الإسلام في أذهان الناس، حتى جعل الكثير منهم يشمئز من الإسلام. وكذلك استخدام الكنيسة للعنف

(١) وسائل الشيعة: ج١٤، ص٤٧٨.

في محاكم التفتيش كان سبباً لردة أوروبا عن الدين.

ولكن على الجانب الآخر، نجد الرحمة الإلهية تتمثَّل في بصائر وأخلاق أهل البيت عليهم السلام، فقد كانوا عليهم السلام مثال الرحمة التامة في تعاملهم مع أعدائهم وأوليائهم. كما تعامل سيد الشهداء عليه السلام مع أعدائه الذين جاؤوا لقتله، وهو يعلم علم اليقين ذلك منهم، ولكنه سقاهم الماء حينما احتاجوه، وهو يعلم أيضاً أنهم سوف يحرمون نساءه وأطفاله من الماء. وكذلك فعل أبوه أمير المؤمنين عليه السلام قُبيل معركة صفين مع أعدائه الأمويين من أهل الشام، ولمّا ينقضِ على حرمانهم إياه وجنده من الماء إلَّا سُويعات قليلة. وهكذا كان يفعل كل أهل البيت عليهم السلام حتى أصبحوا التطبيق البارز لقول الله تعالى بـ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

» إن الإصرار الأموي على طمس اسم الرحمة الإلهية وإبعاده عن ثقافة الأمة، هدفه توفير فرصة القمع للناس وتبرير قتل الناس بلا هواده.

أما سيّدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فحدّث ولا حرج، إذ كان يُعاني كل المعاناة من قومه الكافرين، حتى أنه قد أوذي كما لم يؤذَ أحد من الأنبياء، ولكنه كان يحمل لهم الرحمة في قلبه وقسمات وجهه، ليعكس لهم معنى الرحمة الإلهية، فيخبرهم بمدى رحمة الرَّبّ المتعال.. حقًّا إن رحمة الله تعالى قد تجلَّت في بعثه لرسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وجعله إياه رحمة للعالمين، وتجلَّت في إمامة كل واحد من المعصومين عليهم السلام، كما تجلَّت في قوانين الشريعة.

ولكن الكافرين كانوا ولا زالوا يقولون: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾؟.

لأنهم لا يستطيعون -والعجز عائد إلى أنفسهم- هضم

(١) سورة آل عمران، آية ١٣٤.

مسيرة الرحمة الإلهية.. فقالوا:

٢- ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾.

وهم بسؤالهم الاستنكاري هذا قد سعوا إلى تحويل دفَّة القضية من محتواها العقائدي الرصين إلى موضوع شخصي بينهم وبين النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم. وبدلاً من أن يعمدوا إلى التفكير في كلمة الرحمة ومفهومها وفي الثقافة التي تحملها، راحوا يتهكَّمون على شخص النبي، مبادرين إلى الفصل بينه وبين الله الخالق الرحمن، مُنكرين الوحي المنزل من أساسه، فنسبوا الأمر بالسجود للرحمن إلى شخص النبي وليس إلى إرادة الرَّبِّ الرحمن.

٣- ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

لأن الحقد والحسد كانا مُعَشِّشَين في أذهان الجاهليين وقلوبهم تجاه الرسول الأكرم، فقد كانوا يزدادون نفوراً كلما كرَّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعوته إليهم بالخضوع لإرادة الرَّبِّ الرحمن، إذ العقد النفسية الخاصة بهم كانت تدفعهم إلى تلقّي مفهوم الدعوة الإلهية بشكل مقلوب. فيما المؤمن كان يزداد خشوعاً كلما تُليت عليه آيات الرحمن، فتفيض عيناه بالدمع لما عرف من الحق.

» بصائر وأحكام

١- إن رحمة الله تعالى قد تجلَّت في بعثه لرسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وجعله إياه رحمة للعالمين، وتجلَّت في إمامة كل واحد من أئمة الهدى عليهم السلام، كما تجلَّت في قوانين الشريعة. ولكن الكافرين كانوا ولا زالوا يقولون: ﴿وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾؟. لأنهم لا يستطيعون هضم أبعاد الرحمة الإلهية.

٢- الحقد والحسد كانا مُعَشِّشَين في أذهان الجاهليين تجاه الرسول الأكرم، لذا كانوا يزدادون نفوراً كلما كرَّر النبي ﷺ دعوته إليهم بالخضوع والتسليم لإرادة الرَّبِّ.

بينما المؤمن يزداد خشوعاً كلما تُليت عليه آيات الرحمن، فتفيض عيناه بالدمع لما عرف من الحق.

» تبارك الذي جعل في السماء بروجاً

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

عندما يتأمَّل البشر في خلقه وخلقة العالم المحيط به، وكيف أن كل شيء في النفس والآفاق يدلنا على جانبي الضعف والقوة، والفقر والغنى، والظلام والنور في المخلوق أنَّى كان. وضعفه وفقره والظلام المحيط به ذات دلالة بأن ذاته العدم، ذاته (لا وجود - لا خلود -لا قوة - و.. و..). وإنما أعطاه خالقه ما أعطاه من وجود وقوة وغنى.

إن هذه الحقيقة التي نجدها أنَّى توجَّهنا تحملنا إلى معرفة اسم كريم وعظيم من أسماء ربنا الحسنى، وهو اسم ﴿ تَبَارَكَ ﴾. فكم هي نعمه على خلقه، وكم هو فضله ورحمته.

وهكذا نجد هنا تأكيد السياق على اسم ﴿ تَبَارَكَ ﴾ بعد أن افتُتِحت السورة به، فقال سبحانه:

١- ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾.

فما هي العلاقة بين بركة الفرقان وبركة البروج في السماء؟.

يبدو أن العلاقة تتمثَّل في أن للبروج فائدة الهدى للناس وبالذات للمسافرين برًّا أو بحراً، وكذلك للزُّرَّاع العارفين بمواعيد ظهور هذا النجم أو ذاك ومدى تأثيره في أمورهم الزراعية. وهكذا هو الفرقان قد جُعل وسيلة هداية كبرى للخلق.

ثم العبارة القرآنية هنا، تُثير في ذهن الإنسان حقيقة أن الله هو خالق هذه البروج، وكذلك هو المبارِك في حركتها وطبيعة الأنظمة التي وضعها لضبطها. فلا شيء في العالم خارج عن سنن الله وتدبيره، مما يدفع بالإنسان إلى تكريس تطلُّعه إلى الفضاء لعله ينتفع منه، ولا يعكف على الاستفادة مما في الأرض فحسب.

إن النظر في السماء وما فيها من نجوم وأجرام يجعلنا نتعرَّف إلى بعض أبعاد اسم ﴿ تَبَارَكَ ﴾، بل يجعلنا على يقين أننا لن نُحصي بركات الرَّبِّ ونعمه. وهكذا ترى علماء الفضاء قد تأكَّد لهم عجزهم عن إحصاء عدد النجوم، حتى رأى بعضهم أن عملية الخلق لأجرام السماء مستمرة ومتواصلة، ولأن الكون في حالة توسُّع فتراهم ما أن يصنعوا تلسكوباً يُحصي النجوم البعيدة، إلَّا وقد خلق الله تعالى في الوقت ذاته مجرَّة أو مجرَّات جديدة في الكون المتوسع بإرادة الرَّبِّ الخالق تبارك وتعالى.

أما انعكاس هذا الاسم ﴿ تَبَارَكَ ﴾ على قلب الإنسان، ومن ثَمَّ خُلُقه وسلوكه، فإن هذا الكائن المتناهي في صغر حجمه، بالنسبة إلى العالم، يزداد إيماناً بالله العلي العظيم وطمعاً في بركته ورحمته. وقد ورد في مناجاة الإمام علي بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لله تعالى:

«إِلَهِي؛ إِنْ كُنْتُ غَيْرَ مُسْتَأْهِلٍ لِمَا أَرْجُو مِنْ رَحْمَتِكَ، فَأَنْتَ أَهْلٌ أَنْ تَجُودَ عَلَى الْمُذْنِبِينَ بِسَعَةِ رَحْمَتِكَ. إِلَهِي؛ إِنْ كَانَ ذَنْبِي قَدْ أَخَافَنِي، فَإِنَّ حُسْنَ ظَنِّي بِكَ قَدْ أَجَارَنِي»(١).

وواضح أنه كلما ازداد ابن آدم إيماناً بالله ومعرفة بالحقائق المحيطة به، كان دعاؤه أصدق وأزكى.

﴿فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ البروج محصورة في نطاق السماء المحيطة بها كما تحيط الكرة بما تتضمنه من أجسام في داخلها. وكأن البروج هي التحوُّلات التي في السماء والمواقع الخاصة بها في جو الفضاء المتوسِّع، وفيها من الدقة والسرعة ما لا يُدرك. ومثال ذلك، مَا رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ الْأَكْرَمُ صلى الله عليه وآله وسلم سَأَلَ الْأَمِينَ جَبْرَئِيل عليه السلام: «هَلْ زَالَتِ الشَّمْسُ؟.

فَقَالَ عليه السلام: لَا، نَعمْ.

فَقَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: مَا مَعْنَى، لَا، نَعمْ؟.

قَالَ عليه السلام: يَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ قَطَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ فَلَكِهَا بَيْنَ قَوْلِيْ: لَا، نَعمْ؛ مَسِيْرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ»(٢).

أي أنه حينما سأل لم يكن وقت الزوال قد دخل، وحينما أجاب جبرئيل سارعه وقت الزوال بالدخول. إشارة إلى دقة حركة جرم الشمس وسرعتها.

٢- ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

الجعل هو جعل إلهي بعيد عن العفوية والتطوُّر الذاتي. وأما

(١) بحار الأنوار: ج٩١، ص١٠٤.
(٢) مواهب الجليل، الحطاب الرعيني، ج٢، ص١١.

السِّراج فهو الشمس، وفيها من الطاقة الحرارية والضوء الكثير ما يشعُّ على مجموعتها ويُؤَمِّنُ الحياة في كوكبنا الأرضي. وطاقتها الحرارية المشار إليها لا تتوفر بالنفط أو الحطب، ولكنه وقود ذري مضبوط بقدرة الله القادر على كل شيء.

وسُمِّي القمر بالمنير، لأنه مضيء بما يَرِدُهُ من أشعة الشمس ثم يعكسه على غيره، وفيه ما فيه من الفوائد والمصالح العظيمة العائدة على الأرض وسكّانها، كالجاذبية والمد والجزر البحريين ونمو النباتات والتأثير في السلوك الإنساني -كما يُذكر-، وغير ذلك الكثير. بل إن الناظر إليه في جو السماء يحار في القدرة الإلهية المُمسكة به، والآذنة له بعكس فوائده وتأثيراته وكل جماله.

» بصائر وأحكام

١- ﴿ تَبَارَكَ ﴾ اسم من أسماء الله الحسنى يدل على أن بدء العطاء -كما استمراره- منه سبحانه، ولا قُدرة لدى أحد على إحصاء آفاق البركة والعطاء الإلهي.

٢- الله سبحانه هو خالق البروج وضابطها، وهو المبارك في وجودها وحركتها وطبيعة الأنظمة التي وضعها لتدبيرها، إذ لا شيء في الخلق خارج عن سنن وهيمنة الله سبحانه وتعالى.

» لمن أراد أن يتذكر

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾.

» من الحديث

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيُبَاهِي مَلَائِكَتَهُ بِالْعَبْدِ يَقْضِي صَلَاةَ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ، فَيَقُولُ: يَا مَلَائِكَتِي؛ انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي يَقْضِي مَا لَمْ أَفْتَرِضْهُ عَلَيْهِ أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ»**(١).

***

تفصيل القول

كما تتجلَّى أسماء الله الحسنى في الكائنات، كذلك يُمكن أن تتجلَّى في قلب البشر.

فالكائنات تُذكِّرنا بالأسماء. فكلما رأينا الجمال في جوانبها تذكَّرنا جمال الرَّبِّ المتعال. وإذا نظرنا إلى تدبيرها الحكيم واللطيف تذكَّرنا حكمته ولطفه تقديره. وإذا رأينا عظيم النعم التي أسبغها

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص٤٩٨.

الله تبارك وتعالى، تذكَّرنا رحمته الواسعة.

والسؤال: كيف نستفيد من تجلِّي أسماء الله؟.

إن أسماء الله الحسنى تتجلَّى في قلوبنا، حيث تنعكس أسماؤه القدسية على القلب بالخوف والرجاء، باعتباره تبارك وتعالى مصدر كل خير، فإن سلب منه شيئاً فمن ذا الذي يرده إليه، كما أنه ببركته يفتح أمام المرء آفاق الفلاح، ولن يسمح لليأس أن يستبد به؛ حتى في أحلك الظروف. ومن آفاق تجلِّي أسماء الرَّبِّ في القلب لطيف حكمته في نظم الوقت وفي تقلُّب الليل والنهار، وما مرَّ من تفسير الآية الكريمة السالفة، حيث ينعكس النظام الكوني المجعول من قبل الله تعالى عبر تجلِّيات اسمه العظيم -تبارك- على سلوك ابن آدم بالنظام والدقة وعرفان ما لعامل الزمن من دور وتأثير؛ لأن الإنسان في نهاية المطاف محدود مؤطَّر بإطار الزمن، فلابد له من تقييم الزمن بما يُقرِّبه إلى ربِّه الكريم.

١ - ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً ﴾.

هو تقدَّست أسماؤه؛ دون غيره، وبإرادته وهيمنته المطلقة جعل الزمن منقسماً إلى ليل ونهار. وقد تقدَّم ذكر الليل على النهار لما يُوحي به الليل من العدم والسكون، والعدم والسكون يسبقان الوجود والحركة، كذلك الليل يسبق النهار، والظلام يسبق النور، وكل منهما يخلف الثاني، وهما في حركة متواصلة حتى يأذن الله تعالى بكبحهما.

ولكن لماذا هذا الجعل الإلهي في التفاوت الزمني والتقسيم الوقتي؟.

يُبيِّن الله تعالى سببين لهذا الجعل القدسي: التذكّر والشكر.

٢ -﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾.

يتذكّر الإنسان ربَّه المتعال بداعي الاختلاف الحاصل في الوقت، لا سيما وأن الليل والنهار يؤثران في الطبيعة، وفي الإنسان بظاهره وباطنه، بما يناسب طبيعتهما. ومثال ذلك؛ أن طبيعة الإنسان في الليل تختلف عنها في النهار، من حيث السكينة والاستقرار النفسي، ومن حيث تناوله للطعام، ومن حيث المنطق، ومن حيث تحصيل العلم، ومن حيث النشاط والعمل، وحتى من حيث العبادة والتوجُّه إلى الله الرحمن. هذا بالإضافة إلى أن ابن آدم يفترض له النوم في الليل الذي جُعل لباساً لبدنه وروحه.

وعلى ابن آدم أن يتذكَّر عظيم نعمة الوقت بقسميه عليه، ويتذكَّر تحوُّله من حال إلى حال، ويتذكَّر أن الله الخالق هو جاعل هذا التغيُّر، وأنه محكوم بهذا المتغير شاء أم أبى؛ وبالتالي يتذكَّر أن مَنْ جعل التغيُّر في الخلق لابد أن يكون واسع القدرة، لطيف الضع، لأنه يُدبِّره كيف شاء بعزته وقدرته ورحمته.

٣- ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

حينما يعي المرء طبيعة التحوُّل سوف يفقه وجه النعمة في هذا التحوُّل، فيسير في سبيل الشكر الذي فيه حظ عظيم له. وإذا ما بلغ الإنسان درجة الشكر، فإنه قد بلغ مرتبة عالية من مراتب العبودية.

وإرادة الإنسان -التي أشار إليها النص القرآني العظيم- محور حركة البشر، وعلى المرء أن يسعى جاهداً من أجل تنمية إرادته ويدعو ربَّه ليرزقه المزيد من العزم، كما جاء في دعاء كميل المروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**وَاشْدُدْ عَلَى**

الْعَزِيْمَةِ جَوَانِحِيْ»[1].

والجوانح هي القِوى الباطنة التي تُقابل الجوارح الظاهرة، وهي التي بواسطتها يستثمر المرء الطاقات المودعة عنده من قبل الله تعالى ليكون دائم القرب من الخالق سبحانه.

» بصائر وأحكام

١- أسماء الله الحسنى تتجلَّى في قلوبنا، كما تتجلَّى في الخليقة، ومنها اسم ﴿ تَبَارَكَ ﴾ حيث يفتح أمام المرء آفاق الفلاح، لكيلا يسمح لليأس والقنوط أن يستبدَّ به، حتى في أحلك الظروف.

٢- يتذكَّر الإنسان ربَّه عند النظر إلى الاختلاف في الوقت؛ فالليل والنهار يُؤثِّران في الطبيعة، وفي الإنسان نفسه، ويتذكَّر أنه عبد مخلوق.

(١) مصباح المتهجد، ص٨٤٩.

» سمات عباد الرحمن

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

» من الحديث

قال أبو عبد الله عليه السلام: «**هُوَ الرَّجُلُ يَمْشِي بِسَجِيَّتِهِ الَّتِيْ جُبِلَ عَلَيْهَا لَا يَتَكَلَّفُ وَلَا يَتَبَخْتَرُ**»[1].

***

تفصيل القول

في ختـام سـورة الفرقان التـي افتُتحـت بالبركة، يذكِّرنـا الرَّبُّ سـبحانه بسمات عباد الرحمن الذين تجلَّت في حياتهم آيات القرآن. لعلنا نرى جانباً من جمال وجلال كتاب ربِّنا في سلوك هذه النخبة المعاصرة.

ذلـك إن منهـج القـرآن في بيـان الحقائـق فريد، إنـه يجعلك تعيشها مباشرة عبر مَنْ مَثَّلها أو يُمثِّلها في واقع الحياة.

(١) بحار الأنوار: ج٦٦، ص٢٥٩.

وحين نقرأ سمات عباد الرحمن قد يتملَّكنا العجب، هل يبلغ الإنسان هذا المستوى الرفيع من المجد، وكيف يتحرَّر هذا المخلوق الذي تُحيط به أغلال المادة وإصر الجبت والطاغوت، وكيف يتخلَّص من قيودها ويسمو إلى مثل هذه السمات؟.

بلى؛ إذا تجلَّى عندنا اسم الرَّبِّ ﴿ تَبَارَكَ ﴾ واسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يتلاشى هذا العجب. إن يد الرحمة انتشلت هؤلاء العباد، وإنَّ سحابة البركة أحاطت بهم، فلماذا العجب وكان الفرقان هو المنبع.

١ - ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾.

العباد، هم المُوحِّدون الصادقون في عقيدتهم وسلوكهم.

وكلمة الرحمن تتناغم مع السابق من قوله جل وعلا: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى ﴾(١).

يمكن توقُّع انعكاس البركة الإلهية في عباد الرحمن، لأن الرحمة الشاملة والدائمة للرِّبِّ المتعال تتجلَّى في هؤلاء الأشخاص -رجالاً ونساءً- وهم الذين أسبغ الله عليهم نعمته، فاستثمروا هذه النعم استثماراً رائعاً، حتى جعلهم الله تجلياً لرحمته، أسمى من التجلِّي الحاصل في الكائنات الأخرى، حتى ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: «**المُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنَ الْكَعْبَةِ**»(٢).

فهذا الإنسان الذي خلقه من طين له أن يكون أعظم حرمة من الكعبة، لأن صفات الله وأسماءه تتجلَّى فيه.

وحين نتدبَّر في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾

(١) سورة الفرقان، آية: ٦١.

(٢) بحار الأنوار: ج٦٤، ص٧١.

ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾[1].

نجد أن الله يذكر ثواب الدخول في العباد قبل بيان ثواب الدخول في الجنة. وحين نتدبَّر في آية أخرى: ﴿ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾[2] نعرف أن نعمة الدخول في زمرة العباد ومجالسة الرَّبِّ هي أعظم نعمة. بلى؛ إن الجنة وما فيها من نِعَم يَستعْصي حتى على الخيال تصوُّرها، لا تُعَدُّ شيئاً إذا قسناها بمقام مجاورة الرَّبِّ أو حتى مجاورة عباد الله.

وإنِّي لأتوقف طويلاً أمام النص الشريف الوارد في زيارة عاشوراء حيث جاء فيه: «**فَأَسْأَلُ اللهَ الَّذِي أَكْرَمَنِي بِمَعْرِفَتِكُمْ، وَمَعْرِفَةِ أَوْلِيَائِكُمْ، وَرَزَقَنِي الْبَرَاءَةَ مِنْ أَعْدَائِكُمْ، أَنْ يَجْعَلَنِي مَعَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنْ يُثَبِّتَ لِي عِنْدَكُمْ قَدَمَ صِدْقٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُبَلِّغَنِي الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ**»[3].

وأتساءل: كيف يتسنَّى للمؤمن الصالح أن يصل إلى هذه المرحلة السامية، حيث يكون مع أئمة الهدى عليهم السلام؟. ولكن رحمة الله واسعة.

أما صفة المشي على الأرض بالهون التي بيَّنها الرَّبُّ كأُولى سمات عباد الرحمن، فهي تنقسم إلى شقين:

الأول: المشية الظاهرة الدالة على تواضع العبد الصالح لِرَبِّه وتجاه عموم الخلائق. فحركته بلا تكبُّر أو تجبُّر، مما تدل على معرفته بنفسه وبما حوله، ومعرفته بأنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً.

(١) سورة الفجر، آية: ٢٧-٣٠.
(٢) سورة القمر، آية ٥٥.
(٣) كامل الزيارات، الباب: (٧١) ثواب من زار الحسين عليه السلام يوم عاشوراء.

الثاني: المشية السلوكية المُعبِّرة عن الاعتدال؛ فإذا غضب العبد للرحمن لا يتطرَّف في غضبه، وإذا رضي لا يتميَّع في رضاه، وإذا آمن بفكرة لا يُؤمن بها عن تعصُّب. وعموماً فإن حركته إنما هي العدل في كل شيء. فهو لا يُفْرِط ولا يُفَرِّط في مواقفه تجاه الأحداث والأشخاص، وإنما يستعمل الرفق في الدين وممارسة فرائضه.

» إن هدف النبي والأئمة وهدف من يتَّبعهم هو تحرير الإنسان من جهالته وأنانيته وليس هدفهم ذاتيًا حتى في إطار السيطرة على سدة الحكم.

إن عباد الرحمن اختطُّوا لأنفسهم طريق الرفق والسلام، دون التعصُّب والإرهاب، رغم أنهم شجعان أقوياء في الدفاع عن الحق ورفض الباطل. ولعمري لو طُبِّقت هذه الآية الشريفة لوحدها في بلادنا المسلمة، لكانت كفيلة بحل الكثير من الأزمات العالقة.

٢ - ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾.

فهم عباد مُكرمون، وبالرغم من أن لهم من العفة ما يجعلهم شديدي التأثر بالسَّبِّ والتُّهمة والكلمات الجارحة، إلَّا أنهم يصبرون على الأذى في سبيل الله. لماذا؟.

لأنهم حكماء حلماء. وكما أن فعلهم رشيد وقولهم سديد، كذلك ردُّ فعلهم حكيم ودقيق، وعنوان ردِّ فعلهم هو القول: ﴿سَلَـٰمًا﴾ لجذب المسيء والتأثير فيه بما قد يُصلحه.

وهذه هي طبيعة الحركة الصالحة في المجتمع، إذ الغرض منها هداية الناس، وهي ليست كحركة الطاغين والانتهازيين من السياسيين حيث أكبر هَمِّ الطاغي والسياسي أن يُزيح خصمه فيُسيطر على مقدَّرات الأمور ويُحقِّق مصالحه.

بلى؛ إن هدف النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام وهدف من يتَّبعهم هو تحرير الإنسـان من جهالته وأنانيتـه وليس هدفهم ذاتيًّا حتى في إطار السـيطرة على سـدة الحكم. فعباد الرحمن يُريدون للجاهل أن يدخـل الجنـة بدلاً مـن النار، ويضعون اسـتراتيجتهم على أسـاس إصلاح المسيء وليس إلحاق الأذى به أو الانتقام منه.

وانظـر إلى ما ورد في سـيرة أمير المؤمنـين عليه السلام، حيث قال لجموع الناس الذين تجمَّعوا حوله يريدون مبايعته بعد مقتل عثمان: «**وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً**»[1].

لأنـه كان يعلـم طبيعة المجتمـع، حيث كان عنـوان المرحلة الصِّراع من أجل السلطة ومكاسب الدنيا.

» بصائر وأحكام

١- القرآن الذي بين الدفتين كتاب صامت، أما عباد الرحمن الحقيقيون فهم يُمثِّلون آياتٍ في واقع الحياة ويُجسِّـدون القرآن. فإذا أردنا التعرُّف على جمال الآيات وجلالها، وجدناها في عباد الرحمن.

٢- إن عباد الرحمن اختطُّوا لأنفسهم طريق الرفق والسلام، دون التعصُّب والإرهاب، رغم أنهم شـجعان أقوياء في الدفاع عن الحق ورفض الباطل.

٣- كما أن فعل عباد الرحمن فعل رشيد،كذلك هو ردُّ فعلهم فهو حكيم.

(١) نهج البلاغة، (٩٢) من كلام له عليه السلام لما أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان.

» هكذا يبيت عباد الرحمن

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

» من الحديث

عَـنْ مَعْرُوفِ بْنِ خَرَّبُوذَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «صَلَّى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِـينَ عليه السلام بِالنَّاسِ الصُّبْحَ بِالْعِرَاقِ فَلَمَّا انْـصَرَفَ وَعَظَهُمْ فَبَكَى وَأَبْكَاهُمْ مِنْ خَوْفِ اللهِ. ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللهِ لَقَدْ عَهِدْتُ أَقْوَاماً عَلَى عَهْدِ خَلِيلِي رَسُـولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَإِنَّهُمْ لَيُصْبِحُونَ وَيُمْسُونَ شُعْثاً غُبْراً خُمُصاً، بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ كَرُكَبِ الْمِعْزَى يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُـجَّداً وَقِيَاماً، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ أَقْدَامِهِـمْ وَ جِبَاهِهِمْ يُنَاجُونَ رَبَّهُمْ وَيَسْـأَلُونَهُ فَكَاكَ رِقَابِهِمْ مِنَ النَّارِ، وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ مَعَ هَذَا وَ هُمْ خَائِفُونَ مُشْفِقُونَ»[1].

***

تفصيل القول

كيـف يدفـع المرء بمواقفـه إلى مـا يتَّفـق ومنهجيـات عقله وأوامر الشرع؟. وكيف لا تعصف بالإنسان رياح الشهوة والهوى،

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٢٣٦.

فتجعله يتطرَّف يميناً أو يساراً؟.

لمـاذا الكثير مـن النـاس لا يلتزمون بما تُمـلي عليهم عقولهم، ولا نُصـح الناصحين؟ هل هو من ضعف يحل بعزيمتهم؟. أو لأن هواهم غالب على عقولهم؟.

نعم؛ إنهم حين يتصرَّفون بالخطأ لا يُفكِّرون، أو أنهم يتصرَّفون ثم يُفكِّرون، فتراهم مثلاً يتَّخذون مواقف ثم يبحثون لها عن تبريرات.

بينـما عبـاد الرحمـن يتجـاوزون بهـا كل هـذه المطبـات، بـما يملكـون مـن ميزة هامـة تتمثَّـل في اعتماد الـشرع المُقـدَّس ضابطاً لأفعالهـم ومواقفهـم. وعباد الرحمن إذ ذاك ليسـوا أسـاطير مثالية، وإنما هم بشر حقيقيون لابد أن يتعرَّف إليهم الإنسان ليقتدي بهم.

كيف يصل عباد الرحمن إلى هذه الصفة؟.

لعل أهم ميزاتهم أنهم يقضون لياليهم بالتهجُّد لربهم، حيث يتلذذون بالسجود والقيام بين يدي الرحمن، راجين أن يبعثهم مقاماً محموداً.

وأن يبيـت المـرء متهجِّـداً، فـذاك يعنـي أنه يُجاهـد ويُغالب نومـه. والهجـود هو النـوم، ولكن لما دخـل عليه التشـديد دلَّ على معنـىً معاكـس، فصار التهجُّـد بمعنى مغالبة النـوم، إقبالاً على ما هـو أعظم من النوم وهو لقاء الرَّبِّ عبر مناجاته. لقد دخل الإيمان شغاف قلوبهم وتجانس مع إراداتهم.

ولكن هل هذا يعني أن عباد الرحمن لا ينامون لياليهم أبداً؟.

يبدو أن الأمر ليس كذلك، فهم ينامون بعض ليلهم، إلَّا أن نومهم

كقيامهم؛ أي أنهم ينامون ليستمدوا القوة والعزم بما خلد في عقولهم الباطنة. فهم حتى في نومهم متيقِّظو القلوب، يذكرون الله تبارك وتعالى.

وهكذا تراهم إذا قاموا، قاموا لينظروا إلى ملكوت السماوات والأرض ببصائرهم، وليقولوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(١).

فهمُّهم الأكبر -إذاً- التزحزح عن النار ودخول الجنة لينالوا الفوز العظيم.

إنهم يعيشون في عالم الدنيا، ولكنهم يعتبرونها مجرد محطة عبور إلى عالم آخر، هو عالم الحساب والثواب. فأرواحهم معلقة بما هو أسمى من إغراءات هذه الدنيا الزائلة. وهذا يعني أنهم بتهجدهم -وما يعكسه هذا التهجد على سلوكهم وأقوالهم- يستثمرون فرصة الدنيا أفضل استثمار.

» بصائر وأحكام

١- عباد الرحمن يقضون لياليهم بالتهجُّد لربهم، حيث يتلذذون بالسجود والقيام بين يدي الرحمن ربهم، راجين أن يبعثهم مقاماً محموداً.

٢- عباد الرحمن يعيشون في عالم الدنيا، ولكنهم يعتبرونها مجرد محطة عبور إلى عالم الآخرة، فأرواحهم معلَّقة بما هو أسمى من إغراءات هذه الدنيا الزائلة.

(١) سورة آل عمران، آية ١٩١.

» ربنا اصرف عنا عذاب جهنم

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

» من الحديث

مِنْ أَدْعِيَةِ مَوْلَاتِنَا فَاطِمَةَ عليها السلام عَقِيبَ الْخَمْسِ الْمَفْرُوضَاتِ: «.. **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَوْدِعُكَ دِينِي وَنَفْسِي وَجَمِيعَ نِعْمَتِكَ عَلَيَّ، فَاجْعَلْنِي فِي كَنَفِكَ وَحِفْظِكَ وَعِزِّكَ وَمَنْعِكَ، عَزَّ جَارُكَ، وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ، حَسْبِي أَنْتَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1]. ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[2]. ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[3] ..»[4].

---

(١) سورة الممتحنة، آية: ٤-٥.
(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٥-٦٦.
(٣) سورة الأعراف، آية: ٨٩.
(٤) بحار الأنوار: ج٨٣، ص١١٧.

تفصيل القول

١ - ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾.

الهدف الأساس الذي ينبغي أن يسعى الإنسان جاهداً لتحقيقه هو الخلاص من نار جهنم، وحسب آية كريمة: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[1]، نعرف أن دخول الجنة قد لا يكفي للسعادة، حيث إن البعض يستقر به المقام في الجنة ولكن بعد قضاء دهر في النار، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[2].

من هنا كانت هِمَّة عباد الرحمن العالية هي ألَّا يُعذَّبوا بالنار أبداً. وهذا ما يُعبِّرون عنه في آية كريمة حيث يقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.[3]

فالوقاية من النار رغبة ودعاء للمؤمنين.. وهل يستطيع الإنسان بمجرد العبادة ليلاً الخلاص من النار؟.

كلَّا؛ إنما بالإضافة إلى ذلك هو بحاجة إلى المزيد من فضل الله ورحمته.

وعباد الرحمن يُدركون هذه الحقيقة الكبرى، لذلك هم يدعون ربَّهم على الدوام أن يَعمَّهم بفضله ورحمته. فهم في خوف دائم وفي رجاء دائم أيضاً، خوف من غضب الله، ورجاء في فضله.

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٥.
(٢) سورة مريم، آية: ٧١-٧٢.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٠١.

إن القيم التي يلتزم بها الإنسان -أيّ إنسان كان- وفي أيّ مكان؛ تنقسم إلى قسمين رئيسين:

- قيمة دفع الضرر.
- قيمة جلب المنفعة.

وكلما بحثنا عن القيم وجدناها في نهاية المطاف تنتهي إلى هاتين القيمتين. وربنا المتعال يشير إلى هذه القضية بقوله الشريف: **﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾**[1]. فالإطعام هو جلب منفعة، والأمن دفع الضرر.

ولا ريب في أن دفع الضرر مُقدَّم على جلب المنفعة عادة. وهذا في الواقع أمر فطري غرزه الله سبحانه وتعالى في الإنسان.

وهكذا تجد عباد الرحمن يتضرَّعون إلى ربِّهم ليدفع عنهم الضرر، بل النار، التي هي أعظم خطر وأكبر خسارة. وكما قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «**مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ**..»[2].

حينما يضع الإنسان العتق من النار هدفاً رئيساً لحياته، تتحسَّن جميع صفاته. أما بعض الناس، وهم القسم الأكبر منهم، لا ورع لديهم، فتراهم يفعلون الخير ويفعلون الشر ولا يدرون أي الكفتين لديهم راجحة. وهذه مشكلة كبيرة في حياة الناس.

لذلك؛ نجد ربنا المتعال يقول:

٢- ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

والغُرم هو الخسران ويقابله الغُنم. فعذاب جهنم خسارة

(١) سورة قريش، آية: ٣-٤.
(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٣٨٧.

ما بعدها خسارة، وأية خسارة أعظم من ضياع فرصة القرب من الله، الذي وعد الإنسان إنْ أطاعه أن يجعله جليسه في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وأن يبلغ من الكرامة مقاماً عليًّا، حيث جاء في حديث قدسي: «**يَا ابْنَ آدَمَ؛ أَنَا غَنِيٌّ لَا أَفْتَقِرُ، أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ غَنِيًّا لَا تَفْتَقِرْ. يَا ابْنَ آدَمَ؛ أَنَا حَيٌّ لَا أَمُوتُ، أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ حَيًّا لَا تَمُوتُ. يَا ابْنَ آدَمَ؛ أَنَا أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ، أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ**»[(١)].

إن الهدف الأسمى للمؤمن النجاة من النار، حيث نقرأ في دعاء مأثور عن الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة: «**اللَّهُمَّ حَاجَتِي إِلَيْكَ الَّتِي إِنْ أَعْطَيْتَنِيهَا لَمْ يَضُرَّنِي مَا مَنَعْتَنِي، وَالَّتِي إِنْ مَنَعْتَنِيهَا لَمْ يَنْفَعْنِي مَا أَعْطَيْتَنِي، أَسْأَلُكَ خَلَاصَ رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ**»[(٢)].

بلى؛ إن حياتك في الدنيا فرصتك في العتق من النار وشراء الجنة، وأية خسارة أعظم من خسارة هذه الفرصة. وقد قال الشاعر الشيخ حسن الدمستاني:

أنفاسُ نفسِكَ أثمانُ الجِنانِ فهل
تَشْري بها لهباً في الحَشرِ يشتَعِلُ[(٣)]

» بصائر وأحكام

١- النار أخطر خسارة قد يتعرَّض لها الإنسان، مما يُحرِّكه إلى بذل كل ما بوسعه للابتعاد عنها. وإذا وضع الإنسان العتق من

(١) بحار الأنوار: ج٩٠، ص٣٧٦.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٣، ص٥٣٨.
(٣) ديوان نيل الأماني.

النار هدفاً رئيساً لحياته، حَسُنت جميع صفاته وأخلاقه.

٢- لا يتخلَّص الإنسـان من عذاب جهنم لكونه فقط يبيت لربِّـه سـاجداً وقائماً، بـل العلة الكـبرى لنجاته من النـار تكمن في فضل الله ورحمته.

» من صفات جهنم

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾.

» من الحديث

* قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم فِي وَصِيَّتِهِ: «**يَا عَلِيُّ! إِنَّ فِي جَهَنَّمَ رَحًى مِنْ حَدِيدٍ، تُطْحَنُ بِهَا رُؤُوسُ الْقُرَّاءِ وَالْعُلَمَاءِ الْمُجْرِمِينَ..**»[1].

* رَوَى الإِمَامُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ آبَائِهِ عَنْ عَلِيٍّ عليهم السلام قَالَ: «**قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِياً يُقَالُ لَهُ: سَعِيراً إِذَا فُتِحَ ذَلِكَ الْوَادِي ضَجَّتِ النِّيرَانُ مِنْهُ أَعَدَّهُ اللهُ تَعَالَى لِلْقَتَّالِينَ**»[2].

* عَنِ ابْنِ بُكَيْرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «**إِنَّ فِي جَهَنَّمَ لَوَادِياً لِلْمُتَكَبِّرِينَ يُقَالُ لَهُ: سَقَرُ، شَكَا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ شِدَّةَ حَرِّهِ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ أَنْ يَتَنَفَّسَ فَتَنَفَّسَ فَأَحْرَقَ جَهَنَّمَ**»[3].

***

(١) مستدرك الوسائل: ج٤، ص٢٤٩.
(٢) مستدرك الوسائل: ج١٨، ص٢٠٥.
(٣) الأصول من الكافي: ج٢، ص٣١٠.

تفصيل القول

١ - ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا ﴾.

فهي السوء بعينه. وإذا كانت الدنيا دار ممر، فإن جهنم إحدى داري المقر وساءت مقرًّا، لأن فيها كل شر مستطير.

٢ - ﴿وَمُقَامًا ﴾.

فالاستقرار هو الغاية التي يصل إليها، أما المقام فهو موقع البقاء الدائم. وإذا كانت الأمور تُقاس بعواقبها والسبل تُقيَّم بنهاياتها، وإذا كان الإنسان قد عرف بفطرته أن هناك نهاية لمرحلته الطويلة، فلابد -إذاً- أن يحذر من أمرٍ عاقبته النار ويتجنَّب سبيلاً نهايته جهنم.

وهذا الغرام والمستقر والمقام كله إنما يُصيب ابن آدم بما كسبت يداه، حيث اختار لنفسه أن يكون من عبيد الشيطان بدلاً من أن يكون من عباد الرحمن.

» بصائر وأحكام

إذا كانت الدنيا دار ممر فإن جهنم إحدى داري المقر. وإذا كانت الأمور تُقاس بعاقبتها والسبل بنهاياتها فإن جهنم ساءت مستقراً ومقاماً.

» لا للإسراف.. لا للإقتار

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾.

» من الحديث

* عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ أَعْطَى فِي غَيْرِ حَقٍّ فَقَدْ أَسْرَفَ، وَمَنْ مَنَعَ مِنْ حَقٍّ فَقَدْ قَتَّرَ**»(١).

* قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**الْقَوَامُ هُوَ الْوَسَط**»(٢).

* عَنِ الْحَلَبِيِّ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِنَا عَنْهُ قَالَ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ لِأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام: «**يَا بُنَيَّ؛ عَلَيْكَ بِالْحَسَنَةِ بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ تَمْحُوهُمَا.**

قَالَ عليه السلام: **وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا أَبَتِ؟.**

قَالَ عليه السلام: **مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ فَأَسْرَفُوا سَيِّئَةً، وَأَقْتَرُوا سَيِّئَةً، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ**

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٦، ص٢٦١.
(٢) مجمع البيان: ج٧، ص٢٧٨.

قَوَامًا ﴾ حَسَنَةً، فَعَلَيْكَ بِالحَسَنَةِ بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ»[1].

***

تفصيل القول

١ - ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾.

من الصفات الحميدة التي تنعكس في حياة عباد الرحمن أنهم لا يُسرفون ولا يُقتِّرون إذا أنفقوا.

ولكن ما هو الإسراف؟. وما هو الإقتار؟. وهل هناك حدود شرعية لهما؟.

يبدو أن لا حدود شرعية لمدى الإسراف والإقتار في أغلب الحالات؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل عقل الإنسان يُحدِّد طبيعة الإسراف والإقتار. ولا ريب في أن العقل لا يكتمل ولا يسير في مسار الحق إلَّا لدى عباد الرحمن الذين لا تُزلزلهم الزلازل ولا تصبغ شخصياتهم الظروف المحيطة بهم؛ فهم قد اختزلوا في أنفسهم الحكمة الإلهية.

والإنفاق لا يُقصد به الإنفاق على الفقير كما قد يتبادر من التعبير، بقدر ما هو الإنفاق على المعيشة في كافة الحقول.

إن عباد الرحمن ملبسهم الاقتصاد، كما أن مشيهم التواضع. وهم لا يتصرَّفون بأفعال أو ردود أفعال، بل على أساس قواعد وأصول محسوبة بدقة. وهم كذلك لدى الإنفاق لا يسترسلون مع شهواتهم أو رغباتهم، وإنما هم يتَّخذون الحياة بجدية بالغة

(١) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٢١٦.

ويُواجهون الضغوط التي يتعرَّضون لها من أنفسهم ومن المحيطين بهـم في كافة تصرُّفاتهم، حتى ينطلقوا مـن مبادئهم الحكيمة، فترى مثـلاً كيـف تصرف الإمـام أمير المؤمنـين عَلَيْتَكِلِّ في أشـد الظروف انطلاقـاً من الحكمـة الإلهية وليس مـن ردِّ فعله، وذلـك في معركة الخنـدق حينـما نـازل عمـرو بـن عبـد ود العامري،حيث شـاهده المسـلمون يقـوم عن صدر الكافر الفاجر، فنـادوه: أن يا علي أجهز عليه مادام سـاقطاً على الأرض، ولكنه قام عنه قليلاً ثم عاد وقضى عليـه. ولما سُـئل عن ذلك، أخبرهم بأن خصمه قـد وجّه إليه إهانة شخصية، فخاف أن يكون إجهاز ه عليه انطلاقاً من غضبه وانتقاماً لذاته، فقام عنه وصبر هنيئة ليبرد غضبه، ثم عاد إليه فقتله.

وليـس يصـل المرء إلى هذه الرؤيـة الصافية الثاقبـة إلَّا حينما يذوب في بوتقة الحكمة، ويرتبط بالله ارتباطاً تامًّا.

٢- ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

بـلا إسراف وابتـذال، وبلا إقتـار وقبضٍ شـديد، بل القوام هـو المطلـوب والمؤمَّل مـن المؤمن الـكادح ليصـل إلى منزلة (عباد الرحمن).

والقـوام هـو ما يُقام بـه النظم ويُعتمد عليـه. وهذا يعني أن لعبـاد الرحمـن ميزاناً يرجعون إليـه في تصرُّفاتهم، مثـل عطائهم أو إمسـاكهم. والميـزان هذا قائم على الحكمة التـي هي معرفة الحقائق زائداً العزم على التصرُّف وفقها بما يُرضي الله تبارك وتعالى.

ومـن هنا؛ يتَّضح أن الدين الإسـلامي يهدف إلى تربية الفرد الصالـح في أجواء مجتمـع صالح، وضمن نظـام اقتصادي فاضل، لأن مثـل هذا النظـام هو الذي يُنتج حياةً سـليمة، نظراً لأن النظام

الاقتصادي ذو تأثير على مسلك الفرد والمجتمع، حتى أن كثيراً من تصرُّفات الفرد في الحرب أو السلام تعود في حقيقتها إلى النظام الاقتصادي.

فحينما يستشري الطمع والتطرُّف في الإنفاق والرشوة وأكل أموال الناس بالباطل، وحينما ينكبّ الفرد على أكل ما لا يُنتجه وما لا يستحقه، فلا يمكن إذ ذاك تصوُّر حياة اجتماعية هنيئة لكافة الشرائح؛ إذ الآكل والمأكول مغبونان خاسران. وما هذا الاضطراب الحاصل على المستوى الاقتصادي في العالم والذي يُؤثر في كافة أبعاد الحياة، إلَّا عائد إلى عامل الرغبة لدى البعض في أكل الباطل والإسراف في الصرف، ومن ثَمَّ محاولة إزاحة الآخرين عن طريقهم.

» بصائر وأحكام

إن لعباد الرحمن ميزاناً يرجعون إليه في تصرفاتهم جميعاً. والميزان هذا قائم على الحكمة التي تعتمد المعرفة والإرادة الصارمة، لتتم بذلك كله إدارة الحياة بما يُرضي الله تبارك وتعالى.

» المجتمع الفاضل هدف الشرائع الإلهية

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾.

» من الحديث

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟.

قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا، وَهُوَ خَلَقَكَ.**

قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟. قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ.**

قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟. قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ.**

فَأَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَهَا: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾»[1].

***

(١) مجمع البيان: ج٧، ص٢٨٠.

تفصيل القول

لعل الهدف الأبعد والأسمى للشرائع الإلهية، والتي اكتملت بالقرآن الكريم، هو صنع المجتمع الفاضل المُتقرِّب إلى الله سبحانه وتعالى دائماً.

وبتعبيرٍ آخر: الأمة الواحدة.

ويمكن تصوُّر المجتمع الإيماني الفاضل حينما تسوده العلاقات الإيجابية والأخلاق الطيبة فيه. وآنذاك تنبثق سلطة صالحة؛ لأن القاعدة العقلية بهذا الصدد تُؤكِّد أنه كيفما يكون الناس يُولَّى عليهم، كما هي القاعدة العقلية الشائعة: «الناس على دين ملوكهم». فهي -إذاً- معادلة تكاد تكون ثابتة.

وتلك السلطة الصالحة التي تنبثق من المجتمع الفاضل ستعينه على استشراف الحق والتمسُّك بالصلاح ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾(١).

ولقد جاهد رسول الله ﷺ حق الجهاد في سبيل صياغة الأمة التوحيدية، ولا تزال تلك الصياغة تتردد أصداؤها في كل مكان. وما عند المسلمين من نعمة في العصر الراهن، إنما هي شُعبة من تلك النعمة الكبرى.

وحسب هذه الآيات المباركات، فإن القيم الفاضلة تتشعب إلى ثلاث:

الأولى: قيمة النظام الاقتصادي، وتَقَدَّم القول فيها خلال تفسير الآية السالفة.

(١) سورة الأعراف، آية ٥٨.

الثانية: قيمة الحياة.

الثالثة: قيمة العِرض.

والإنسان -في شرع الله- محترم مهما كان عنصره ومذهبه وانتماؤه الجغرافي.

فحرمة حياة الإنسان سارية في كل الأحوال، إلَّا أن يعمد هذا الإنسان نفسه إلى انتهاك هذه الحرمة، فيكون عقابه استلاب الحياة منه؛ بمعنى أن الحق هو الذي يُشرِّع مدى حرمة الحياة والنفس.

الشرك منبت الخبائث

وانتهاك حرمات النفس والمال والعرض يأتي نتيجة للشرك باعتباره منبث الخبائث. إنه ورغم تخصيص القرآن الكريم آياتٍ كثيرة جدًّا لموضوع الشرك وعبادة غير الله والأنداد من دونه، إلَّا أن هذا الموضوع لم يحظ بكبير اهتمام من قبل الدارسين؛ ذلك لأن الطغاة-وما يمثلون من قوة ضغط على رعاياهم-لا يتورَّعون عن الحديث عن التوحيد وعن إيجابيات الدين، ولكنهم في الوقت ذاته يحولون دون الحديث عن المحرَّمات والحدود الإلهية؛ لأنهم في الحقيقة يرون الحديث في الشق الثاني مساساً بسلطانهم.

كما جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ أَطْلَقُوا لِلنَّاسِ تَعْلِيمَ الْإِيمَانِ، وَلَمْ يُطْلِقُوا تَعْلِيمَ الشِّرْكِ، لِكَيْ إِذَا حَمَلُوهُمْ عَلَيْهِ لَمْ يَعْرِفُوهُ**»[1].

وهكذا كان معاوية ينهر الصحابي حينما كان يتلو عند قصره في الشام آية الكفر ويعتبر ذلك تعريضاً به؛ لأنه كان يكنز الذهب

(١) الأصول من الكافي: ج٢، ص٤١٥.

والفضة ولا ينفقهما في سبيل الله.

إننا كبشر مثقلون بالثقافات الشركية التي تميل بنا إلى تحاشي الحديث عن الشرك؛ لأن هذا النوع من الحديث غالباً ما يمسّ أفكارنا وبعضاً من ممارساتنا. أما الحديث عن الإيمان فليس فيه غضاضة عندنا. وهذا مرض خطير ويُعَدُّ سبباً رئيساً لعشرات الانحرافات عند البشر. والقرآن المجيد عاب على المصابين بهذا المرض بقوله العزيز: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۝٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]. وقال أيضاً في إطار الاستنكار والتنديد: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[2].

ولكن؛ ما هو الشرك، وما هي حقيقته؟.

واضح أن من يسجد للصنم مُشرك، ومن يعتقد بالهٍ مع الله مُشرك، ومن يُؤمن بوجود طينة نتنة كانت خالدة بخلود الله وقد أراد أن يتخلَّص منها فدخل فيها فتكوَّن البشر هو الآخر مُشرك، ومن يُؤمن بعدم الفارق بين الخالق والمخلوق فكلاهما أزليان فهو مُشرك أيضاً. ثم هناك شرك خفي يُصاب به المرء إذا ما اعتمد غير الله، أو مارس الرياء.

» لعل الهدف الأبعد والأسمى للشرائع الإلهية، والتي اكتملت بالقرآن الكريم، هو صنع المجتمع الفاضل المُتقرِّب إلى الله دائمًا.

ومن ذلك الطاعة لغير الله ولغير من أمر الرب بطاعته مثل أن يسلم الإنسان أمره لشيء ما أو قانون ما أو حزب ما.

وقد قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن

(١) سورة الحجر، آية: ٩١-٩٢.
(٢) سورة البقرة، آية: ٨٥.

دُونِ ٱللَّهِ ﴾: «وَاللهِ مَا صَلَّـوْا وَلَا صَامُوا لَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمْ حَرَاماً، وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ حَلَالاً فَاتَّبَعُوهُمْ»(١).

بلى؛ قد تكون الطاعة امتداداً لطاعة الله، كطاعة الرسـول أو الإمـام أو العلـماء أو الوالدين، فإنها ليسـت بشرك، أمـا إذا لم تكن الطاعة امتداداً لطاعة الله، كطاعة الطاغوت أو طاعة الوالدين بغير ما أمر الله تعالى، أو طاعة علماء السـوء استرسـالاً، أو طاعة الحزب كذلك؛ فهو شرك.

ولاريب في أن أكثر البلاء الذي يحلّ بالمسلمين عموماً، ناتج عن الاسترسـال في طاعة غير الله، ولا فرق بين أن يهجر المرء أوامر الله وتعاليمـه بداعي هوى النفس من جهالة أو غرور وتكبُّر، وبين شهوة ضاغطة أو مالٍ مُغرٍ.

وهكذا نعرف أن المسـؤولية الملقاة على عواتق قادة المسلمين عظيمة جدًّا، وهي مسـؤولية السعي إلى تطهير الأمة من هذا النوع من الطاعة.

وهكذا يُذكِّر ربُّنا المتعـال بأعظم صفات عباد الرحمن، حين يقول:

١- ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ ﴾.

فهؤلاء المؤمنون الذين يقولون للجاهلين سلاماً، لا يُريدون التمرُّد على النظام الاجتماعي، ولكنهم في الوقت نفسه لا يخضعون لهذا النظام بصورة مطلقة.

(١) بحار الأنوار: ج٢، ص٩٨.

بعدئذ يقول ربنا سبحانه:

٢- ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

أي أن من يُشرك بالله فيُطيع -مثلاً- ظالماً، أو يُعينه، أو يُطيع غير الله أنَّى كان، هو أول من يُبتلى به.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي يدعو مع الله إلهاً آخر، أولاً.

أو: يقتل، ثانياً.

أو: يزني، ثالثاً.

فإنه يلقى أثاماً (جزاء إثمه).

ويبقى **سؤال**: لماذا جمعت الآية الكريمة هذه الموبقات الثلاث في حزمة واحدة: الشرك، والقتل، والزنى؟.

لعل السبب يتمثَّل في أن الجبت والطاغوت (وهما مادتا الشرك) هما السبب في انتهاك حرمة النفس والعرض.

» بصائر وأحكام

أكثر البلاء الذي يحل بالمسلمين عموماً، ناتج عن الاسترسال في طاعة غير الله. ولا فرق بين أن يهجر المرء أوامر الله وتعاليمه بداعي هوى النفس من جهالة أو غرور وتكبُّر، وبين من يتركها بسبب شهوة ضاغطة أو مالٍ مُغرٍ. والمسؤولية الملقاة على عاتق قادة المسلمين عظيمة، وهي ضرورة السعي من أجل تطهير الأمة من هذا النوع من الطاعة.

» لماذا مضاعفة العذاب؟

﴿ يُضَـٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

لماذا يُضاعَف العذاب لمن دعا مع الله إلهاً آخر، ولمن يقتل النفس المحرمة إلَّا بالحق، ولمن يزني؟.

ربما لأن الذنب الواحد يتحوَّل إلى سلسلة من الذنوب، فمن أشرك بالله وأطاع غيره فإنه يرتكب الكثير من الذنوب. وكذلك من يقتل نفساً محترمة يتحمَّل وِزْرَ كل الآثار السلبية التي تتوالى على قتله من إخافة الناس ومن الإخلال بالأمن ومن ترمُّل زوجته وتيتُّم أولاده، وغيرها. وهكذا من يرتكب الزنى تتحوَّل جريمته إلى مئات من السيئات.

ولم تُحدِّد الآية الشريفة عدد مرات المضاعفة، بل تركتها لعدل الله الذي يتعامل بالدقة المتناهية. ثم هناك خلود في النار مع الهوان والذل الذي يلحق به. ولعل شعور المُخلَّد في النار بالذل

والصغار، وشعوره بتعرُّضه لغضب الله عز وجل أشد وقعاً عليه من عذاب النار نفسه. كما أن شعور أهل الجنان بشمولهم برضوان الله أعظم من شعورهم بوجودهم في الجنان نفسه؛ ذلك لأن غضب الله قد يكون أقسى من ناره على الكافرين، وكذلك رضوان الله تعالى أعظم لذَّةً من الجنة بالنسبة إلى المؤمنين.

ويبدو من خلال ذكر المضاعفة في العذاب، أن هناك نوعين من العذاب:

الأول: هو الفعل الإجرامي نفسه الذي يقوم به الإنسان، حيث يتحوَّل يوم القيامة إلى عذاب، وهذا ما يُسمَّى بتجسيد الأعمال.

فكما أن الصلاة تأتي صاحبها في القبر وفي يوم القيامة على شكل شخص جميل نوراني، كذلك جريمة القتل أو الزنى أو غير ذلك من الفواحش الظاهرة والباطنة، تأتي صاحبها في القبر وفي يوم القيامة بما يُماثلها من القبح. وهذا عذاب بحد ذاته. كذلك الذي يأكل مال اليتامى ظلماً يتحوَّل ما أكل ناراً في بطنه.

الثاني: ما يلاقيه من العقاب والعذاب في القبر والقيامة ونار جهنم جزاءً على الأعمال الإجرامية والذنوب والمعاصي.

ونتساءل: لماذا جاءت الأفعال هنا بصيغة المضارع (يدعو، يقتل، يزني)؟.

والجواب: إن هذه الصيغة تدل على استمرار الفاعل في القيام بالفعل، مما يدل على إصرار القائمين بها على ممارستها على الدوام. وهذا الإصرار ناتج عن التحدي لأوامر الله باستمرار ودونما مراجعة للذات ؛ وقد يكون ناتجاً عن اليأس من رحمة الله

لأن صاحبها يعتبر ذنبه أكبر من رحمة الله، أو لظنه بأن الله عز وجل عاجز عن مساعدته في إصلاح نفسه.

فهـذا الإصرار على الكبائـر، وهذا اليأس من الرحمـة، هما ذنبان كبيران بحدّ ذاتهما، ويدعوان إلى مضاعفة العذاب لمن تورَّط في شرنقتهما.

ولعل أحد مفاهيم المضاعفة في العذاب إشارة إلى ما ورد في الآية الشريفة السابقة، حيث جاء فيها: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾[1]. باعتبار أن الداعي إلى غير الله يتعرَّض إلى العيشة الضنكا في الدنيا قبل الآخرة، لأنـه مُعْرِض عن الله. فالقاتل قد يبشر بالقتل ولو بعد حين، كما أن الـزاني يجد جزاء زنيته في الدنيا، والسـارق يجد جزاء سرقته عاجلاً أم أجلاً بقطع يد أو سـجن أو فضح، وهكذا. وهو حين يُسـاق إلى العذاب في الدار الآخرة، يكون قد لقي عذاباً آخر في الدنيا. وهكذا يكون قد تضاعف له العذاب.

» بصائر وأحكام

١- يُضاعَف العذاب في يوم القيامة لمن دعا مع الله إلهاً آخر، بمختلف أنـواع الدعوة، بما في ذلك إعانة من يدعو إلى الشرك. كما ويُضاعَف العذاب لمن يقتل النفس المُحترَمة إلَّا بالحق، ولمن يزني.

٢- على الإنسـان أن يتَّقـي كبائر الذنوب، لأنهـا تتحوَّل إلى سلسلة من الذنوب، وبها يتضاعف جزاؤها عليه.

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٨.

» ويبدل اللّه سيئاتهم حسنات

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

» *من الحديث*

في عيون أخبار الرضا أنّ الإمام الرضا عليه السلام قال: «**قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ تَجَلَّى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ فَيَقِفُهُ عَلَى ذُنُوبِهِ ذَنْباً ذَنْباً، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ لَهُ، لا يُطْلِعُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ مَلَكاً مُقَرَّباً وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلاً، وَيَسْتُرُ عَلَيْهِ مَا يَكْرَهُ أَنْ يَقِفَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، ثُمَّ يَقُولُ لِسَيِّئَاتِهِ: كُونُوا حَسَنَاتٍ**»[1].

***

تفصيل القول

كيف يمكن للمرء أن يتوب إلى الله تعالى من الشرك؟.

وهل التوبة من الشرك خاصة بأولئك الذين سجدوا

(١) بحار الأنوار: ج٦٦، ص٢٦١.

للصنم، أو مارسوا بعض أنواع الشرك الخفي، كالخضوع لسلطة ظالمة، أو لتشريع جاهلي، أو اجترحوا رياءً أو خاضوا في عملية نفاق؛ مثلاً؟!.

للإجابة نقول:

نحن هنا أمام ثلاث آيات، ذكَّرتنا الأولى بأنه ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ ﴾[1]، بينما الثانية والثالثة تذكِّرنا بالتوبة.

أفلا نستوحي من هذه المفارقة العددية أن رحمة الله أكبر من غضبه، وأنها قد سبقته، وأنها وسعت كل شيء، وبالتالي أن الرجاء في جنب الله مُقدَّم على الخوف منه؟.

لعلنا نستطيع القول بذلك؛ إذ اليأس والقنوط والخشية المجرَّدة عن الرجاء أمور غير محمودة، كما هو الاسترسال مع الرجاء المجرَّد عن العمل.

ونقطة مهمة لابد من الإشارة إليها في هذا الإطار هي:

أن كل إنسان مُصاب بشعبة من شعب النفاق والانحراف النفسي. وقد نهانا الله تعالى عن الانحرافات والفواحش ما ظهر منها وما بطن، كترك الصلاة أو إتيان الصلاة بنية الرياء؛ لأن هذه الذنوب تحجبنا عن ربِّنا، ولولاها لكنا خلائق مختلفين عما نحن عليه في الواقع، ولاتَّضحت لنا صور الوجود الخافية، ولتكشفت لنا الحقائق، كما لعلها ستتكشف نسبيًّا في يوم القيامة.

ومن أجل اختراق هذه الحجب علينا اتِّهام أنفسنا أبداً، ومن ثم حملها على التوبة إلى الله تبارك وتعالى.

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٩.

١ - ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾.

هذه ثلاث شروط:

الأول: التوبة؛ بمعنى الندم.

الثاني: الإيمان؛ فكأن الإيمان مع ارتكاب الذنوب ليس إيماناً كافياً، فلابد من تجديد العهد بالإيمان.

الثالث: العمل الصالح، الذي قد يملأ الفراغات التي أحدثتها الذنوب. فمن اغتاب شخصاً، لابد له من السعي لإبراء ذمته من ذلك، كأن يسترضي من اغتابه، أو يستغفر له. ومن كسب مالاً حراماً، يتوجَّب عليه إرجاعه إلى أصحابه أو صرف ذلك المبلغ في سبيل الله إن لم يعرف أصحاب المال.

وحيث العمل الصالح ورد بصيغة الإطلاق، فإنه يفسح أمامنا المجال لممارسة ما يتاح لنا من مصاديقه.

٢ - ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾.

هذا القول مصداق لرحمة الله الواسعة، وهو تعبير قدسي سام عن معيارٍ إلهيٍّ في التعامل مع خلقه التائبين المُجدِّدين لإيمانهم والممارسين للعمل الصالح. وهو حقًّا أجر عظيم يكاد البشر لا يُصدِّقه. وهكذا رُوي عن محمد بن مسلم الثقفي، قال: «سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، فَقَالَ عليه السلام: **يُؤْتَى بِالْمُؤْمِنِ الْمُذْنِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَامَ بِمَوْقِفِ الْحِسَابِ، فَيَكُونُ اللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى حِسَابَهُ، لا يَطَّلِعُ عَلَى حِسَابِهِ أَحَداً مِنَ النَّاسِ، فَيُعَرِّفُهُ ذُنُوبَهُ، حَتَّى إِذَا أَقَرَّ بِسَيِّئَاتِهِ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَتَبَةِ: بَدِّلُوهَا حَسَنَاتٍ**

وَأَظْهِرُوهَا لِلنَّاسِ. فَيَقُولُ النَّاسُ حِينَئِذٍ: مَا كَانَ لِهَذَا الْعَبْدِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ؟. ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ بِهِ إِلَى الجَنَّة»[1].

وهـذا لعمري باب عريض قد فتحه الله تعالى للعائدين إليه، فلم لا يدخله الإنسان المذنب بتوبته وإيمانه وعمله الصالح؟.

٣- ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

تدلُّنا كلمة ﴿وَكَانَ﴾ إلى أن أسماء الله أزلية، لا أول لها. فهو عز وجل غفور رحيم، ولن يتغيَّر هذان الاسمان الجليلان. وهكذا فليس عجباً أن يغفر الله ويرحم عباده التائبين ويُبدِّل سيئاتهم حسنات.

وهكذا نستفيد من السياق أن لخواتيم الآيات أهميتها الكبيرة في معرفة حقائق التوحيد مثل قوله سبحانه هنا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. وهكذا قد يكتشف المُتَدَبِّرُ في القرآن مضمون الآية من خلال خاتمتها.

» بصائر وأحكام

١- مهما عمل الإنسان على تربية نفسه في الابتعاد عن الذنوب والمعاصي، إلَّا أنه لا يأمن السقوط في أحضانها، حتى بنسبة محدودة. وهذا ما يجعل المؤمن دائماً يتَّهم نفسه، ويحملها على التوبة إلى الله تعالى.

٢- كما أن اليأس والقنوط والخشية المجرَّدة أمور غير محمودة ومنهي عنها، كذلك الاسترسال مع الرجاء من دون العمل بمقتضى الخوف والورع عن محارم الله تعالى.

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص٢٦١.

» التوبة إلى اللّه

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

» من الحديث

* قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: **«التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»**[1].

* عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ الْحَذَّاءِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ: **«إِنَّ الله تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ وَزَادَهُ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ فَوَجَدَهَا، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ بِرَاحِلَتِهِ حِينَ وَجَدَهَا»**[2].

***

تفصيل القول

ثلاث حقائق قد تُستفاد من هذه الآية الكريمة:

أولاً: إن أعظم خطر يُواجهه المرء من الذنب هو الابتعاد

(١) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٧٥.
(٢) الأصول من الكافي: ج٢، ص٤٣٥.

عن مقام ربِّه، وإنما بالتوبة الخالصة لوجه الله والذي يشفعه بالعمل الصالح يعود إلى ربِّه. وإذا به -عند العودة إليه- يجد مقاماً كريماً وجناباً مريعاً، وحناناً ورحمة واسعة.

ثانياً: ما دامت التوبة إلى الرَّبِّ الكريم فإن تبديل السيئات إلى حسنات، والذي ذكر في الآية السابقة ليس بمستغرب أبداً.

ثالثاً: ليس ترك الذنب وحده كافٍ، ولا حتى مع العمل الصالح، وإنما حقيقة التوبة استشعار الندم في مقام الرَّبِّ والسعي لإصلاح الفجوة التي حصلت بالذنب بين العبد وربِّه بالإنابة إليه والضراعة بين يديه.

لقد ابتعد المرء بذنبه عن مقام الرَّبِّ ورحمته وحنانه، كما ابتعد عن نعم الله وآلائه، وعليه أن يعود حتى يدخل في رحاب ربِّه.

» بصائر وأحكام

١- لا تصح التوبة إلَّا إلى الله تعالى.

٢- الذنوب تُبعد الإنسان عن مقام الرَّبِّ ورحمته وحنانه، كما تُبعده عن نعمه وآلائه، ولا يمكن العودة إليها إلَّا بالتوبة إلى الله والضَّرَاعة بين يديه.

» لا يشهدون الزور

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)﴾.

» من الحديث

* عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله قَالَ: «**مَنْ شَهِدَ شَهَادَةَ زُورٍ عَلَى رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَوْ ذِمِّيٍّ أَوْ مَنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ، عُلِّقَ بِلِسَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ مَعَ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»[1].

* سُئِلَ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾، قَالَ عليه السلام: «**مِنْ ذَلِكَ الْغِنَاءُ وَالشِّطْرَنْجُ**»[2].

***

تفصيل القول

إذا وجدتم صفةً في شخص فاطلبوا أخواتها، لأن الصفات

(١) بحار الأنوار: ج١٠١، ص٣١٠.
(٢) مستدرك الوسائل: ج١٣، ص٢١٣.

الحميدة منها والرذيلة من شـأنها التواصل مع بعضها؛ إذ لكل منها جذور في النفس البشرية وتنتهي جميعاً إلى صفة واحدة.

فمثلاً إذا رأينا صفة الخيانة في شخص فلابد أن يكون كاذباً، وإذا كان كاذباً كان فاسـقاً وهكذا تتـوالى صفات الشرِّ حتى تنتهي إلى الصفة التي تفرعت منها بادئ ذي بدء.

كذلك شـأن الصفات الحميدة، فإنما هي صفات تتصل بواقع في ذاته، فإذا كان المرء أميناً فهو صادق، وإذا كان صادقاً فهو شجاع، وإذا كان شجاعاً فهو كريم... إلى آخر الصفات الحميدة الطيبة.

ولذلـك قلَّما نجد كتاب الله تبارك وتعالى يُحدِّثنا عن المؤمنين إلَّا بسلسـلة من صفاتهم ضمن منظومة كاملة من صفاتهم. وهكذا الأمر بالنسبة للحديث عن المنافقين أو المشركين.

من هنا فإن العقل لا يُقيِّم إنساناً مؤمناً، فيُخرجه من الإيمان لمجـرَّد عُروض تصرُّف سـيئ واحد. كما لا يُقيِّم الإنسـان الفاسـق المتجذرة فيـه صفات الرذيلة، فيعتبره صالحاً لمجـرد تصرُّفه تصرُّفاً صالحـاً واحداً، وإنما لابـد للعقل من الرجـوع إلى منظومة صفات كل منهما. وهكذا.

١ - ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾.

أن يشهد المرء زُوراً حالة مغايرة للشرع المُقدَّس، لماذا؟.

لأن مـن صفـات المؤمن أنـه يأمر بالمعـروف وينهى عـن المنكر ويدعـو إلى العـدل والخير، وشـهادة الزُّور تُخالف الموقـف الذي ينبغي أن يصـدر عن الرجل المؤمن المُتَّصف بتلك الصفات السـامية. إنه أبداً يسعى من أجل إحقاق الحق، وإن كان على نفسه أو مَنْ يُحِبُّه.

فَأَنْ يشـهد المرء الزُّور، فهذا يعني تعمُّده الوقوف مع الظالم. فيـما المؤمن مُكلَّف بالـبراءة من الظالم، كما هو مأمور بعدم ممارسـة الظلم. فـإذا والى المؤمن العدل وأهله وتبرّأ من الظلم وأهله يكون قد اختطَّ لنفسه منهجاً إلهيًّا كُلّه الحق والصدق قولاً وفعلاً.

أمـا إذا مـارس شـهادة الـزور، فهـو في الحقيقـة لم يتبـصَّر مسـؤوليته التي حمَّله الله إيَّاها، وهي أن يكون إنسـاناً رافضاً للظلم من أين كان ومن أيِّ شخص صدر، موائماً للحق والعدل.

٢ - ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

المـرور هو الحركـة السريعة عـلى نقطة معينـة، ومن صفات المؤمنـين أنهـم إذا وصلوا مكانـاً يُتحدَّث فيه باللغـو أو الخوض في الباطل وما يُؤدي التشاغل فيه إلى نسيان ذكر الله عز وجل، أسرعوا بالمغادرة. مغادرة من تأبى عليه كرامته الخوض في اللغو والاستماع إليه، لا سيما إذا لم يكن قادراً على توجيه النُّصْح والإرشاد، أو لم يجد الأُذُن الصاغيـة للنُّصْح والإرشـاد. إذ اللغو يُنسي ذكر الله، ويُضيِّـع عـلى الفرد نعمة كبيرة مـن نعم الله، وهي الوقت وفرصة العمر.

» أنْ يشـهد المـرء الـزُّور، فهـذا يعني تعمُّـده الوقوف مع الظالم. فيمـا المؤمن مُكلَّـف بالـبراءة من الظـالم، كما هو مأمور بعدم ممارسـة الظلم.

ثم إن المطلوب من المؤمن أن يكون إيجابيَّ المنحى في حياته، فيما الخوض في اللغو يُعَدُّ مصدراً من مصادر السـلبية، لأنها تسـلبه هدفيتـه إلى تحقيق الحـق والخير. وبـدلاً من أن يُضيِّع المـرء فرصته، عليـه أن يُوظِّفها في سبيل الحق.

واللغـو يُمكـن أن يكـون حديثاً باطـلاً، أو كتاباً ضـالًّا، أو إنتاجاً سينمائيًّا ماجناً، أو حتى ثرثرة تُؤدِّي إلى البذاءة في القول.

» بصائر وأحكام

١ - شـهادة الزُّور تُضادّ القيام لله بالقسـط، وتُخالف الموقف الـذي ينبغي أن يصدر عن المؤمن ذي الموقف الصادق والهادف إلى إحقاق الحق، وإن كان ذلك على نفسه.

٢ - اللغـو يُنسي ذكر الله، ويُضيِّع على الفـرد نعمةً كبيرةً من نَعِم الله، وهي الوقت. لذا ينبغي على المؤمن هجران ذلك.

» آيات اللّه ذكرى المؤمنين

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣)﴾.

» من الحديث

عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا﴾ قَالَ عليه السلام: **مُسْتَبْصِرِينَ لَيْسُوا بِشُكَّاكٍ**»[1].

***

تفصيل القول

القلب؛ قلب الإنسان الذي تعترك فيه القوى المتناقضة من خير وشر، ويقين وشبهات.. هو كوعاء فيه منافذ، والمنافذ هي الحواس؛ فإذا كانت الحواس طيِّبة نزيهة صافية عن الدرن، فإن القلب سيتمتع بالقدرة على الاختيار بصورة سليمة. أما إذا اختلَّت الحواس، فإن القلب بدوره سيختل ولن يجد الفرصة للاختيار السليم.

(١) روضة الكافي: ج٨، ص١٧٨.

ومن صفات المؤمنين أن لهم ضوابط وموازين فيما يسمعون وفيما يقولون، فهم لا يخوضون مع الخائضين.

وإنما تتركَّز فيهم هذه الصفة الطيبة لأن لهم حواس طيبةً، فلا يسقطون صمَّا ولا عمياناً لدى تذكيرهم بآيات الله، وإنما يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه، وفيهم القابلية إلى التبصَّر بعيون مفتوحة تنفذ إلى أغوار الحقيقة.

وربُّنا المتعال الذي جعل أصول المعارف في قلب الإنسان، طالبه بالمحافظة على سلامة ونزاهة قلبه لكيلا يحجبه حجاب عن التذكرة بآيات الله. ولولا نزاهة القلب، لصار ابن آدم أسوأ شأناً من الحيوان الرهين بغرائزه فحسب.

وبين الإنسان وبين النهوض بواقعه إلى ما هو أعلى شأناً من الملائكة، الاستجابةُ لما يُذكَّر به من الآيات الإلهية. وآيات الرَّبِّ قد تكون نصًّا قرآنيًّا، أو روايةً مأثورةً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآله الطاهرين عليهم السلام. وقد تكون ظاهرة في الخلق مثل زلزال مُدمِّر، أو فيضانات عارمة، ومثل سقوط طاغية وهكذا. وقد تكون مُتجسِّدة في سيرة أشخاص الأنبياء والأئمة عليهم السلام. وبالتالي فإن كل آية إلهية خَلْقٌ من خَلْقِ الله تعالى مع تفاوت الدرجة فيما بين مصاديقها، وهي جميعاً وسيلة تذكير بالله سبحانه وتعالى.

فحين يُذَكَّر المرء بآيات الله، فلا يخلو من أحد موقفين:

الأول: أنه يَخِرُّ عليها صمًّا عمياً، لأنه لا يريد التصديق بالحقائق، وهو إنما يخر لها، لأنه عاجز عن مواجهة نورها الساطع. فهو بدلاً من التصديق بها، يُحاول اللغو فيها ومواجهتها بإثارة الفوضى والشك والريبة.

الثاني: أنه يخرّ ساجداً لربِّه مُستسلماً مُصدِّقاً ضمن استيعاب تام من جميع جوارحه، وأهمها السمع والبصر؛ لأن نداء الفطرة نداء ذو صدىً قوي في آفاق حياته، لأنه يحمله المسؤولية. ولذلك ترى التذكير هذا ينفذ نفوذاً واسعاً إلى قلبه، ليتمكَّن من الاختيار الصائب وتفعيل إرادته وتوجيهها نحو الحق والصدق.

» بصائر وأحكام

المؤمنون لا يسقطون صمًّا وعمياناً لدى تذكرهم بآيات الله، وإنما هم يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه، وفيهم القابلية إلى التبصُّر بعيون مفتوحة تنفذ إلى أغوار الحقائق.

» من تطلعات عباد الرحمن

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

» من الحديث

عَنْ أَبَانِ بْنِ تَغْلِبَ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ قَوْلِهِ ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ قَالَ عليه السلام: **نَحْنُ هُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ**»[1].

***

تفصيل القول

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، ومنحه فرصاً كبيرة للتكامل، وجعل في قلبه تطلّعاً عظيماً يُحفِّزه نحو اغتنام تلك الفرص، وجعل الدعاء إليه وسيلةً للقضاء على اليأس والتزوُّد بالأمل.

(١) بحار الأنوار: ج٢٤، ص١٣٤.

فإذا وجدتَ نفسك في وادٍ سحيقٍ يُحيط بك الفقر والضعف والمسكنة، فلا تيأس فإن رحمة الله واسعة، وهو قادر على أن ينتشلك إلى الذُّرى السامقة.

لذلك ترى المؤمنين الذين ارتقوا إلى مستوى (عباد الرحمن) والذين صاغت شخصياتهم آيات الذكر الحكيم وربَّاهم كلام الله المجيد.. تجدهم يمتازون بالتطلُّع الذي هو جزء من حقيقة الإنسان، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[1].

فلا يملأ ظمأه إلَّا كأس القُرب منه، ولا يطمئن قلبه إلَّا في رحاب الزلفى منه. وهكذا تجد تطلُّع عباد الرحمن يبلغ غاية الرفعة. فهم يطلبون في الدنيا أفضل ما يمكن أن يطلبه الإنسانُ السَّويُّ من عافية وأمنٍ وغنى عن شِرار الناس.

ولله في خلقه الصالحين شؤون؛ إذ تتدرج حاجاتهم، فبعد أن تكتمل مُتطلَّباتهم الشخصية، التفتوا إلى ما يَهمُّ ذرياتهم وأزواجهم. ثم تطلعوا لأن يكونوا أفضل المتقين. وإذا عرفنا أن المتقين: «**هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ**»[2] كما قال أمير المؤمنين عليه السلام، على النقيض من الذين يهبطون إلى ما هو أقل من منزلة الأنعام؛ نعرف أبعاد تطلعهم هذا، حيث تراهم يُريدون أن يكونوا خيرة الخير.

وقد جاء تطلُّعهم في صيغة دعاء؛ لأن الدعاء يعكس الطموح إلى ما عند الله مما هو خير وأبقى، كما يعني هدفية الإنسان.

---

(١) سورة الإنشقاق، آية: ٦.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم: ١٩٣.

ثم الدعـاء لابد أن يكون قرين العمـل الصالح؛ لأنه يكفي من الدعاء مع العمل الصالح ما يكفي الطعام من الملح.

١ - ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا ﴾.

يمكـن أن يكـون للإنسـان زوجـة أو أكثر، أمـا الذرية بلغة القرآن الكريم هي امتداد الإنسان في أولاده وأحفاده، وهكذا.

لما كان تطلُّع عباد الرحمن في ذرياتهم بمسـتوى اتِّصالهم بالله تعـالى، فهو -إذاً- تطلُّع سـامٍ، لأنهـم يرغبون في أن يكـون امتداد أجيالهم إلى يوم القيامة ضمن نطاق الصلاح، ليكون عندهم لسـان صدق في الآخرين.

مما يُشـير إلى أن من صفات عباد الرحمن كونهم لا يسـعون إلى إسـعاد أنفسـهم فقـط، لأنهـم غـير أنانيـين أبـداً، بـل تراهم ينشـدون السـعادة لأزواجهم ولذرياتهم كما ينشدونها لأنفسهم أيضاً، لإيمانهم المسبق بما أُلقي عليهم من مسؤولية حفظ الأمانة الإلهيـة التـي وصلتهم مـن آبائهم، حيـث ينبغـي أن ينقلوها إلى ذرياتهم.

٢ - ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

قُرَّة من القُرِّ، وهو البرد. والإنسـان حين يكون حزيناً تدمع عينـه، بينما تراه حين يُسَرُّ تَقَـرُّ عينه وتبرد. والمقصود هنا رجاء عباد الرحمـن مـن الله ألَّا يجعل أزواجهم أو ذُريَّاتهـم مصدر إزعاج لهم، بل سبباً للسرور.

ومعنـى أن يجعـل الله تبـارك وتعـالى أزواج عبـاد الرحمـن وذُريَّاتهم مصدر سرور وسـبب راحة، أن يُمكِّنَهم من تحقيق سـبل

هذا الهـدف الديني والنفسي لهـم، كالتوفيق لتربيتهـم تربية صالحة وفقـاً لما رسـم الدين الحنيـف من مناهج في هذا الإطـار، كالالتزام بالأخلاق الأسرية الفاضلة والتعامل مع أفراد العائلة تعاملاً بعيداً عن الخسة والدناءة والصَّلَف والجهل.

إن مـن شـأن المؤمـن العابد للرحمن أن يسـتلهم مـن الرحمة الإلهية، ليضع برنامجاً متكاملاً، ويُربِّي أبناءه عليه، كما يسعى جاهداً لترفيه زوجته على أفضل وجه.

ولا نقصد بالرفاهِيَة الجانب المالي فحسب، وإنما أيضاً الخُلُق الحسن، والعشرة بالمعروف، وتبادل الحب والاحترام، واتِّباع منهج التواصي والتشاور والتعاون بأفضل أسلوب ممكن.

٣- ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

عابـد الرحمن يُريد أن يكـون إماماً للمُتَّقين، ولكن ماذا عليه أن يفعل ليكون هو إماماً لهم؟.

أولاً: إن المتقـين هـم أوليـاء الله وأولياء رسـول الله ﷺ، وأهـل بيته حجج الله عليهم السلام، وهم العارفون بكتاب الله والعاملون به، وهم المُبادرون إلى عمل الخير.

ثانيـاً: إن الله تبـارك وتعالى يُرشـدنا إلى الارتقـاء بطموحنا، لنصل إلى درجة أئمة للمتقين، بأن نكون الأكثر قرباً من ربِّنا وإيماناً به وبرسـوله وبكتابه، والأشـد إقبالاً على عمل الخير، والأبعد عن ممارسة الشر والباطل. وهنالك نصبح أئمة للمتقين حقًّا.

ولكـن علينـا ألَّا نكتفي بمجرد الكلام فنُصـاب بازدواجية الشخصية، لأن إعلان الرغبة في إمامة المتقين وقيادتهم، ليس حديثاً

يُقال وكلمات تُلفظ، بل إنه جهد جِدِّي بالتوكُّل على الله المتعال.

إن أحـد أهم أوجـه إمامة المتقين هو المُبـادرة إلى فعل الخير، وأداء الفرائض، والامتناع عن الرذائل والمُحرَّمات.

ثم إنّ هـذه البصيرة القرآنية تُثـير رغبة كامنة في نفوس البشر، هي الرغبة في الاستباق والتقدُّم.

» إن من شأن المؤمن العابـد للرحمـن أن يسـتلهم مـن الرحمة الإلهيـة، ليضع برنامجًا متكاملًا، ويُربِّي أبناءه عليـه، كمـا يسـعى جاهـدًا لترفيه زوجته على أفضل وجه.

فغريزة حب الرئاسـة تُولد مع الإنسـان وتدفعه إلى البحث عن التميُّز، فلم لا يكون سعي هذا الإنسان في تزعُّـم أفضـل ثلة على وجـه الأرض، وهـم المتقون حتـى يكـون التنافـس عـلى المكرمـات والتسـابق إلى الخـيرات؛ ذلك لأن أجواء هذه الثلـة أجواء صالحة لا تُدخـل في حرام أو تُخرج من حـلال. وأقصد من ذلك كلـه أن يبذل الفرد المؤمن كل وسـعه لتجيير هـذه الغريزة في إطار الخير دون عكسه. ولا ينبغي للفرد المؤمن أن يستخِفَّ بمدى تأثير هذه الغريزة، وهي التي طالما تسبَّبت في انحراف الكثير من الناس، وأشـعلت ما لا يُحصى مـن النزاعات والحـروب؛ وذلك لأن حب الجـاه والسـلطة أدَّت بالكثـير أن يبتدعـوا ديانـات وفرقـاً وأحزاباً وتجمُّعات ما أنزل الله بها من سُلطان.

نعم؛ إن الرئاسـة شيء جميل، ولكن لا ينبغي أن يكون حبها على حسـاب تضييع الـذات أو إضلال الآخريـن. وهكذا نجد أن تعاليم الله عز وجل تدعو عباده الصادقين إلى ألَّا يرضوا بأن يكونوا أذيـالاً لغيرهم، بل يبحثوا عن أرقـى كيان عُرف ويُعرف على وجه الأرض، وهو كيان المتقين، ثم يطمحوا إلى إمامتهم.

» بصائر وأحكام

١ - لما كان تطلُّع عباد الرحمن تطلُّعاً بمستوى اتصالهم بالله تعالى، فهو -إذاً- تطلُّع بعيد، لأنهم يرغبون في أن يكون امتداد أجيالهم إلى يوم القيامة ضمن نطاق الصلاح، ليكون عندهم لسان صدق في الآخرين.

٢- عباد الرحمن ينشدون السعادة لأزواجهم ولذرياتهم كما ينشدونها لأنفسهم، وذلك لإيمانهم المُسبق بما ألقي عليهم من مسؤولية حفظ الأمانة الإلهية التي وصلتهم من آبائهم، وعليهم أن ينقلوها إلى ذرياتهم.

٣- أحد أهم أوجه إمامة المتقين هو المبادرة إلى فعل الخير والمسارعة إليها، وأداء الفرائض والامتناع عن الرذائل والمحرمات.

» عقبى عباد الرحمن

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ ﴾.

» من الحديث

* قال رسول الله ﷺ: «إن فِي الجَنَّةِ غُرْفَةً يُرَى ظَاهِرُهَا مِن بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِن ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللهُ لِمَن أَطْعَمَ الطَّعَام، وَأَلَانَ الْكَلَام، وَتَابَع الصِّيَام، وَصَلَّى وَالنَّاسُ نِيَام»[(١)].

* عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي كَلَامٍ ذَكَرَهُ فِي عَلِيٍّ فَذَكَرَهُ سَلْمَانُ لِعَلِيٍّ فَقَالَ: «.. يَا عَلِيُّ! لَقَدْ خَصَّكَ اللهُ بِالْحِلْمِ وَالْعِلْمِ وَالْغُرْفَةِ الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾، وَاللهِ إِنَّهَا لَغُرْفَةٌ مَا دَخَلَهَا أَحَدٌ قَطُّ وَلَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ أَبَداً حَتَّى تَقُومَ عَلَى رَبِّكَ، وَإِنَّهُ لَيَحِفُّ بِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ مَا يَحُفُّونَ إِلَى يَوْمِهِمْ ذَلِكَ فِي إِصْلَاحِهَا وَالمَرَمَّةِ لَهَا حَتَّى تَدْخُلَهَا ثُمَّ يُدْخِلُ اللهُ عَلَيْكَ فِيهَا أَهْلَ بَيْتِكَ..»[(٢)]

---

(١) الدر المنثور: ج٥، ص٨١.
(٢) بحار الأنوار: ج٧، ص٣٣٢.

* عَنْ ثَابِتٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليهما السلام فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ قَالَ عليه السلام: «**الْغُرْفَةُ الْجَنَّةُ بِمَا صَبَرُوا عَلَى الْفِتَنِ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا**»[1].

***

تفصيل القول

تبقى فطرة الإنسان فضاءً نقيًّا لانعكاس سنن الله تعالى في خلقه عليها، ومن هنا فهي تظل تبحث عن أمرين أساسيين:

الأول: التكامل والنمو (جلب المنفعة).

الثاني: تجنُّب الأخطار (دفع الضرر).

إذ الفرد يُريد النمو، وفي الوقت نفسه لا يريد الضرر. ولكن كيف يحصل البشر على هذين المطلبين بأجرين؟.

بالعمل والدعاء. فترى المؤمنين لا يكتفون بالعمل ولا هم يكتفون بالدعاء. ومن هنا فإن جزاءهم تحقيق كلا المطلبين، فهم يُجزون الغرفة ويُجزون بالتحية والسلام.

أما الغرفة؛ فهي البيت الرفيع والكيان السامي.. ومن حيث الصورة المادية، فإن الغرفة يُراد بها البيت المبني على الدار.

ولكن لماذا يُجزى هؤلاء بالغرفة؟. وأية غرفة غرفتهم؟.

إنها غرفة في الدنيا، وغرفة أسمى في الآخرة. فأما التي في الدنيا، فهي مهبط الرحمة الإلهية، وهي الأسرة التي قال عنها تعالى:

(١) بحار الأنوار: ج٧٥، ص١٨٦.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾(1).

وهذه الغرفة من الناحية المادية مكان له سقف وسور، ومن الناحية الاجتماعية مجمع الأسرة المؤمنة. ويبدو أن هذه الغرفة هي استجابة لدعائهم في الدنيا: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾(2). والجمع هذا أحد أوجه الهبة الإلهية المرجوَّة، لأنه تجسيد مثالي للتسلسل الإيماني.

» المؤمنون.. لا يكتفون بالعمل ولا بالدعاء. ومن هنا فإن جزاءهم تحقيق كلا المطلبين، فهم يُجزون الغرفة ويُجزون بالتحية والسلام.

أما الغرفة في الآخرة فهي مقام سام يجتمع فيه أبناء الأسرة بإذن الله، حيث يقول ربنا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾(3).

وهكذا فإن دعوتهم في الدنيا باجتماع أسرتهم على التقوى، تتجسَّد في الآخرة أيضاً حيث يلتئم جمعهم على مائدة الرحمة الإلهية.

١- ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ﴾.

والسؤال: لماذا لم يشُر إليهم بـ(هؤلاء) مع أن الحديث عنهم حديث مباشر؟ فلعل السبب فيه أن كلمة (أولئك) تدل على العظمة والرفعة.

فهم بالتالي يجمعهم الله تعالى إلى جائزتهم العظيمة سواء في

(1) سورة النور، آية ٣٦.
(2) سورة الفرقان، آية: ٨٤.
(3) سورة الطور، آية ٢١.

إطارهم المعنوي في الدنيا، أو في غرفة الجنة في الآخرة.

٢- ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾.

بهذه الكلمة يختزل القرآن الكريم حقائق كبيرة وكثيرة، منها أن الصبر هو سيد الأخلاق، وأن الصبر هو المعيار الأساس في بناء الأسرة الفاضلة، وفي المبادرة إلى إمامة المتقين، وفي مواجهات التحديات. فالصبر صبر على الأذى، وصبر على الشهوات، وصبر على استمرارية العمل الصالح.

وأستفيد من كلمة الصبر، فأقول: إن أهم صفة ينبغي أن يتحلَّى بها المؤمن في تربية أبنائه وأداء دوره الإلهي في مجتمعه حتى يكون إماماً لهم؛ هي صفة عدم التعجُّل، إذ العجلة سبب تعطيلٍ للطاقات وطموحات النجاح.

وهنا لفتة واضحة، مفادها أن قائد الأسرة الناجحة هو قائد الأمة الناجحة؛ إذ الأسرة نواة المجتمع ومنها تنطلق الحركة باتِّجاه الدوائر الاجتماعية الأكثر اتِّساعاً؛ ولذلك حكى ربُّنا المتعال عن عباد الرحمن أنهم يدعونه أن تكون لهم من أزواجهم وذرياتهم قرة أعين، وأن يجعلهم للمتقين إماماً، فكأن الإنسان القائد يعتبر المجتمع كله أسرة له. وهذا ما يحتاج تحقيقه إلى صبر وأناة وسعة صدر.

٣- ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾.

والتحية ليست بالألفاظ فحسب، وإنما يُعطون الحياة الطيبة، فضلاً من الله سبحانه وتعالى. فالتحية عطاء، وعطاء مستمر مفعم بالخير والبركة. ولا يشعر الوارد في الجنة أي شعور بالخطر، لا عاجلاً ولا آجلاً؛ إذ هي سلام دائم، فلا تُوجد هناك عوامل

الخوف والخطر، لماذا؟. لأن المؤمن في الدنيا لم يُلْبِس إيمانه بظلم، فلماذا الخوف؟.

» بصائر وأحكام

١- إكراماً للمؤمنين يرفع الله ذرياتهم، فتجمعهم الغرفة، فيُشملون بنعمة الجمع. والجمع هذا أحد أوجه الهبة الإلهية المرجوَّة؛ لأنه تجسيد مثالي للتكامل الإيماني.

٢- أهم صفة ينبغي أن يتحلَّى بها المؤمن في تربية أبنائه وأداء دوره الإلهي في مجتمعه حتى يكون إماماً لهم هي صفة الصبر، وذلك لأن العجلة سبب تعطيل للطاقات وطموحات النجاح.

» خالدون في جنة الرحمن

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾.

» من الحديث

قال رسـول الله ﷺ عن عقبى المؤمنـين الذين عظَّموا الله بطاعته في شـهر رمضان: «.. **فَهُمْ فِي الجَنَّةِ خَالِدُونَ، لَا يَشِيبُونَ فِيهَا وَلَا يَهْرَمُـونَ، وَلَا يُحَوَّلُونَ عَنْهَا وَلَا يُخْرَجُـونَ، وَلَا يُقْلَقُون فِيهَا وَلَا يَغْتَمُّونَ، بَلْ هُمْ فِيهَا سَارُّونَ مِنْ خَوْفٍ [سَارُّونَ فَرِحُونَ] مُبْتَهِجُونَ، آمِنُونَ، مُطْمَئِنُّونَ،** ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[1]»[2].

***

تفصيل القول

١ - ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾.

والخلـود هنا جـزاء كبير من الله ذي المنة، وهو لا يعني تحوُّل الإنسـان في الجنـة إلى إلهٍ أو نصـف إلهٍ، بل الخلـود للمؤمنين يعني

(١) سورة البقرة، آية: ٦٢.
(٢) بحار الأنوار: ج٩٣، ص٣٧٥.

تفعيـلاً لوعد الله القاضي بـأن يبقى يفيض من رحمته وفضله عليهم ما دامت السماوات والأرض ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1].

وهذه الجنة قد:

٢- ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

باعتبارهـا المسـتقر النهائي والمقام الأبدي الـذي اختاره الله تعالى للمؤمنين، وهي في مقابل ما ذكر الله عن مصير أهل المساوئ، حيـث وصفـه مـن قبـل: ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[2]، وهـي نـار جهنـم.. ممـا يعني أن ابـن آدم ليس له أن يختار من الجنة شـيئاً ومن النار شـيئاً، وإنـما هو مُلزَم بأن يختار الجنة دون سـواها، وإن لم يختر الجنة، فقد اختيرت له النار. فالأسـاس هو قرار الإنسان واختياره، وإذا ما قرَّر، وفَّر الله شروط تحقُّق قراره.

» بصائر وأحكام

الخلود جزاء عظيم من الله ذي المنة، ولا يعني تحوُّل الإنسان هنـاك إلى إلـه، بل يعني تفعيـلاً لوعد الله القاضي بـأن يبقى يفيض عليه من رحمته وفضله.

(١) سورة هود، آية: ١٠٨.
(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٦.

» لولا دعاؤكم

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾ ﴾.

» من الحديث

عَنْ بُرَيْدٍ الْعِجْلِيِّ فِي حَدِيثٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: فَأَيُّهُمَا أَفْضَلُ كَثْرَةُ الْقِرَاءَةِ أَوْ كَثْرَةُ الدُّعَاءِ؟.

فَقَالَ عليه السلام: «**كَثْرَةُ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ، أَمَا تَسْمَعُ لِقَوْلِ الله تَعَالَى لِنَبِيِّهِ** صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾»[(١)].

***

تفصيل القول

مما يُميِّز سورة الفرقان الكريمة أنها بدأت بالحديث عن الكتاب لتنتهي بما يتعلَّق بموضوع الدعاء. والعلاقة بين الموضوعين أن القرآن المجيد قد جعل الله فيه الخارطة الكاملة

(١) وسائل الشيعة: ج٦، ص٣٣٣.

لسننه التي يحتاجها البشر ويُحاكمون على ضوئها.. كما أن اختتام هذه السورة المباركة بموضوع الدعاء ليتأكد لنا أن السنن الإلهية ليست الوحيدة الحاكمة في الكائنات، إذ وراءها أوامر إلهية مباشرة لا تدخل ضمن تلكم السنن.

ومثل تلكم الأوامر الإلهية ما يتعلَّق بدعاء الإنسان الذي يتوجَّه به إلى ربِّه المتعال بعد أن يُحرز شروطه اللازمة، وبعد أن يرى الله الحكمة في استجابة هذا الدعاء.

كما أن من تلكم الأوامر الإلهية الغالبة على السنن، أن الله جلَّت قدرته يأمر عصا النبي موسى عليه السلام فتتحوَّل إلى ثعبان تلقف ما يأفك السحرة وتضطر فرعون إلى الفرار بعد أن ملئ رُعباً.. ولو كان للعصا نفسها أن تتحوَّل ثعباناً وفق السنن التكوينية، لاحتاجت إلى مئات السنين، ولكن الأمر الإلهي الصارم وقع على العصا دفعةً واحدة، فكانت ثعباناً بالأمر العزيز الجليل.

فالقرآن المجيد كما يُعطينا الخريطة الكاملة لسنن الحياة، كذلك يُخبرنا ويُرشدنا إلى اللجوء لما هو فوق هذه السنن، لدفع البلاء المترتب على حاكمية السنن، ونقصد بذلك: الدعاء إلى الله الرحمن الرحيم، لردِّ المبرم من القضاء. وهكذا كرَّم الرَّبُّ المتعال عبده المطيع له الخاشع لقدسه.

ولذلك أكَّد الدين الحنيف ضرورة التوكُّل على الله وتفويض الأمر إليه، لأنه أرحم بعبده من الأم بصغيرها. وما أرحم الرَّبَّ وأكرمه، وهو الذي يُصدر أوامره بناءً على دعوة إنسان مظلوم مغلوب على أمره تتناوشه الخطوب من كل حدب وصوب.

وقد ورد عن الإمام الحسين عليه السلام في دعائه يوم عرفة: «**إِلَهِي**

أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ لِي عَنْ تَدْبِيرِي، وَبِاخْتِيَارِكَ عَنِ اخْتِيَارِي»[(١)].

وحيث إن مُبرم القضاء يُرفَع ويُفَلُّ بأيسر الدعاء، فإن من اللازم بابن آدم ألَّا يبخل بالدعاء.

ولو أننا تتبَّعنا كتاب الله تعالى وحقَّقنا في موضوعاته وجدنا أنه إذا تحدَّث عن السنن الكونية مرة، فإنه يتحدَّث عن المتغيرات مرتين؛ هذه المتغيرات المُنبثقة عن الأوامر الإلهية؛ إذ إن له سبحانه الأمر من قبلُ ومن بعدُ. وذلك لأن المشكلة النفسية الكبرى التي تعتري بني آدم على الدوام أنهم لا يُؤمنون بربٍّ يُدبِّر أمورهم ويتصرَّف في شؤونهم. فهم يتصوَّرون خطأً بأن الله خلقهم ثم تركهم لشأنهم وفوَّض الأمور إليهم. وهكذا فإنك قد لا تجد في الدنيا من يُنكر وجود الله بتاتاً، وإنما الكفَّار يُنكرون ربَّانيَّته وأنَّه يُدبِّر شؤونهم أولاً بأول.

ولو أن البشر تمكَّنوا من اجتياز هذه العقبة وعرفوا كيف يتدخَّل قضاء الله سبحانه في شؤون خلقه، لسما واقعهم أيَّما سمو، لأنهم سيجدون على وجه اليقين طريقاً لا أيسر منه للاتصال به جل وعلا، وهو الدعاء. والدعاء مُخُّ العبادة وأداة اليقين. والله تعالى لا يعبأ بعباده لولا أنهم يدعونه؛ لأنه يلتفت بوجهه الكريم لعباده الداعين السائلين إيَّاه من فضله العميم، مع أدائهم وظائفهم وواجباتهم المُلقاة على عواتقهم، فهم يتوكَّلون ولا يتواكلون.. وهم يرغبون في الله ولا يرغبون عنه.

» ما يُميِّز سورة الفرقان أنها بدأت بالحديث عن الكتاب لتنتهي بما يتعلق بموضوع الدعاء. والعلاقة بينهما أن القرآن قد جعل الله فيه الخارطة الكاملة لسننه التي يحتاجها البشر.

ولكن ماذا يفعل بِمَنْ يدَّعي أن يد الله مغلولة؟. وماذا يُصار

(١) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٢٢٦.

بِمَـنْ يُكَذِّب بالكرم الإلهـي؟. وماذا يُقال لمن يدَّعي بأن ما لديه إنما أُوتيـه على علم من عنده؟. إنما سـيُلزمه الله بـما قال وكذَّب وافترى على الله وأراد تهرُّباً من الحقيقة الإلهية الواضحة.

وكلمـة أخيرة؛ قالوا إذا أراد العبـد أن يتكلَّم معه ربُّه فليقرأ القرآن، وإذا أراد أن يتكلَّم مع ربِّه فليشتغل بالدعاء. وهكذا سورة الفرقان بدأت ببيان الأول وانتهت بالثاني.

» بصائر وأحكام

كـما أن القرآن المجيـد يُعطينا الخريطة الكاملة لسُـنن الحياة، كذلك تراه يُرشـدنا إلى اللجوء لما هو فوق هذه السُّـنن لدفع البلاء المترتِّب على حاكمية السُّـنن، ونقصد بذلـك الدعاء إلى الله الرحمن الرحيم، لردِّ المُبرم من القضاء.